

# محاويراتي مع السادات

أحمد بهاء الدين



دار الهلال





اهداءات ٢٠٠٦

اد. محمد طه

جراح بالمستشفى الملكي المصري



أحمد بهاء الدين

# مداورات مع السادات

دار الهلال



## مقدمة

●● عندما بدأ نشر هذا الكتاب مسلسلا في عدد من الصحف والمجلات العربية ، قدمت لهذه السلسلة بالكلمة التالية :

« هذه الأحاديث ليست مذكرات ، فالمذكرات تقتضي تغطية مرحلة من المراحل التي عايشها الكاتب بكافة جوانبها وبكل أحداثها وأبطالها . وهي أيضا ليست كتابا عن أنور السادات . فهذا عمل يقتضي دراسة الشخص التاريخي بكل مراحل حياته وبكل جوانب شخصيته وسياساته . وهذا أيضا ليس هدف الكتاب » .

ولكن هذه السطور اختارت لنفسها مسحة محددة للحديث ، وهي « محاورات مباشرة » دارت بين الكاتب ورئيس الدولة في مراحل مختلفة وموضوعات متعددة .

ولم يكن مقصودا تسجيل كل ما دار من حوارات مما يتعلق بمئات الأحداث ومئات الأشخاص ، ولكنني عمدت الى الانتقاء الشديد لما تصورت أنه يلقي ضوءا مباشرا على تفكير الرجل ودوافعه وطريقة نظره للأشياء والأشخاص من الزاوية التي أتيج لي أن أراها بشكل مباشر .

وليس لدى على هذه المحاورات شهود ، الا في القليل النادر ، وليس لدى وثائق الا اقل وأندر ، فانا أسجل هذه الأحاديث معتمدا على الذاكرة تماما تاركا الحكم عليها للقارئ ورايه في أملة الكاتب ومسئوليته .

وليس لدى ، وأنا أقدم هذه المحاورات في صورة كتاب ، الكثير مما يمكن أن يضاف الى هذا التقديم البسيط ..

فقط أحب أن أسجل ، إن ما تلقينته من الذين عاشوا بعض هذه

الأحداث ، نفيًا أو تأكيدًا ، قد زاد كلاهما من تمسكي بدقة كل سطر  
كتبته في هذا الكتاب ، دون أي تعديل ..  
الامر الثاني هو : أنه من الممكن بالطبع أن أكتب ، في مجال هذه  
الحوارات ، عشرة أمثال ما كتبت . فالأحداث غزيرة والكلام كثير .  
ولكنني أؤكد للقارئ ، الذي تفضل وعبر عن ثقته في كرم ، انني  
راعت كل الحرمات واحترمت كل الخصوصيات ، ولم اتطرق لأراء  
شئني للسادات في شخصيات ، محترمة قاعدة أن « المجالس أمانات » ،  
ومختلفة في أضييق الحدود بما رأيت أن له صفة الموضوع العام ،  
والشخص العام . وإذا كنت قد تطرقت الى رواية بعض الأحداث  
الجانبية ، والشخصيات ، فقد كان ذلك فقط في اطار شرح السياق  
الذي لابد من شرحه لاعطاء جو ، الحوار ، مناسيته وظروفه .  
« والحوارات » ذاتها هي موضوع الكتاب ، وجوهره .  
و « الحقيقة » عن أي شخص أو موضوع متعددة الجوانب ، ولا  
يكتفي للقارئ أو الباحث القدر الكافي من « الحقيقة » الا بقراءة  
الشهادات المتعددة ، من وجهات نظر متعددة ، في رواية ما حدث ،  
ونذكر ما جرى ، وقد التزمت - كما قلت سابقا - بأن لا أعرض  
« معلوماتي » ، وهي كثيرة بالطبع ، ولكنني ذكرت ما رأيته بعيني ، وما  
سمعته باذني ، وما كان احتكاكي به شخصيا مباشرا . وهو اختيار  
صعب في الكتابة . أرجو أن لا يجده القارئ صعبا في القراءة .  
وفقنا الله جميعا للوفاء ، للحقيقة « قدر ما نستطيع . أما التحليل  
والأراء ، فمجالها واسع ، وممتد على الدوام » ●●

أحمد بهاء الدين

## الانطباعات الأولى .. وبداية المعرفة

عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ، وفي الأيام الأولى بين فجر ٢٣ يوليو وغروب شمس ٢٦ يوليو بإبحار السفينة ( المحروسة ) حاملة الملك فاروق واسرته وحاشيته لم نعرف من الذين قاموا بالثورة إلا اسمين فقط ظهرا على مسرح تلك الأحداث وهما : اللواء محمد نجيب والبكباشي أنور السادات .

كان القدرج الذي اتبعه رجال الثورة في تلك الأيام الأربعة يدل على ذكاء غير طبيعي في الحركة : بدءوا بالقول بأنها حركة في الجيش ومطالبها هي تطهير الجيش وعلى هذا الأسس استدرجوا سياسيا مخضرمًا وماترا هو علي ماهر رئيس الوزراء ورئيس الديوان الملكي عدة مرات إلى قبول رئاسة الوزراء وكانوا قد اختاروا شهر يوليو الذي تنتقل الدولة كلها فيه إلى الإسكندرية . وفي القاهرة لم يحتجوا إلى أكثر من احتلال مبنى قيادة الجيش والقبض على كبار ضباطه والسيطرة على الموقع مع إرسال قوة إلى مبنى الإذاعة وقوة أخرى إلى محطة أبوزعبل .

وذهب علي ماهر إلى الإسكندرية وفوجيء بأن قوات الجيش سبقته إلى هناك وأنها حاصرت قصر راس الخين الذي لجأ إليه الملك . ثم فاجئوا على ماهر بأن الثورة تستهدف عزل الملك عن العرش . تدرج في الحركة محسوب حيث يخدر أعصاب الدولة التي قتلوا .. وتحركات قليلة ولكنها السهل الممتنع .

وقد اختلف الناس وقتها في التخمينات من قائل بأنها انقلاب عسكري لمصلحة أمريكا ولضرب الحركة الوطنية المصرية التي فشل النظامان الملكي والحزبي في احتوائها ، ومن قائل بأنهم شبان وطنيين وللضباط الشبان في الجيش المصري سوابق في التحرك في اللحظات الحاسمة ، ومن قائل أنهم مجرد عسكريين استطاعوا أن يصلوا إلى الحكم وسوف يحكمون ولا شيء أكثر من ذلك .

وبالنسبة لي ، كنت شديد الحماس لأحداث هذه الأيام الأربعة ، فحسبما كان الأمر فإن أسوار القصر العالية التي أقامها الإنجليز منذ دخولهم



مصر حول الخديو توفيق تتهدم والذين يهدمونها مهما كان لوئهم فقد حققوا عملا عجزت الحركة الوطنية المصرية بكل اجزائها عن تحقيقه لا في أربعة أيام ولكن فيما يقرب من ثلاثين سنة أي منذ آخر ثورة وهي ثورة ١٩١٩ . ولكن ظهور اسم أنور السادات على النحو الذي ظهر به في هذه الأيام الأربعة كان يزعجني ويثير مخاوفى ويجعلنى أطرح اسئلة كثيرة . قاسم أنور السادات معروف للناس قبل ذلك بعشر سنوات تقريبا . وكان اسمه يظهر فى ملابسات تثير الشك والارتياح ، فأول مرة سمعنا اسمه كان فى حادث عوامة المراقصة حكمت فهمى حيث ضيبط يساعد ضابطا ألمانيا نازيين تسللوا إلى القاهرة وجيوش رومل تقتحم الحدود المصرية . وكان مألوفاً فى تلك الأيام أن ترى شبابا وطنيا يهتف ترحيبا بالألمان كراهية فى الانجليز .

وقد كنت فى تلك الفترة ضد هذا الانتدفاع لأنهم لا يدركون معنى انتصار النظم النازية والفاشستية وأنها اعتف وأسوأ نظم الحكم وأكثرها قسوة على مستعمراتها ..

وظهور ضابط عصرى وليس تلميذا فى المدارس والجامعات فى موقع الاتصال بجيوش الألمان معناه فى أحسن الاحوال أنه مؤمن بالمبادئ النازية ، وأنه فاشستى التكوين وبالتالي فهناك احتمال كبير أن يكون الضباط الآخرون الذين لا نعرفهم بعد من نفس نمط تفكيره . وظهر اسم أنور السادات بعد تلك مرة ثانية باشتراكه فى محاولة اغتيال أمين عثمان باشا وزير مالية الوفد ورجل الانجليز الأول والذي أصبح همزة الوصل بين قيادة الوفد وبين الانجليز ، واغتيال مجموعة من الشباب - حسين توفيق وزملائه ومنهم من كان عمره نحو خمس عشرة سنة فقط كوزير الخارجية اللاحق محمد إبراهيم كامل - لعمل الاستعمار امر وارء وغير مستغرب متهم كما يحدث فى أى مكان فى العالم .

ولكن وجود أنور السادات بينهم ضابطا فى الجيش واكبر منهم سنا وليس من ( شلتهم ) كان مدعاة للاستغراب . وحين تطورت القضية وأصبح معروفا أن الملك فاروق يحاول أن يساعد هؤلاء ، نكبة فى حزب الوفد الذى جاء إلى الحكم فى الحرب رغم أنه . وقعت على هذا العمل شبهات كثيرة خصوصا ما حدث بسهولة شديدة من تمكن حسين توفيق الذى قتل أمين عثمان بيده والمتهم الأول من الهرب من محكمة باب الخلق ، ثم سرقة أوراق القضية كلها فى أثناء المحاكمة فى وسط الشارع ووضع النهار ثم تهريب حسين توفيق وزميل له من مصر إلى سوريا بنفس السهولة . كان ينم عن وجود يد القصر فى هذه الأحداث .

**محاولة اغتيال النحاس :** وبعد ذلك تردد اسم أنور السادات - همسا وليس رسميا كالمرات السابقة في حادث اغتيال مصطفى النحاس باشا في شارع قصر العيني بالمداغ والرشاشات ، ثم محاولة اغتياله مرة أخرى بنسف بيته في جاردن سيتي بواسطة سيارة لوري محملة بكميات كبيرة من المتفجرات ( ثبت بعد ذلك بسنوات وبعد قيام الثورة أن السادات - اشترك فعلا في الحادثين ) .

وشاعت حكاية أن الملك فاروق قد كون « حرسا حديديا » يقوده الضابط وطيبه الخاص يوسف رشاد لاغتيال أعداء الملك وأصبحت على كل لسان وكان يذكر دائما اسم أنور السادات واسم مصطفى كمال صدقي كعضوين بارزين في الحرس الحديدي ( وقد ثبت أيضا أن أنور السادات كان فعلا في الحرس الحديدي مع الضابط مصطفى كمال صدقي وحسن فهمي عبد المجيد الذي أصبح سفيراً لمصر في المغرب وكندا وذاك فوزي الذي أصبح سفيراً لمصر في البرازيل وغيرهم ) .

هذه الملابس كلها التي ظهر فيها اسم أنور السادات ، والذي ذهب فجر ٢٣ يوليو إلى مبنى الإذاعة ليلقي البيان الأول للثورة كان مثيرا للقلق وعلامات الاستفهام .. هل هو زملاؤه من أصحاب الآراء الفاشستية ؟ أم من الذين تراوحت علاقاتهم بالملك بين الولاء والعداء ؟ أم ضباط يناصرون الحزب الشعبي في مصر - وهو حزب الوفد - العداء ؟

كل هذه الملابس كانت بالنسبة لي أكبر علامة استفهام في تلك الأيام الأولى من الثورة .

وعندما عُرف بعد ذلك أسماء أعضاء مجلس قيادة الثورة وعُرف أن مدير الثورة وقائدها اسمه جمال عبد الناصر ، وقبل أن نعرف عنهم أي شيء .

حدثني احسان عيد القدوس عن أنور السادات . وعلاقته به قبل الثورة ، وأنهما صديقان . وبدأ أنور السادات يأتي أحيانا إلى مجلة روز اليوسف في مبناها القديم ليجلس ساعات مع احسان . وكان بشوشا يقهقه بضحكة عالية ويقدمه احسان لمن يتصادف أن يكون موجودا ولكن كنت أتصرف بنفور من التعرف عليه مفضلا أن أبقى بعيدا عن زعماء المؤسسة العسكرية الذين لم تتضح لنا أهدافهم بعد ، خصوصا بالنسبة لواحد منهم اقترن في ذهني بالاتصال بالألمان النازيين والاشتراك في محاولة اغتيال مصطفى النحاس زعيم الحركة الوطنية الشعبية في ذلك الوقت . كان هذا في أوائل الخمسينيات ..

وفي سنة ١٩٥٧ كانت هناك أمور كثيرة قد اتضحت من فكر وأهداف مجلس قيادة الثورة سواء الغاء الانقلاب أو التحول إلى النظام الجمهوري أو إعادة توزيع الأرض الزراعية أو حضور جمال عبد الناصر مؤتمر باندونج بوصفه أحد زعماء

ومؤسسى حركة عدم الانحياز . وكان الحدث الأكبر طبعا هو تأميم قناة السويس وما أدت اليه من حرب ١٩٥٦ وصمود جمال عبد الناصر وزملائه وانتصار مصر وانسحاب الانجليز نهائيا بعد أكثر من سبعين سنة من الاحتلال . وفى سنة ١٩٥٧ على ما أرجح دق جرس تليفونى بالمنزل وكان المتحدث أنور السادات وقال لى أن جمال عبد الناصر قرر تكوين لجنة مصرية للتضامن الآسيوى الأفريقى تساهم باسم مصر فى هذه الحركة الشعبية الواسعة فى آسيا وأفريقيا ، وأنه تقرر أن يكون أنور السادات رئيسا للجنة ويوسف السباعى سكرتيرا لها وسرد على نحو ١٢ اسماء أعضاء اللجنة وأنا منهم وأخطرتنى بموعد ومكان الاجتماع الأول . وبعد أن شكرته وقبل أن يضع السماعة قال لى على فكرة أحب أن أقول لك أن الرئيس جمال عبد الناصر هو الذى وضع اسمك شخصيا بين أعضاء اللجنة كما وضع اسم نجيب محفوظ . قالها بلهجة توحى بأنه يظن أننى أعرف جمال عبد الناصر شخصيا وهو امر غير صحيح .

وبدأت اللجنة المصرية للتضامن الآسيوى الأفريقى تجمّع وتبحث كل أمور تكوين اللجنة ونشاطاتها فى المقر الذى اختير لها وكان فيلا على شاطئ النيل فى منطقة المنيل وهو المكان الذى مازالت تشغله حتى الآن ..

كان أنور السادات يدير جلساتنا ومناقشاتنا بلباقة وصبر ، ولم يكن يحاول أن يفرض أى رأى أو أن يوحى أنه موجود كتمثيل للسلطة وقد شعرت مع تعاقب الجلسات أنه يميزنى بمعاملة خاصة ، فيقترح أن أكلف بكتابة الوثائق أو أن أقوم بهذا العمل أو ذاك .

وفى سنة ١٩٥٩ استقلت أول دولة فى أفريقيا السوداء وهى غانا تحت زعامة الرئيس كوامى نكروما ..

وصدر قرار من عبد الناصر بتكوين لجنة لكى تذهب الى اكرا لنقل تهنئة مصر إلى نكروما وحضور أول مؤتمر أفريقى يعقد فى قلب أفريقيا ويحضره كل زعماء حركات التحرير فيها ..

وقد شكل الوفد من أنور السادات رئيسا ومن الوزير المرحوم محمد فؤاد جلال وزير الصحة الدكتور عبده سلام ومنى .

وفى المطار عرفنى أنور السادات إلى مدير مكتبه ومرافقه المسافر معنا فوزى عبد الحافظ وهو الذى ظل مديرا لمكتبه حتى يوم اغتياله بعد ذلك بـ ٢٤ عاما ، وكان فوزى عبد الحافظ هو الوحيد ممن كانوا فى المنصة والى

بنفسه فوق أنور السادات فى محاولة لحمايته واختبرت جسده نحو ثمانى عشرة رصاصة ولكن كتب له برغم ذلك العلاج والشفاء ..

والسفر يرفع الكثير من التكليف بين رفاق الرحلة وكان الطريق الى غانا طويلا والطائرات النفاثة لم تعرف بعد وكان لابد أن تذهب من القاهرة الى باريس ومن باريس الى داكار ثم الى اكرا بعد نحو ست عشرة ساعة من الطيران والانتظار فى المطارات ..

وبعد سنة من هذه الرحلة تقريبا استقلت اول دولة من افريقيا الفرنسية وهى غينيا وارسلنا - نفس الاسماء السابقة - لتهنئة سيكو توري وحضور مؤتمر حزبه فى كوناكري . وقد اضيف اليها الاستاذ راتب الحسامى وكيل مجلس الشعب المصرى السورى والاستاذ سامى الدويلى المؤلف والمترجم المعروف وأحد أقطاب حزب البعث وكان ذلك بعد قيام الوحدة بين مصر وسوريا .

كانت الرحلتان متشابهتين بوجه عام ولكن السادات - وهو موضوع هذا الحديث - كان حريصا على دعوتى الى ابداء رأى فى كل موقف ونحن نواجه عالم افريقى جديد ونتعرف على ( توم بوبا ) الذى كان يتوب عن جرم كينيئاتا المسجون فى قيادة حركة المارماو فى كينيا ، وكانا قوير لومومبا من الكنفو وجرشوا نكومو من روديسيا ( زيمبابوى حاليا ) كان معظمهم مطاردين بلا مال أو سلاح ومنهم من جاء سائرا على اقدامه وقد أصبح معظمهم بعد ذلك رؤساء دول فى افريقيا وكانت مصر هى أول وأهم من مدهم بالمساعدات فى المال والسلاح والتأييد السياسى .

وفى رحلات الطائرة الطويلة كان أنور السادات يدعونى دائما تقريبا الى الجلوس فى المقعد المجاور له ، نتحدث فى كل الشئون السياسية والعامه وما يتصل بالثورة المصرية ومشاكل مصر ولا أستطيع أن أتذكر من هذه الأحاديث الطويلة الا جملتين اثنتين علقنا بذهنى :

الاولى : ونحن عائدون الى باريس ثم يتفرق كل منا الى مكان وسألته أين ستذهب بعد باريس الى القاهرة راسا ؟ فرد على قائلا : كلا أريد أن أذهب الى مكان لا اسمع كلمات الاستعمار والامبريالية وما إلى ذلك أنا ذاهب الى النمسا فهى أجمل مكان فى العالم وأحب مكان الى قلبى . وبعد أن صار أنور السادات رئيسا وصارت فيينا محطة له فى كل رحلة تقريبا للقاء برونو كرايسكى ، كنت أسأل نفسى هل ، برونو كرايسكى هو الذى خلق لنفسه هذا الدور أم أن حب أنور السادات للنمسا هو الذى وضع برونو كرايسكى على خريطة سياسة الشرق الأوسط ؟

والجملة الثانية : التي أذكرها من احاديث الطائرات في تلك الفترة ، انه كان يروى لى ذكريات ووقائع عن أحداث ثورة ٢٣ يوليو في بدايتها . وحدثني عن اجتماعات مجلس قيادة الثورة حين تولى الحكم والتي كانت تمتد من العصر الي الصباح الباكر في مناقشات ومنازعات على كل شيء واخذ الرأي على كل قرار بالتصويت والاعلبية والاقلية

ثم قال لى : انا شخصيا لم أحتمل هذه الاجتماعات طويلا وكثيت ورقة أعطى بها صوتى لجمال عبد الناصر فى أى موضوع يطرح . وقلت لهم أنتى لى أحضر بعد ذلك ، ثم أستطرد قائلا « جمال عبد الناصر هو قائد الثورة ومديرها وعقلها بلا منازع فقيما هذا الجدل العقيم بالعشر ساعات أحيانا ؟ هل حدث فى التاريخ أن قامت ثورة بأخذ أصوات الاغلبية والاقلية ؟ الثورة دائما مهما تعدد أقطابها لها زعيم واحد والتحديات والقرارات الحاسمة التى تواجه الثورة تحتاج الى رد فعل سريع من رجل واحد وليس بقضاء الاسابيع والشهور فى مناقشات واخذ الاصوات بالاقلية والاعلبية » .

وكان يهاجم أعضاء مجلس الثورة ويتهممهم بالتطلعات الشخصية .. كانت احاديثه معى على أية حال فى تلك الفترة حافلة بالثناء على شخص جمال عبد الناصر والاستشهاد بأقواله ومواقفه ، والهجوم على أعضاء مجلس الثورة الاخرين الذين اختلفوا مع جمال عبد الناصر .

كان يقول من حين لآخر خلال هذه الرحلات الاربع نهابا وايبا .. كل واحد يريد أن يحكم وكلها أطماع شخصية .. انا لم أختلف مع جمال عبد الناصر أبدا لأننى الوحيد الذى لا يريد شيئا . لقد اشتغلت بالسياسة قبل الثورة بعكسهم جميعا وعرفت الأحزاب ومارسى العمل السرى والعلنى ، وحوكمت وسجنت وطردت من الجيش ، أما الآن فقد حققت الثورة ما كنا نكافح من أجله فأنتى لا أريد أكثر من أن أكون مستريحا والا أقوم الا بما يطلب منى فقط .

وقد تلت ذلك مرحلة أخرى كان أنور السادات فيها رئيسا لمجلس الشعب ويسكن فى فيلا فى شارع الهرم ، قير بعيدة عن منزلى فى الدقى وكان كثيرا ما يطلب منى الحضور اليه ، فأذهب واجده جالسا تحت نفس الشجرة فى الحديقة ونظل نتكلم ونتناقش ساعات طويلة ، وهى الفيلا التى انتقل اليها بعد الثورة من شقته السابقة فى المذيل ، وكانت لها حديقة كبيرة وفيها جاموسة يشرب من لبنها وكان يقول دائما أنه يحب أن يشعر حتى وهو فى القاهرة بأنه فى قريته فى الريف ..



كانت الوحدة بين مصر وسوريا قد أعلنت ، وكنا جميعا فى نشوة الفرح بالحلم الذى تحقق ، وكان فندق شبرد يعوج بزعماء سوريا ووزرائها وبشخصيات الزعامات العربية التى جاءت الى عاصمة دولة الوحدة من مختلف أنحاء البلاد العربية ، يشاركون فى جو الابتهاج ، ويتناقشون فى قاعة شبرد الواسعة أو فى حجراتهم حتى الصباح فى آمال ما بعد الوحدة بالنسبة لمصر وسوريا وسائر البلاد العربية .

وكننت من أكبر المتحمسين لقضايا الوحدة والعروبة . وكننت أسافر إلى دمشق كثيرا فى السنتين اللتين سبقتا الوحدة لراقب البذرة تنمو بسرعة ، وعرفت معظم الزعماء السوريين معرفة حميمة خصوصا الرجال الثلاثة مؤسسى حزب البعث وهم : المرحوم صلاح الدين البيطار الذى كان وزير خارجية سوريا الذى قام بالدور الأكبر فى الاتصالات التى سبقت الوحدة وكان له دور كبير فى إقناع عبدالناصر بقبولها ، وقد قتل بعد ذلك بأكثر من ثلاثين سنة وهو فى باريس محكوم عليه بالإعدام فى بلده ويصدر جريدة وحدوية صغيرة ، وأكرم الحوراني آخر رئيس لمجلس الشعب السوري الذى أقر الوحدة ، وأهم وأخطر زعماء سوريا ما قبل الوحدة ، والأستاذ ميشيل عفلق الذى كان فيلسوف الحزب ومفكره ، وكان أنور السادات يعرف بالطبع من لقاءاتنا فى حديقة بيته معرفتى الخاصة بسوريا وبغيرها من البلاد العربية ورجالها وتياراتها الظاهرة والخفية .

وكننت ذات ليلة موجودا فى فندق شبرد بالشكل الذى وصفته عندما نودى على فى الميكروفون لى أنذهب لتلقى مكالمة تليفونية كان الذى يطليعى هو أنور السادات الذى اقترح على - إن لم أكن مشغولا - الذهاب إليه فى منزله .

فى ذلك الوقت كانت الثورة تحاول عبثا إقامة تنظيم شعبى جماهيرى لها فأسست هيئة التحرير ثم حلقتها وأسست الاتحاد القومى فى محاولات غير ناجحة لملء الشارع السياسى . فالعسكريون بطبيعتهم أبعد مايكونون بحكم التربية العسكرية عن التنظيمات الجماهيرية ، وكان جمال عبدالناصر قد جعل كمال الدين حسين رئيسا للاتحاد القومى ثم اختار له حسين الشافعى مؤقتا ثم اختار له أنور السادات بصفة مؤقتة أيضا . إذ كان منصبه كما ذكرت رئيس مجلس الأمة .

ودخلت إلى حديقة بيت أنور السادات وهو جالس على مقعده المفضل وجلست على مقعدي المألوف وسألنى السادات بطريقة عفوية وكأنه لا يهتم كثيرا بما يسأل عنه - وقد كان يتقن هذا الأسلوب كثيرا ، حتى لا ينتبه محدثه فى غمرة التفاصيل إلى ما يهمه من الحديث - عن الأخبار والأشاعات التى تخرج من فندق شبرد وتملأ القاهرة ، وأخذت أسرد له ما فى ذاكرتى من أحاديث ومقابلات وشخصيات ونوادير ، وفجأة - وكان حديثي

قد ايتعد عما يههمه - سائلنى : وإشاعة أن صلاح البيطار سوف  
يكون أمينا عاما للاتحاد القومى فى مصر وسوريا ؟ ألم  
تسمعها ؟

لا لم أسمع هذا الخبر أو الإشاعة ، ولكنها فى رأى فكرة عظيمة ،  
الغريب أنها لم تخطر على بالى قط ؟ فسائلنى : وماوجه العظمة فيها ؟ فقلت  
له : القيادة فى مصر صارت لها خبرة فى إدارة الدولة والسياسة الخارجية  
وتطوير المجتمع من خلال القنوات الحكومية ، ولكننا نشكو دائما من عدم  
خبرتنا فى تكوين تنظيم شعبى ناجح رغم شعبية الثورة . ورجل مثل صلاح  
البيطار بنزاهته وتجربته ودوره الخاص فى الوحدة يتميز بخبرته الطويلة فى  
العمل الحزبى والتنظيمات الشعبية .

وعدت أكرر له : والله إنها فكرة عظيمة .  
ولأول مرة أرى أنور السادات لا يكتفم غضبه وثورته ، مع أنه فى العادة  
قادر تماما على ذلك وقال لى :

تقول لى أنك لم تسمع الخبر أو الإشاعة وأنت تترافع عنه على هذا  
النحو ؟ ماذا يظن هؤلاء السوريون وخصوصا البعثيين منهم ؟ أنهم  
يتصورون أنهم سيحكمون مصر ويعلموننا السياسة ؟ ألم تسمعهم  
يرشحون « صلاح البيطار » نفسه وزيرا لخارجية دولة الوحدة بدلا من  
محمود فوزى ؟ ألم تسمع أنهم يريدون تشكيل مجلس ثورة مشترك مصرى  
سورى منفا ومنهم ؟ ألم يكفهم أن أكرم الحورانى أصبح نائبا لرئيس  
جمهورية الوحدة ؟ إننى أرى أن عواطفك وعلاقاتك العربية قد طفت على  
عقلك ؟ أحنى أقول دائما إنك أكثر من رأيت قدرة على تحكيم العقل  
المجرد ، وأنا بصراحة لا أصدق أنك لم تسمع هذا الخبر أو هذه الإشاعة  
كما تقول .

ووجدت أن ثورة أنور السادات أكبر من الموضوع الذى كنا نتحدث  
فيه ، وانتهت فجأة الى أنه كان يرأس الاتحاد القومى مؤقتا وبالتالي لا بد  
أنه كان يطمح إلى أن يكون رئيس الاتحاد القومى المصرى السورى حيث  
أنه سيكون رئيس مجلس الأمة المصرى والسورى . وانتهت لأول مرة إلى  
أن هذا الرجل القادر على الهدوء والصمت ، وإبداء عدم الاهتمام والرغبة  
عن أى منصب ، له وجه آخر فى باطنه ... أنه مثل الجميع له طموحات  
سياسية ولكنه يحاول تحقيقها بصبر وهدوء وبإظهار الزهد فيها .

وقد تركت أنور السادات ليلتها متوقعا ألا يعود إلى الاتصال بى لكننى  
تبيئت بعد فترة قليلة أنه تصرف معى كما كان دائما وكان هذا الحوار لم  
يقع على الإطلاق .

ومضت السنوات وعلاقاتى مع السادات رتيبة . أراه كلما طلبنى فى  
أوقات غير متقاربة . تتحدث - أو بالأحرى أتحدث أنا - بصراحة كاملة عن  
كافة الأمور العامة مهما كانت دقتها . ذلك أن السادات كان من عادته فى  
ذلك الوقت أن يستمع أكثر مما يتحدث . وهو بالتأكيد ممن يحسنون

الاستماع وعدم اظهار مشاعرهم او التعلق الا بما يريد ان يقوله فقط ، ولذلك عندما صار رئيسا للجمهورية ، وكان بعض اهل السلطة يبدون دهشتهم واحيانا استنكارهم من مصارحتي الكاملة للسادات ، كنت أقول لهم ، إن السادات يعرف رأئي بالتفصيل في كل الامور والسياسات والاتجاهات جيدا . ولم قلت له أى شيء يخالف معتقداتي المدونة لديه ، لنزلت من عيني . ولم يصدقني ! فالأحسن أن يكرهني إذا شاء ويعتبرني صادقا ! كذلك توثقت علاقات بين حرمة السيدة جيهان السادات وزوجتي وعدة زوجات لبعض السفراء العرب في مصر ، يتقابلن ويخرجن ويذهبن لسماع حفلات أم كلثوم بانتظام معا .

شيء واحد ، توقعت انه قد ترك في نفس السادات أثرا سلبيا نحوي . قبعد هزيمة ١٩٦٧ ، وكنت نقيا للصحفيين ، ارتفعت أصوات النقد في الصحف المصرية . الأمر الذي انتهى بصدر قرار من جمال عبدالناصر بفرض الرقابة على الصحف . وكان ممن تعرضوا للهجوم في الصحف محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الأهرام ، وانفرد الأهرام بنشر عدد من أهم الأخبار . واتصل بي بعض الزملاء من أعضاء مجلس النقابة من العاملين في الصحف الأخرى - خصوصا الزميل سعيد سنبل رئيس تحرير الأخبار حاليا - ناقلا تذمر الصحف الأخرى من هذا التمييز ..

وقلت للزملاء : إذا كنتم تريدون أن نجتمع في مجلس النقابة ونهاجم هيكل فأننا غير مستعد لذلك . فلو أن واحدا منا في مكان هيكل وحصل على ما يحصل عليه من أخبار ، لما وزعها على سائر الصحف . أما إذا كنتم مستعدين لأن ننتج بالاحتجاج إلى الرئيس جمال عبدالناصر الذي يخص بهذه الأخبار الكبرى صحيفة دون أخرى ، فأننا مستعد .

هكذا ، جمعت مجلس نقابة الصحفيين مرتين :

مرة : عرضنا فيها احتجاجا مكتوبا إلى الرئيس جمال عبدالناصر على فرض الرقابة على الصحف . واستشهدنا بأن مصر خاضت حرب ١٩٥٦ دون رقابة مفروضة على الصحف .. إلى آخره .

ومرة أخرى : كتبنا فيها مذكرة أخرى مرفوعة إلى الرئيس عبدالناصر ، نسجل فيها رأى النقابة في أن هناك نوعا من الأخبار يجوز فيه السبق الصحفي وانفراد صحيفة دون غيرها . ولكن هناك نوعا آخر من الأخبار ، يتعلق بالمصالح القومية العليا في هذه الظروف الحساسة . وأذكر أنني كتبت في المذكرة أيضا ( وهي محفوظة في سجلات نقابة الصحفيين ) أن رئيس الدولة إذ يخص بهذه الأخبار جريدة دون أخرى فكأنما هو يميز بين المواطنين الذين يقرعون هذه الجريدة أو غيرها .

وتسلم منى المذكرتين - كل واحدة في مناسبتها - السيد عبدالمجسن أبوالنور الذي كان قائما بعمل أمين عام الاتحاد الاشتراكي . وكان يتمل

بى بعد كل مرة ويقول إن الرئيس عبدالناصر قرأ المذكرة . وهو يوافق على ما فيها ولكنها ظروف طارئة يرجو أن تتغير بسرعة .  
وتصاعدت حملة الصحف على هيكل والامتيازات التي تنفرد بها الأهرام في مجالات أخرى كاستخدام لمواردها من العملات الصعبة وسهولة استيرادها للمعدات ، إلى أخرى . وقرر عبدالناصر : أن يعتبر على صبرى مشرفا على جريدة الجمهورية ، والسادات مشرفا على مؤسسة أخبار اليوم ومؤسسة دار الهلال ، بمعنى أن توجه كل مؤسسة اليهما كل مشاكلها بسرعة لتحل بسرعة بدون تعقيدات الروتين وإزالة الشكوى من الأهرام .  
واتصل بى يوما السادات ، وأبلغنى بذلك ، وأنه منذ الآن قد خصصت له دار أخبار اليوم مكتباً سوف يتردد عليه ، وقال لى انه يرجو أن أدبر له مكتباً فى دار الهلال التى أراسها لكى يتردد عليه وتعرض عليه مشاكلنا .  
ووجدت فى ذلك تفسيراً لقرار عبدالناصر غير ما فهمته ، فمعنى تجهيز مكتب هو الاشراف على المؤسسة . ووجود أنور السادات فى المؤسسة سيلغى وجودى اتوماتيكياً ، وتستغل العناصر أياها وجود سلطتين .  
واجبت أنور السادات بسرعة : مكتبى تحت أمرك ! وهو الوحيد الملائق بك فى دار الهلال !  
وقال لى السادات : من محقول يا أحمد ! أنت بذلك لا تريدنى فى دار الهلال .

قلت له : سيادتك تعلم اننى كثيراً ما وسطتك لدى الرئيس عبدالناصر لكى يعينى رئاسة مجلس إدارة دار الهلال وأن يجعلنى مشرفاً على تحرير مجلاتها فقط . وتذكر انه عندما رفض ذلك أكثر من مرة بحثت عن وظيفة فى اليونيسكو ووجدتها وكنت على وشك الحصول على إجازة سنتين أعيشهما فى باريس ، فراراً من مشاكل الإدارة . [ وكان أيضاً بسبب تعثر الأوضاع الداخلية سنة ١٩٦٥ وما بعدها ] ، فلما وقعت الحرب عدلت عن المشروع .

كان هذا كله صحيحاً وكان السادات يعرفه . ولكنه لم يدعمنى واسترسلت فى الأمر فقاطعنى قائلاً :

- طيب ، أجل حكاية المكتب دى ، لحد ملتقيل .

ولم يعد إلى هذا الحديث معى بعد ذلك قط ، لم يدخل دار الهلال أبداً ، واحتفى بالمكتب الذى أعدته له أخبار اليوم وكان يذهب إليه كل جمعة .

وتصورت بعدها حين رأيت اهتمامه بالذهاب إلى مكتب أخبار اليوم واتخاذ قرارات فيها ، ان مابدر منى لاشك قد ترك فى نفسه أثراً سلبياً .

الغلمرة في ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٦٧ .  
السيد الأمين العام المساعد للاتحاد الاشتراكي العربي .

بعد التحية - تلقى مجلس نقابة الصحفيين مذكرة من الأستاذ سعيد سنبل عضو المجلس ومدير تحرير جريدة اخبار اليوم وجمعية من الجماعة القبلية لمؤسسة دار التحرير ، تعرضان على المجلس موضوع ( انفراد جريدة الاهرام بون سنلر الصحف ينشر الاخبار ذات الطابع القومي ) وما يترتب على ذلك من آثار بالنسبة للرأي العام وبالنسبة للمؤسسات الصحفية الأخرى .

وقد ناقش المجلس هذا الموضوع ، وفوضى أعضاء مجلس النقابة في أن أنقل إلى سيادتكم الملاحظات التالية بعد أن تداولوا فيها .

١ - أن الاخبار ذات الطابع القومي الهام ، تخبر مخلولة بعض القادة السابقين استعادة مراكزهم في القوات المسلحة عن طريق القوة ، يفترض فيها أن تكون حقا للرأي العام كله وبالتالي لكل قراء الصحف فلا يفرد بها قراء صحيفة بون أخرى .

٢ - أن تكرار تخصيص صحيفة واحدة بهذه الأنباء الخطيرة بون سنلر المصنف ينمكس على أوضاع المؤسسات الصحفية من عدة نواح . فهو من جهة يسبب إلى الحالة النفسية لمحري الصحف أن يرون أنفسهم محرومين من المشاركة في النشاط الصحفي على نفس المستوى ، ويسبب قلقا إلى حالة سائر الصحف من حيث أنه يهبط بتوزيعها ويصرف القراء عنها ، ومن حيث أنه يهبط بموارد إعلاناتها بناء على إحساس المعلن بهبوط توزيع هذه الصحف ويعدم أهميتها . ومن حيث أنه لا يضع سنلر محري الصحف في شتى المستويات على قدم المساواة أن يجعل شتى مصادر الاخبار تتجه إلى أن تكون جريدة دون غيرها .

٣ - أن هذا الأثر قد تعدى المحررين إلى سائر العاملين في شتى المؤسسات الصحفية الأخرى من عمال وموظفين ، أزاء تأثير ميزانيات صحفهم المستمر وعجزها عن تحقيق الأرباح التي تسمح لها بالتوسع والمناخسة ومكافحة العلملين .  
ومجلس النقابة يعرض على سيادتكم هذا الموضوع لإبداء الرأي فيه ورفعته إلى الجهات المستولة .

السيد الأمين العام المساعد للاتحاد الاشتراكي العربي  
بعد التحية - ناقش مجلس نقابة الصحفيين في اجتماعه الأخير بناء على طلب عدد من الزملاء موضوع الرقابة التي فرضت أخيرا على الصحف .  
وقد رأى المجلس أن يرفع إلى الاتحاد الاشتراكي ملاحظاته حول هذا الموضوع ويمكن إجمالها في الآتي :

١ - أن الصحافة قد عطلت سنوات طويلة منذ نقل ملكيتها إلى الاتحاد الاشتراكي حرية من الرقابة ، ولم يؤخذ عليها أي انحراف أساسي ، فيما عدا أخطاء متفرقة تدفع في وجود الرقابة وفي غير وجودها .

٢ - أن المسؤولين عن المؤسسات الصحفية مسئولون سياسيون قبل كل شيء . وقد أخفهم الاتحاد الاشتراكي بوصفه ممثل السلطة الشعبية وهو يملك مجلسيهم وتغييرهم ، وهم بالتالي اقتر على حمل مسئولية الخط السياسي الوطني والاشتراكي في أي مرحلة .

٣ - أن وجود رقيب غير مدرب ولا صلة له مسبقا بالعمل الصحفي ، أن ينتدب عادة من بين موظفي الحكومة ، يعرقل العمل ، وهو نوع من العلاقة المصلحية بين القيادة السياسية وبين الصحف . في حين أنه خير من ذلك أن تقوم علاقة إيجابية عن طريق اتصال مستمر بين المسئولين وبين رؤساء تحرير الصحف .

والمجلس يرجو أن يلتفت الاتحاد الاشتراكي هذه القضية ، للنظر في رابع الرقابة على الصحف في أقرب فرصة ممكنة .

وتفضلوا سيادتكم بقبول خالص التحية  
تحيات الصحفيين  
أحمد بهاء الدين





## اخراجى من دار الهلال

تولى انور السادات منصب رئاسة الجمهورية بعد وفاة جمال عبد الناصر فى الظروف التى نعرفها جميعا .. وكنت وقتها رئيسا لمجلس ادارة دار الهلال . واكتفيت بأن ارسل له برقية تهنئة وتأييد بمناسبة انتخابه رئيسا للجمهورية . وكنت وقتها منتخبا رئيسا لاتحاد الصحفيين العرب ، وجاء الى القاهرة وقد من الصحفيين العرب من شتى الاقطار للتعزية فى وفاة الرئيس جمال عبد الناصر وتهنئة الرئيس السادات . وكان الرئيس السادات فى تلك الفترة الاولى يقيم فى قصر الطاهرة . وصحبت وفد الصحفيين العرب الى بيت جمال عبد الناصر حيث قمنا بتعزية السيدة قرينته . ثم ذهبنا الى قصر الطاهرة حيث قابلنا الرئيس السادات وقدمت له الصحفيين العرب وقدمنا له التهنئة والتأييد .

وذات يوم فى الاسابيع الاولى لرئاسته جاعنى زميلى فى دار الهلال الاستاذ رجاء النقاش الذى كان يرأس تحرير مجلة الهلال وكتاب الهلال وقال لى إن دار الهلال قد سبق ان طبعت فى سلسلة كتاب الهلال اربعة كتب بقلم انور السادات منها كتاب بعنوان « يا ولدى هذا عمك جمال » وكتاب « قصة الثورة كاملة » وكتابان اخران يضمان مقالات انور السادات التى سبق أن كتبها فى جريدة الجمهورية ، واقترح رجاء النقاش أن نعيد طبع هذه الكتب قورا بمناسبة انتخاب انور السادات رئيسا ، لأن هذه الكتب فى تلك الفترة لابد أن تلقى رواجاً كبيراً .

وظللت إلى رجاء النقاش أن يترك لى الكتب الاربعة لألقى عليها نظرة جديدة ، وبالفعل راجعت الكتب الاربعة التى سبق لى - طبعا - أن قرأتها من قبل فوجدت فيها مقالات كثيرة كتبها انور السادات فى ظروف مختلفة خصوصاً خلال العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ عقب تأميم القناة ، وكانت مقالات تسبب انجلترا وفرنسا سباً شديداً مقدما ، واشياء أخرى من هذا النوع رأيت أنه من غير المناسب اعاد طبعها كما هى بعد خمسة عشر عاماً ، وقد أصبح كاتبها رئيسا للدولة وفيها ما فيها من هجوم عنيف على انجلترا وفرنسا وأمريكا .. الخ .

وبعد أيام قليلة دق جرس التليفون في منزلي ذات ليلة وكان المتكلم هو الرئيس الجديد أنور السادات . وبعد تحية قصيرة عاتبني على أنني لا أراه وقلت له : سيادتك تعرف شعوري ، وأنا أجد حرجا في الاتصال بك وأنت في دوامة عنيفة من المسئوليات والزوار من أنحاء العالم واعتقد أن سيادتك سوف تطلبني إذا أردت مني أي شيء .

وقال السادات أنه سمع أننا في دار الهلال سنعيد طباعة كتبه المذكورة وأنني متردد . وهو لا يرى مانعا في إعادة نشر هذه الكتب . وقلت له : أنني قرأت الكتب من جديد ، وأعطيته فكرة عن بعض ما فيها مما لايجوز إعادة نشره وقد أصبح رئيسا للدولة ، ونحن في ظرف نحسن فيه علاقاتنا بالدول الأخرى .. ولذلك اتجه تفكيري إلى أن تصدر كتابا واحدا ، يضم أهم ما في الكتب الأربعة وتستبعد منه ما لايجوز إعادة نشره ، ويكون كتابا كبيرا بعنوان « من كتابات أنور السادات » .

وشكرني الرئيس السادات بحرارة على أنني نيهته إلى ذلك ووافق على الاقتراح الجديد . بل إنه أصبح بعدما قلته له أكثر حرصا مني ، وقال لي : عظيم ! وأرى بعد ذلك أن تنتقي من الكتب ما تراه صالحا للنشر وأن تراجعها مع ذات ليلة ، وسوف اتصل بك لهذا الغرض عندما أجد الوقت . لم يكن في هذا الحديث ما يلفت النظر ولكنني بعد أن وضعت سماعة التليفون تنبهت إلى أنه لم يعرض على اقتراح طبع الكتب إلا أيام قليلة وتعجبت كيف ياترى وصل الخبر بهذه السرعة من دار الهلال إلى رئيس الجمهورية .

كنت أعرف أن السادات له أصدقاء في كثير من الصحف ، خصوصا في دار الهلال حيث عمل محررا لمبضعة شهور حين كان ضابطا مطرودا من الجيش . ثم تذكرت فجأة أن له اختا هي السيدة سكينه السادات تعمل معنا في دار الهلال . إذن لابد أن يكون هذا هو مصدر معرفته السريعة بحكاية بسيطة .

وتذكرت أن السيدة سكينه السادات التي كانت على علاقة طيبة بي خلال عملي رئيسا لدار الهلال قد جاءتني في اليوم التالي مباشرة لإعلان انتخاب أنور السادات رئيسا للجمهورية وقدمت لي طلبا أن أعينها مديرة لتحرير مجلة المصور وقلت لها وقتها بروح طيبة أنني أعلم أنه ، وقد أصبح أخوك رئيسا للجمهورية ، فمن طبائع الأمور أن ينعكس هذا على وضعك بصورية أو بأخرى .. اقترح أن تتركي هذا لي في الوقت المناسب ولكن من المستحيل أن أعينك مديرة لتحرير مجلة المصور وأخطي الزملاء الأقدم منك والذين يرأسونك في العمل وأنت بدون شهادة جامعية ، وأن يتم هذا في اليوم التالي لانتخاب أخيك رئيسا للجمهورية وذهشت حين وجدتها لاتقبل هذا المنطق البسيط وإنما تجادلني طويلا في إلحاح على طلبها ، ووصلت إلى حد البكاء متهمة أي ، بأنني لم أنصفها أبدا . وطلبت خاطرها

وقلت لها تأكدي اننى اعرف مصلحتك اكثر منك .. وما تطالبين به يسىء الى انور السادات .

وجاءتني السيدة امينة السعيد يوما وهي ترتجف من الغضب وقالت لى إن تصرفات سكيئة السادات صارت لاتطاق وانها تجلس فى اجتماعات التحرير بين اعضاء اسرة مجلة حواء وتقاطع المناقشة العادية اكثر من مرة وتقول : أبية انور رايه كذا وكيت .

واستدعيته السيدة سكيئة السادات ورويت لها ما يتحدث به زملاؤها . وقلت لها : أبية انور اسمه فى دار الهلال الرئيس انور السادات ، والرئيس انور السادات لا يرسل بتعليماته عن طريقك ، ولكنه اذا كان لديه تعليمات فانه سيبليها للدار عن طريقى كرئيس لمجلس الادارة ، وانت تعرفين علاقتى بالرئيس واذا تكرر هذا منك فأننى لن افعل الا أن اشكوك الى الرئيس شخصيا . وتوتر الموقف بيننا ذلك اليوم الى الدرجة التي جعلتني اقول لها : ارجو ألا أراك فى مكتبى هذا بعد الآن ولا تضطرينى الى ان اعطى تعليمات للسكرتارية بمتك من الدخول فتخرج هذه الحكايات الى المؤسسة كلها .

وبعد بضعة اسابيع اتصل بى السيد ضياء الدين داود الذى كان فى ذلك الوقت عضوا فى اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي وطلب إلى ان امر عليه فى مكتبة الامر هام .. وكانت هذه اول مرة اتعرف فيها شخصيا على السيد ضياء الدين داود ، وقدم لى خطابا مكتوبا على الامة الكاتبة وعليه توقيع انور السادات بخط يده .. الخطاب الموجه للسيد ضياء الدين داود يقول أن الرئيس علم اننى منحت اخته السيدة سكيئة السادات علاوة قدرها أربعون جنيها فى الشهر بدون ميرر ، وانه سمع اننى فعلت هذا لأسىء الى الرئيس ولؤلّب عليه العاملين فى دار الهلال ثم يطلب الخطاب إلى السيد ضياء الدين داود ان يسألنى فى هذا الموضوع . كان هذا الخطاب مفاجأة تامة بالنسبة لى لعدة اسباب :

فقد كنت متصورا ان العلاقة التي بين انور السادات وبينى تسمح بان يرفع التليفون ويسألنى مباشرة أو يلومنى على اى تصرف يصل الى سمعه دون حاجة إلى هذا الخطاب الرسمى الذى يكاد يكون طلبا للتحقيق معى . ثم ان الموضوع خاص بالسيدة اخته . وبالتالي فمن السهل عليه ايضا ان يعرف الحقيقة من اخته بدلا من أن يكتب فيه خطابا رسميا الى عضو اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي ، ذلك ان ما جاء فى خطاب السادات لم يكن له اى اساس من الصحة .

قلت ذلك للسيد ضياء الدين داود . وقلت له إنه فى آخر حركة علاوات فى دارالهلال تالت السيدة سكيئة السادات الحد الأدنى من العلاوة وهو خمسة جنيهات . ولم تكن دهشته اقل من دهشتى . وكتب السيد ضياء الدين داود ذلك بخط يده على نفس الخطاب .

وعدت الى مكتبي وقد بدأت تتضح لي أمور كنت اتجاوزها بسرعة معتقدا ان علاقتي الشخصية السابقة بالرئيس الاسرار تحميني عنده من الوشائيات الصغيرة والدسائس التي تملأ الحياة في الصحافة لأن تلك العلاقة تجعل الامر الطبيعي هو أن يتصل بي مباشرة في أى موضوع .

حزب في دار الهلال وكان قد تكوّن في دار الهلال « حزب صغير » رأى في تغيير رئاسة الدولة فرصة للوصول . وكان قادة هذا الحزب هم : الشاعر والاديب المرحوم صالح جودت والصحفي المرحوم ابراهيم البعّثي والزميل الذي هاجر بعد ذلك الى كندا الاستاذ شريف فلم والسيدة سكينه السادات .

شعرت على الفور أنه قد أصبح بيني وبين السادات بحر واسع .. هل هذا ما تفعله السلطة وجماعات المتنافقين بالعلاقات الرطيدة بهذه السرعة ؟ وبدأت اتنبه وأنا امارس عملي العادي في رئاسة تحرير المصور في مراجعة المقالات بعد ان تصبح « بروفات » الى اشياء اراها عادية واقوم بحذفها اذا كان فيها تجاوز ما .

وكان المرحوم صالح جودت يصف في مقالاته كل الكتاب الذين لا يحبهم بأنهم شيوعيون حمر ، بمن فيهم زملاء يكتبون معه في نفس مجلة المصور . واستدعيته يوما وقلت له : إنني إذا سمحت لك بأن تكتب على صفحات المجلة تتهم زملاؤك بالشيوعية فلابد ان اسمح لهم بأن يردوا عليك ويقولوا لك : يا عميل ويسترجعوا أشعارك وأغانيك في مدح فاروق وبالتالي شانا لن اسمح لا بهذا ولا بذاك ، وحرية الكتابة الموضوعية مطلقة .

حدث هذا من مدة طويلة واستقرت الامور على ذلك . ولكن بعد انتخاب انور السادات للرئاسة ، وبعد تلك القصص مع السيدة سكينه السادات لاحظت ان الاستاذ صالح جودت قد عاد الى مهاجمة الاتحاد السوفييتي بالفاظ وعبارات جارحة دون مناسبة ، في وقت كان انور السادات والحكم في مصر يسعى فيه الى عقد مهادنة مع الاتحاد السوفييتي ضمانا لاستمراره في امداداته بالسلاح والمساعدات بعد هزيمة ١٩٦٧ . او يهاجم زميلا له كاللكتور على الراعي ويتمه بالشيوعية ، من خلال قصة لا اساس لها من الصحة عن وقوفه مصفقا ومهتلا للاتحاد السوفييتي في اجتماعات للادباء والكتاب حضرتها بنفسى ولم يحدث فيها شيء من ذلك .

تنهيت إلى أن هذه أمور جديدة والمقصود بها استفزازي أو امتحان شجاعتي ، فبدأت احذف من « البروفات » هذا الكلام وعلى غير العادة لا اكتفي بالحذف ولكن اكتب على هامش « البروفة » حيثيات واسباب الحذف وأوقع عليها بامضائي قبل أن اعيدها الى مدير التحرير المرحوم الاستاذ مرسى الشافعى ..



وقد أبدى لي دهشته مرة وسألني لماذا اتجشمت هذا العناء في كتابة الحثيات وقلت له : عندي شعور خفي بأن هذه البروفات تذهب بعد ذلك الى بعض أجهزة الدولة وأنا أريد أن يفهم الذين يفعلون ذلك عن رغبة في الإيقاع أنني مستعد لأن اتحمل مسئولية تقديرى للأمر .

مع هذا الجو في دار الهلال كانت أزمة ١٥ مايو تتفاعل . والصراع بين أنور السادات وخصومه في اللجنة التنفيذية العليا يشتد ، والغريب أنني لم أكن أتابع باهتمام قصة هذا الخلاف متصوراً أنني أنأى بنفسى عن أى صراع على السلطة لا أعرف تماماً مبرراته . حتى اتخذ هذا الموقف أى ذلك خصوصاً وأننى اختلفت اختلافاً حاداً مع الاتحاد الاشتراكي عندما كنت نقيباً للصحفيين وقعت مظاهرات ١٩٦٨ . قررت بعدها الابتعاد تماماً عن كل الأجهزة السياسية في مصر ، وتلك قصة طويلة أخرى . ووقع انقلاب ١٥ مايو ونجح أنور السادات في الإيقاع بخصومه في الوزارة واللجنة التنفيذية العليا ووضعهم في السجن .

ومرة أخرى بدأ صالحي جودت وغيره يكتبون ضد الذين وضعوا في السجن ( على صبري وشعراوي جمعة ومحمد غائق والفريق محمد فوزي وغيرهم ) يهاجمونهم بشتائم مقدعة وغير لائقة . ومرة أخرى بدأت أشطب أى كلام يتميز بفحش القول والهجوم الشخصي دون أى نقد موضوعي وأكتب على هامش البروفات حثيات الحذف وأوقع عليها بامضائي والمرحوم مرسى الشافعي يضطك من تصوراتي ويقول لي : لو نشرنا البروفات كما هي بالشطب والتعليق لارتفع توزيع المجلة .

وبعد فترة قصيرة امتلأ الجو الصحفي بأخبار عن التغييرات المقبلة في المناصب والقيادات الصحفية . وكان من بينها أنني سوف أنقل من رئاسة مجلس إدارة دار الهلال إلى مؤسسة روزاليوسف وكانت روز اليوسف ، وقتها تعاني من مشاكل مالية فادحة ، فالداخل فيها مفقود والخارج منها مولود ، رغم أنها محليتي القديمة العزيزة التي بدأت حياتي الصحفية الجدية فيها وقبل يومين من إعلان التغييرات جاءني الزميل فوميل لبيب وقال لي أنه متأكد من أن القرارات الجديدة سوف تشملني واستطرد قائلاً : أنني دهش من موقفك ، أنت تعرف الرئيس جيداً وتعرف أكثر المسؤولين وأراك لاتحاول أن تفعل أى شيء ، وقلت له : ، لأنني أعرف الرئيس السادات ولأنه يعرفني جيداً فلأنني لن أفعل أى شيء ، ولم يحدث أن طرقت باب أى مسئول لأمر يتصل بشخصي .

وبعد يومين من هذا الحديث قرأت في الصحف قرارات التغييرات الصحفية ومن بينها نقلني من دار الهلال وتعييني رئيساً لمؤسسة روز اليوسف .

لو كان هذا القرار في ظروف عادية ربما ما كنت اعترض ، وعلاقة

عاطفية خاصة تربطني بمجاة روز اليوسف ومجلة صباح الخير واسرتهما ..

ولكن القرار بدا لى أنه اتخذ من منطلق العقاب ، والاستجابة الى الوشائيات . واحزننى وادهشنى أن تتراكم الوشائيات عند الرئيس انور السادات دون أن يحاول مرة واحدة ان يسألنى مباشرة .

قرأت هذه الأخبار فى صحف الصباح واتصلت على الفور بوزير الاعلام فى ذلك الوقت الدكتور عبد القادر حاتم واتفقت معه على أن أقبله فى مكتبه بمبنى التليفزيون فى الساعة الحادية عشرة .

وذميت الى الدكتور حاتم وقلت له رأى فى هذا القرار وقلت له إننى جئت لأقدم له اعتذارى عن عدم قبول المنصب الجديد .

ودعش الدكتور عبد القادر حاتم ولكنه طبعاً كان عارفاً بكل التفاصيل التى كنت لا أعرفها بالضبط ولكنى أشم رائحتها . وحاول الدكتور حاتم أن يقتنعى بأن عدم تنفيذ مثل هذا القرار هو بمثابة تمرد على ارادة رئيس الجمهورية ، وألح علىّ فى أن يذهب معى الى دار روز اليوسف وأن تشرب فنجان قهوة هناك فقط ، ويخرج وبعد ذلك أفعل ما أشاء فأكون قد نفذت رغبة الرئيس التى لم يحدث أن رفضها أحد .

وطال الجدل بينى وبين الدكتور حاتم وكنت أقول له «أننى لا أطلب بإعادة النظر فى القرار ولا أطلب بإعطائى هذا المنصب أو ذاك أننى أستقيل فقط من منصب لا أريده . وإن أملك مسئوليتى . ولكننى سأذهب الى الصحف المختلفة مصرية وعربية وأبحث لنفسى عن عمل فيها» واستمر الجدل بيننا ساعات وفى لحظة سحبيت من على مكتبه ورقة وقلت له : إننى أعفك من نقل هذه القصة للرئيس وسأكتب أنا اليه بضعة سطور ليسر عليك إلا أن تبحث بها اليه .

وكتبت على الورقة رسالة من سطور قليلة إلى الرئيس السادات . بدأت بإبداء أسفى على أن يحدث ما حدث وأن أقرأه فى الصحف دون علمى . وفى فقرة مازلت أذكرها بحروفها تقريباً كتبت « لقد اخترعت الثورة صحفيين وكتاباً ودكاترة فى كل مجال . ولكننى لست أحد اختراعات الثورة .» وقد كنت رئيساً لتحرير أكبر جريدة فى مصر وهى أخبار اليوم ، واتقاضى أقصى حد للمرتب قبل تأميم الصحف بستتين ، وقد نقلت إلى دار الهلال منفياً فى حقيقة الأمر ، وبالتالي فإن من حقى أن يؤخذ رأى فى أى امر يتصل بى شخصياً فلا أقرأه فى الصحف دون سابق علم ولا أتحرك كقطعة شطرنج من مكان إلى مكان وبلا رغبة»

هذا والدكتور حاتم يمنعنى جسدياً من ترك مكتبه ، حتى دق تليفون هام أنهمك الدكتور حاتم فى الرد عليه ، فتسللت من احد ابواب غرفته وخرجت .. وتوقعت أن يرسل خلفى احداً عند باب

المصعد ، وتنبهت الى ان السقير والصديق تحسين بشير  
يجلس في غرفة مكتب امام المصعد، تقريبا ففتحت بابه ودخلت  
وازاء دهشة قلت له : «اننى مختبىء هنا حتى ينصرف الدكتور  
حاتم من مكتبه» .

فى نفس اليوم كان قد اتصل بى مع قراءة الصحف الاستاذ محمد  
حسنين هيكل واتفقت معه على ان نتناول الغداء معا فى كافيتيريا جريدة  
الاهرام . واخذ الاستاذ هيكل بالطبع يستجوبنى عن خلفيات هذا القرار  
ويبدى دهشته من انه لم يسمع به ولم يطموره . وما هو السبب فى  
تقديري ؟

ورويت له ما سبق بتفاصيل اكثر وقلت له : «اعتقد ان البروفات التى  
كنت احذف منها واكتب على هامشها لماذا حذفها كانت تذهب إلى الرئيس  
أنور السادات» .

كما رويت له ما حدث منى فى مكتب الدكتور عبد المقادر حاتم وعند  
ترديدى لما قلته فى مكتب الدكتور حاتم من اننى سأستقيل فقط وهذا ليس  
إهانة لأحد ، وانى سأبحث لنفسى وبمعرفة عن عمل ككاتب فى الصحيفة  
التي تقبلنى . سألنى الاستاذ هيكل على الفور : طيب هل تقبل ان تعمل  
فى الاهرام ؟ وكان الاستاذ هيكل يعرض على العمل فى الاهرام من سنوات  
سابقة .. وكنت اعترض فقلت له ضاحكا : هذه المرة ليس امامى إلا القبول .  
وبعد يومين عرفت من الاستاذ هيكل انه اخذ سيارته فى الصباح التالي  
لحديثنا وذهب الى الرئيس السادات فى الاسكندرية وأنه وصل وقت الغداء  
فدعى الى المائدة مع الرئيس السادات وحرمة السيدة جيهان والفريق  
أحمد اسماعيل وزوجته .

وروى الاستاذ هيكل لى انه سأل الرئيس السادات فورا عن  
هذا القرار وعن مبرراته وقال له الرئيس السادات : «انت تعرف  
مشاكل مؤسسة روز اليوسف واحمد بهاء الدين يعرفها اكثر من  
سواه ، ولم يخطر لى ان يكون هذا عقابا» .

وقال له الاستاذ هيكل : إن بهاء يعتقد غير ذلك ، ويعتقد ان  
هذا القرار له شكل العقب لأسباب اخرى ، وسأل السادات : اى  
أسباب ؟ فقال له هيكل : بروفات دار الهلال التي كان يحذف منها  
ويكتب عليها تعليقا باضائه .

وسكت السادات ( مازالت الرواية للاستاذ هيكل ) سكوت  
المدهوش من معرفتى بهذه الحقيقة وقال لهيكل : «لم اكن  
اتصور ان شخصا فى حجم احمد بهاء الدين يتلقى تعليماته من  
ضياء الدين داود ( كان السيد ضياء الدين داود من بين الذين  
اعتقلوا فى ١٥ مايو ولم اكن قد رأيته إلا فى المرة الوحيدة  
سابقة الذكر ) . خصوصا واننى أعرف انه عنيد ولا يقبل توجيهها  
من أحد» .

. ودعى لى الاستاذ هيكل أن السيدة جيهان السادات والقريب أحمد اسماعيل انطلقا يدافعان عنى بحرارة : السيدة جيهان تبدى دهشتها من تصرف السادات مع صديق يعرفه جيدا دون سؤال ، والقريب أحمد اسماعيل يقول له : إننا ندرس بعض مقالاته فى الكلية الحربية . وقال السادات : طيب هل قال لك ماذا يريد وقد رفض كما علمت تنفيذ القرار ؟

قال ميكل له : لقد عرضت عليه العمل ككاتب فى الاهرام وهو عرض قديم فى الواقع وقد قبل فعلا هذا العرض . وقال له السادات متبها الحديث : خلاص .. زى ما انتو عاوزين !!

أزمة ١٩٧٢ والمنع الأول من الكتابة بدأت على فى جريدة الاهرام من اليوم التالى . ولم يعكر صفوى إلا أن بعض أجهزة الدولة - بناء على تعليمات بالطبع - حاولت تحريض عمال مطبعة روزاليوسف للاضراب والتهاتف ضدى حتى يبدو عدم تنفيذ القرار وكأنه ليس اختيارا منى ، ولكنه لأننى غير مقبول من العاملين فى دار روزاليوسف ... ولكن المحررين والمحررات والعمال غير المتصلين بالأجهزة واجهوا هؤلاء بالتهاتف ضدهم ... وتتهم زعيم المظاهرات على زميلة من المحررات ( السيدة فايزة سعد ) فصممت على تقديم بلاغ ضده تتهمة بالسب العلنى وصممت على المضى فى هذا البلاغ حتى النهاية وشهد كل الحاضرين ضده فى المحكمة وحكم عليه بالعقوبة فعلا فيما بعد .

وبدأت بعد ذلك سنوات مضطربة فى مصر بتضاعف اضطرابات الطلبة والعمال سنتى ١٩٧١ ، ١٩٧٢ واتسع نطاقها بشكل لم يسبق له مثيل ، تلك كانت الفترة التى كان الرئيس السادات يخطب فيها باستمرار متحدثا عن المعركة ، مع شعور الناس بأنه لا يوجد أى شىء يدل على الاستعداد لأى معركة . وفيها كانت السنة التى سماها الرئيس السادات «عام الحسم» فلما انتهى العام القى خطابا غير متوقع اشتهر باسم خطاب الضباب وقال فيه إن قيام الحرب بين الهند وباكستان هو الذى منح بدء المعركة عندنا . وتصادف أن سافر وفد من جريدة الاهرام على رأسه الاستاذ محمد حسنين هيكل فى رحلة طويلة الى الصين .

بيان توفيق الحكيم وفى خلال تلك المظاهرات انتشرت دعوة بين عدد من الصحفيين لكتابة بيان باسم الكتاب والصحفيين .. ووافق الاستاذ توفيق الحكيم متحمسا على أن يتولى كتابة هذه الرسالة أو هذا البيان ووقع عليه بالفعل ما يقرب من مائة صحفى .. وكانت فيه فقرة لم ينسها السادات

أبدا لتوفيق الحكيم بعد سنوات طويلة ، كما «سمعت» منه وهي فقرة تقول :  
« لقد كثرت الكلام عن المعركة دون معركة حتى صارت المعركة مضغعة في  
حلقنا لا نستطيع أن نبتلعها ولا نستطيع أن نلفظها » وكان الرئيس  
السادات يعد ذلك بسنوات طويلة إذا جاء ذكر تلك الأيام قال لي :  
هذا المخرف العجوز توفيق الحكيم الذي لا اعرف ماذا يعجبكم فيه ،  
اليس هو الذي قال إن المعركة مضغعة لا نستطيع أن نبتلعها ولا نستطيع أن  
نلفظها ؟

وبعد إرسال هذه الرسالة وعليها حوالي مائة توقيع من  
الكتاب والصحفيين ، عاد هيكل من الرحلة ووجد الرئيس  
السادات في قمة الغضب ووجد أنه قد استقر في ذهنه أنني كنت  
المحرض الأول على هذه الرسالة ، وقد كنت بالطبع مؤيدا لها ،  
رغم أنني لم أوقعها لمرضى بأنفلونزا شديدة في ذلك الوقت .  
وبدأت الصحف تنشر أسماء الذين وقعوا على الرسالة على  
دفعات مع قرارات بتقليلهم من الصحف إلى مصلحة الاستعلامات  
ولم يكن هذا في رأيي هو المهم ، ولكن الذي أكنى حقا أن  
الصحف كانت تنشر أسماء أبرز وألمع كتابنا مقرونة بصفات  
العملاء والخونة وما إلى ذلك من صفات .

ولم أكن من بينهم ولكنني ذهبت إلى الاستاذ هيكل وقلت له  
من المستحيل أن يحدث هذا دون أن يصدر عنا أي صوت  
بالاحتجاج . وقال لي هيكل ألا تعرف أن هناك رقابة على  
الصحف ؟ وأين الرقيب الذي سيسمح بنشر احتجاجاتك ؟  
قلت له : أنا لا أريد أن اتخذ موقفا بطوليا ويشطب الرقيب  
ولكنني أريد أن أكتب مقالا عقلانيا وهادئا جدا ، فيه معنى  
الاحتجاج ولكن فيه أساسا فتح باب لتضميد الجراح .  
وقال لي هيكل أكتب كما تريد وسترى رد فعل الرقيب .

شطب مقالتي ونقلني للاستعلامات : كتبت مقالا بعنوان « محايد » وهو  
بدلا من « العنف المتبادل » وكنت مسافرا في الساعة الخامسة صباحا إلى  
لندن لالقاء ثلاث محاضرات في كلية سانت انطوني بجامعة أكسفورد ولكن  
في الساعة الحادية عشرة ليلا وأنا أحزم حقائبي دق الباب ووجدت هيكل  
واثنين أو ثلاثة من الزملاء وقال لي هيكل الخبر على دفعتين قال لي أولا أن  
المقال شطبه الرقيب .. وبعد قليل قال لي أنه صدر قرار من الرئيس بنقلني  
أنا أيضا إلى مصلحة الاستعلامات .

كان رد فعلي الأول أنني اتصلت بالمطار لألقى سفري إلى لندن ،  
مشاركة للمعاقبين المعتننين ...

وقلت : أنني لن أقوم بالإجراء الشكلي وهو التوقيع على اقرار بتسليمي  
العمل في مصلحة الاستعلامات وسأعتبر نفسي مفصولا .

وقد عرفت فيما بعد من الدكتور عبد القادر حاتم أن الرقيب قرأ له المقال على التليفون وأن الدكتور حاتم اتصل بالرئيس وقرأ له الفقرات الهامة في المقال فرد عليه الرئيس منفعلًا : ألا يكفيك أنه هو المحرض على كتابة الرسالة وأنه لم ينقل إلى الاستعلامات ؟ أشطب المقال كله . وبعد خمس دقائق دق جرس تليفون عبد القادر حاتم وقال له الرئيس بنفس الصوت الغاضب : هل شطب المقال ؟ طيب وأنقله هو أيضا إلى مصلحة الاستعلامات .

هكذا بدأ وكأن كل المعرفة القديمة قد تحملت على الصخور ولم يبق منها شيء فنذ زيارتي للسادات عقب انتخابه مع الصحفيين العرب في قصر الظاهرة ، فلم اقبله قط منذ ذلك التاريخ .

وهرت شهور طويلة او ربما سنة وكنت في بغداد اشهد اجتماعا لاتحاد الصحفيين العرب عندما اذيع ان الرئيس السادات سيلقي خطابا هاما واجتمعنا - نحن المصريين - حول الراديو نستمع إلى الخطاب . وفوجئنا بالرئيس في خاتمة الخطاب يعلن أنه عفا عن كل الصحفيين وقرر اعدائهم إلى صحتهم .

وفي الصباح التالي سافرت مع زوجتي إلى بيروت في طريقنا إلى القاهرة وبعد يومين في بيروت اعلنت الاذاعات عن بدء حرب ٦ أكتوبر وعبور الجيش المصرى لقناة السويس . وكان معنا الشاعر محمود درويش الذي يعرف العبرة جيدا : فنجدله يستمع إلى الاذاعة العبرية في اسرائيل فنجدها تقول كلاما آخر . وفي جو هذا الارتباك كانت الطريقة الوحيدة للعودة إلى القاهرة هي ركوب طائرة شركة طيران الشرق الأوسط المتجهة إلى بنغازي ثم ركوب سيارة برا من بنغازي إلى الاسكندرية فالقاهرة . واضطرت إلى أن اطلب إلى رئيس وزراء لبنان في ذلك الوقت الصديق الكبير الرئيس تقى الدين الصلح أن يوجد لنا - باي وسيلة - ثلاثة مقاعد على طائرة الغد : أنا وزوجتي والزميل الصحفي اللبناني فؤاد مطر . وبعد اربع وعشرين ساعة كنا في القاهرة ... وبعد أيام كان الجيش المصرى قد أحرز انتصاره المشهور .



أحدثت قرارات نقل هذا العدد من الكتاب والمصنفين إلى الاستعلامات ضجة في الصحف الغربية جميعا وفي كثير من الصحف الأوروبية بالذات .

وكنْتُ - كما ذكرْتُ قبلًا ليلةَ جامِنِي محمدَ حسنينَ هيكلَ إلى البيتِ فجأةَ قبيلَ منتصفِ الليلِ بيلغُنِي بهذا القرارَ ، استعدُ للسفرِ فجرَ اليومِ التَّالِي إلى لندنَ ، إذ كنتُ مدعوًا لالقاءِ ثلاثِ محاضراتٍ في كليةِ « سانتِ أنطوني » في جامعةِ أكسفوردِ وكانَ منَ رأيِ هيكلِ أنَ أقومَ بالرحلةِ ، ولكنِّي قلتُ له أننِي سأقابلُ بضجةَ كبرىَ هناكَ على ضِوءِ ما نُشرَ بالقلمِ منَ طردِ الصحفيينَ ، وأننِي لنَ أَرْضَى ضميرِي إذا سَكَتُ في مواجهةِ الاسئلةِ المتوقعةِ ولنَ أَرْضَى ضميرِي إذا رددتُ بحملةٍ قاسيةٍ على السلطةِ المصريةِ وأنورِ الساداتِ . ثمَ أنه منَ الأفضلِ البقاءَ تضامنا معَ الأكثرِ منَ تسعينَ كاتبًا وصحفيًا مطرودينَ ويهاجمونَ في سمعتهمَ ووطنيتهمَ وشرقيهمَ وكنا قد علمنا تفاصيلَ ما دارَ فيما سَمِيَ « بلجنةِ النظامِ » في الاتحادِ الاشتراكيِ التي كانتَ ترسلُ لها الكشوفُ منَ الرئاسةِ لتصدرَ قراراتَ الطردِ ، وكيفَ كانوا يتحدثونَ عنَ المطرودينَ ويقسمونهمَ إلى فئائِلٍ وأنواعٍ سياسيةٍ وأخلاقيةٍ غريبةٍ . حتى أنهم لمَ يجدوا ما ينسبونه إلى عددٍ كبيرٍ منَ الشبانِ الصحفيينَ الذينَ عملوا معيَ في فتراتٍ مختلفةٍ فاختلقوا لهمُ الاتهاماتِ ، كما روى ليَ عضوُ اللجنةِ الوزيرُ الأسبقُ الدكتورُ أحمدُ كمالُ أبو المجدِ فيما بعدَ ، وكانَ قد بذلَ أقصىَ جهدهِ داخلَ اللجنةِ لتقويمِ هذا الأسلوبِ ولكنَ رئيسَ اللجنةِ محمدَ عثمانَ اسماعيلَ ( محافظُ أسيوطِ بعدَ ذلكَ ومنَ أقربِ المقربينَ للساداتِ ) كانَ ينهيَ كلَ جدلٍ بأنَ هذهِ أوامرُ الرئيسِ شخصيًا .

وكنْتُ وقتهاَ رئيسًا مهتخبًا لاتحادِ الصحفيينَ العربِ ، وهوَ الاتحادُ الذي يضمُ كلَ نقاباتِ الصحفيينَ في البلادِ العربيةِ .. وطلبتُ نقاباتَ عربيةَ كثيرةَ عقدَ إجتماعٍ طارئٍ للاتحادِ لمناقشةِ هذهِ القراراتِ والتَّشديدِ بها والبحثِ في إجراءاتِ تتخذُ ضدها ... ووجدتُ أننِي ملزمٌ بدعوةِ اللجنةِ التنفيذيةِ للاتحادِ إلى الاجتماعِ الطارئِ .

ولكنها لو انعقدت خارج القاهرة - كما طلبتُ النقاباتُ العربيةُ - فسوف تكون الحملة على مصر وعلى السادات قاسية جدا ولا يمكن أن نتوقع ما قد يصدر من قرارات في حالة انعقاد الجمعية العمومية بعد اللجنة التنفيذية . ففاجأتهم بتوجيه الدعوة لانعقاد في آخر مكان خطر على حياتهم وهو القاهرة .

وفي الاجتماعات التي عقدت برئاسة ، وأنا أحد المصنولين ، في إحدى قاعات فندق شيراتون الجيزة ، بذلت جهدا جبارا لاقتناع النقباء العرب بعدم اتخاذ أي قرار وترك الأمر للنقابة المصرية فترة من الزمن تحاول فيه حل الأزمة بمبارقتها ؛ لأن البلاد تمر فعلا بظروف حرجية ، فإذا فشلنا فسوف ندعوهم إلى اجتماع جديد .. وكان موقفى هذا محل موافقة الاقلية من الصحفيين المصريين ومحل انتقاد أغليبيتهم . ولكن هذا ما قدرت وقتها أنه التصرف السليم .

ونهى إلينا - نحن المفصولين - أن الدولة ، إزاء الضجة الخارجية ، فكرت في أن تعيد إلى العمل الاسماء المشهورة من المفصولين ، بما لايزيد على ستة أو سبعة كتاب ، فهذا يسكت الحملة في الخارج وتنتهى مع الزمن علاقة الباقين - أى حوالى الثمانين صحفيا ، بالصحافة .

وانتدبتى الزملاء المفصولون لى أقابل السيد ممدوح سالم الذى كان وزيرا للداخلية فى ذلك الوقت لى أبلغه رسالة باسمهم .  
وأنتهى لأذكر كل لقاءاتى بالسيد ممدوح سالم فى مكتبه كوزير للداخلية أو كرئيس للوزراء بكل خير .

- فهو رجل شديد التهذيب ، هادئ الأعصاب محيط بأى قضية تحدثه فيها ومستعد لمناقشتها أيا كان رأيه .

وأنا أحيانا أحكم على كثير من الوزراء والمسؤولين من « جو » مكائهم ، فهناك وزير تذهب إليه فتجد غرف سكرتاريته تعج وتضج بالناس ، أو تجد موظفيها فى حالة ذعر واستتعار فإذا دخلت على الوزير وجدت مكتبه مغطى بالأوراق والدوسيهات ، ولا تعرف أن تدير معه حديثا من كثرة التليفونات والداخلين للحصول على توقيعات الخ . ممدوح سالم كان على العكس تماما ، تذهب إليه وأنت تعرف طبعاً مسئولياته الثقيلة والكثيرة سواء كوزير للداخلية أو كرئيس للوزراء فى ظروف قلقة ومضطربة ، فتدخل إليه فى الموعد المحدد لك بالضبط بدون دقيقة تقديم أو تأخير . وتجد الهدوء هو السائد وتجلس إليه بالساعة أو الساعات وهو متفرغ لك وكأن ليس هناك ما يشغله ، ونادرا ما يقاطعه تليفون أو موظف ! وقد لاحظت هذه الملاحظة ذاتها - المرحوم الأستاذ الدكتور على الجريتلى : فقد عرض عليه أن يكون نائبا لرئيس الوزراء لقطاع الاقتصاد ... وزار ممدوح سالم ثلاثة أيام متتالية للحديث مطولا فى هذا الموضوع الذى انتهى بإعتذار الدكتور على الجريتلى عن عدم قبول المنصب ، لأنه كما قال لى « فهم أن الحكم لن يغير أسلوبه وأن قرارات السادات السياسية سوف تعلق على أى قرار اقتصادى » .

وكانت مقابلات الجريتلى لممدوح سالم فى الأيام الثلاثة السابقة على إجراء الانتخابات العامة : أى فى قمة مشغولية رئيس الوزراء يحدث جسيم ولكنه كان مندهشا بهذا الهدوء وقلة المقاطعات ... وقد ترك ممدوح سالم رئاسة الوزراء دون أن يعلق بسمعته المالية فى تلك الظروف ولاحتى مجرد شائعة .

ذهبت الى السيد ممدوح سالم وقلت له بما سمعناه وأبلغته أننا قررنا ألا نعود أحد منا الى العمل الا اذا عاد الجميع وأن الذين يفكرون فى أعادتهم من « الكبار » ليس لديهم أى مشكلة : فالدكتور لويس عوض مثلا تلقى



ثلاثة عروض من ثلاث جامعات أمريكية كبرى للتدريس فيها . وأنا وبعض زملائي انهالت علينا العروض للعمل في الصحافة العربية من المحيط الى الخليج ... ولذلك فنحن نرى ان المشكلة هي مشكلة الشباب الذين لم تتح لهم الفرصة بعد ليصنعوا سمعة كبيرة يستحقونها جميعا فهم الاولى بالعودة ، ولا داعي لصدور قرار بإعادة البعض منا مما سيضطربنا الى الرفض وتزايد المشكلة تعقيدا وتوترا ..

ولا انسى اننا في غمرة هذا الحديث . قال لي ممدوح سالم ما معناه : ان كل التقارير التي تتلقاها اجهزة الامن ضد الصحفيين يكتبها صحفيون منكم .

وقلت له : هذا طبيعي فادق التقارير عن الطلبة لابد ان يكتبها طلبة وهكذا الشأن في كل مجال ونحن نعرف الصحفيين الذين يحترفون كتابة التقارير السرية لأجهزة الامن ضد زملائهم ، ولكنكم لو تحررتم عنهم قبل ان تأخذوا بكلامهم لعرفتم انهم من اردأ فواعيات الصحفيين الفاشلين المملوءة قلوبهم بالضغينة ضد كل صحفي ناجح .

ورد علي ممدوح سالم ردا لا انساه لطرافته وصدقته معا ، وعلى مضيت في هذا الاستطراد لكي اذكر هذا الرد بالتحديد : فقد قال لي على الفور : طبعاً ونحن نعرف ذلك ، ولكن هل تتوقع من صحفي مستقيم حسن الاخلاق ، ابن ناس ، وناجح في عمله ، ان يكتب تقارير للمباحث نظير اجر ؟ هات لي عشرة من هؤلاء واركانوا من متخرجي اوكسفورد يرضون ان يكتبوا تقارير للمباحث وسوف تستغنى المباحث فوراً عن النوعية التي تكتب التقارير عادة ...

وأغرقنا في ضحك طويل !





## المصالحة بعد حرب أكتوبر وخروج هيكل من الأهرام

انتهت حرب أكتوبر نهايتها المعروفة . حرب أكتوبر على أية حال ليست موضوع هذا الكتاب .. ولا أظننى فى حاجة الى وصف حالة الفرحة العنيفة والابتهاج العالم التى كانت تسودنا جميعا فى كل مكان خصوصا فى الصحف حيث كنا نقيم آناء الليل وأطراف النهار لمجرد احتمال سماع خبر جديد أت من الجبهة .

وبعد وقف إطلاق النار أيام زارتى فى مكتبى فى الأهرام الناشر الكبير المعروف الاستاذ محمد المعلم صاحب دار «الشروق» .

وقال لى : هل تذكر كتاب «وتحطمت الطائرات عند الفجر» ؟

كيف لا أتذكر ؟ فبعد هزيمة ١٩٦٧ نشطت المخابرات الامريكية والمخابرات الاسرائيلية وبعض المخابرات العربية . وجهات سياسية كثيرة ذافنت مرارات الهزيمة تلو الهزيمة على يد جمال عبد الناصر من سنة ١٩٥٦ حتى سنة ١٩٦٧ ، وتحركت كل تلك الاجهزة التى طالما اصدرت الصحف وطبعت الكتب واقامت الاذاعات طوال اثنى عشر عاما منجدة أحيانا اكبر الاقلام والاسماء . ودافعة الاموال والرشاوى لرؤساء دول ورؤساء وزارات ، للنيل من جمال عبد الناصر دون جدوى ، تحركت تلك الجهات ودبت فيها الروح بعد ان اصبح الاسد جريحا ومصر ملقاة على الارض ، وتفتحت خياشيمها لرائحة الدم ، واغرقت الاسواق العربية بمئات الكتب والصحف التى تحاول جعل الهزيمة ضربة قاتلة نهائية ، ولا تترك شيئا من آثار ثورة ٢٢ يوليو الا تحاول تجريحه . ولا تترك وسيلة لاثبات عدم جدارة الانسان المصرى بالاحلام التى طافت بعفيلته زمنا الا حاولت تدويرها .

كتب تغمر الاسواق بغير مؤلف وأصيح ولا ناشر معروف ... كلها طبعت فى مطابخ المخابرات الدولية والعربية .

وقد كان أقسامها واكثرها إيلاها وتجيحا كتاب اسمه «وتحطمت الطائرات عند الفجر» محور الاساسى ضربة الطيران الاسرائيلى المشهورة وتدميره للطيران المصرى والمطارات المصرية فى ساعات قليلة فجر الخامس من يونيه ١٩٦٧ . ودور الجاسوسية الناجحة فى هذه الضربة .

كان الناشر الصديق «محمد المعلم» يمارس نشاطه في النشر وقتها في بيروت وكنت كلما ذهبت الى بيروت وجدت كميات جديدة من هذا الكتاب الذي يباع بثمن رمزي مقدسة على كل رصيف في بيروت حتى لا تفوت احدا قراءته .

قال لي الأستاذ «محمد المعلم» في مكتبتي في الاهرام : اذا كنت تذكر بشاعة ذلك الكتاب وما كان يسببه لنا من الام ، فائني اطلب إليك الآن طلبا محددا .. ما هو ؟ - ان تكتب لنا كتابا مضادا واقترح ان يكون عنوانه ردا على ذلك العنوان وتحطمت الاسطورة عند الظهر . اشارة الى عبور الجيش المصري القناة وتدمير خط بارليف ظهر ٦ اكتوبر ١٩٧٣ .

وقلت له : الفكرة عظيمة ولكن الوقت مبكر جدا اننى تابعت الحرب من مكتبتي كأي مواطن ، ومازلنا في احرج المراحل بعد وقف إطلاق النار والقوات تقف وجها لوجه على الجبهة ... ومازال هناك وقت طويل لايد ان يمر قبل ان تكون هناك معلومات وتفاصيل عما حدث تصلح مادة لمثل هذا الكتاب ، الذي سأكتبه كما تعلم بمفردي دون مساعدة اي أجهزة مخبرات او خلفه .

ولم يقبل محمد المعلم حجتي . اخذ يكرر ان السرعة هنا بالغة الاهمية وان اي كتاب سيظهر الآن من كاتب مصري مثلي عن الحرب سيقروه كل عربي وقلت له : السرعة شيء عظيم لسعة الانتشار والتوزيع ولكنها ليست كل شيء ، اننى مستعد لأن اكتب لك كتابا تحت هذا العنوان خلال عشرة ايام . ولكنه سيكون كتابا سياسيا لا وثائقيا ولا معلوماتيا ، لن تكون فيه معلومة واحدة زيادة عما نشر حتى الآن في صحف مصر واسرائيل والعالم الخارجي ولكنه سيكون في احسن الحالات كتابا سياسيا تحليليا يضع حرب اكتوبر بتفاصيلها التي نعرفها حتى الآن في إطارها التاريخي الصحيح ، وكتيجة لاصرار ولد عقب هزيمة ٥ يونيو مباشرة على رفض الهزيمة وعدم الاستجابة لكلمة موشي دايان الشهيرة « لقد انتهت مرحلة بأكملها وانا جالس بجوار تليفوني مستعد للرد على اول مكالمة من اول هامة عربية تريد ان تأتي الينا » وما تلا الهزيمة - بعد ايام من معركة رأس العش كإعلان عن الإصرار على المواجهة ، ثم اغراق البارجة الإسرائيلية ايلات بعد اسابيع من الهزيمة ، إعادة التسليح ، فحائط الصواريخ فحرب الاستنزاف ، ققرار الهجوم والعبور .

وقال لي محمد المعلم متحمسا : هذا ما اريده بالضبط . لا اريد اكثر من ذلك ولكني اريد ان اصنع كتابا من هذا العنوان حيث مازالت موجودة بقليا كتاب « وتحطمت الطائرات عند الفجر » على الارصفة نفسها في بيروت وغيرها ، وبالفعل كنت انجز عملي في الجريدة واهرع إلى البيت لأعمل في الكتاب الصغير حتى انجزته فعلا في عشرة ايام ... وبعد اسابيع كان قد طبع ونزل إلى الاسواق في العواصم العربية التي كانت هدف الكتاب بالذات .

ومرت على ذلك شهور طويلة لا اذكر عددها ونسيت الكتاب تماما ... وفي يوم من الايام فوجئت بتليفون من رئاسة الجمهورية يبلغنى بموعد مع الرئيس السادات ذات نهار فى استراحة «كنج مريوط» التى لم اكن قد زرتها ابدا . وفى الموعد المحدد وصلت باحدى سيارات جريدة الاهرام الى باب القللا الصغيرة التى كانت مملوكة لاجنبى رحل واصبحت «استراحة كنج مريوط» .

دخلت باب الاستراحة الصغيرة متهيبا لا اعرف السبب ففى السنوات السابقة نقلنى الرئيس السادات تعبسا من دار الهلال واستقلت مرة ونقلنى مرة اخرى من الاهرام الى هيئة الاستعلامات فاستقلت واعتبرت مفصولا مرة اخرى ، ونسب الى من جهته اتهامات كثيرة ، فكيف ياترى سيكون اللقاء ؟ استقبلتنى على الشرفة المطلة على الحديقة السيدة جيهان السادات ببشاشة وترحيب واضحين ، وشعرت ان ترحيبها حقيقى ومؤثر . السيدة جيهان السادات شخصية لا تتكرر مهما نار حولها من جدل فهى قادرة على ان توقع اى شخص يتصل بها تحت تأثيرها الطاغى وهى - كما عرفتها قبل ذلك وبعد ذلك - كانت تفضل دائما ان تؤلف القلوب حول زوجها ، وان تهدىء من خصوماته وطبيعته المتقلبة بين الهدوء الطويل وال غضب المثير . فاستبشرت خيرا وجلسنا واخذت تسالنى عن زوجتى وابنائى فى اللفة طويت بها من الناحية الشخصية سنوات القطيعة فى دقائق ، قبل ان يأتى انور السادات ، ويحى فى يد وبشاشة وتحفظ فى الوقت نفسه وتبينت انه يريد ان يكون حديثنا جادا فقال لها : احمد سوف يتغدى معنا عليك إكرامه بعد هذه الغيبة ، فتركنا وانصرف .

وذهب انور السادات الى الموضوع فورا .. قال لى إنه قرأ كتاب «وتعلمت الاسطورة عند الظهور» وانه فرح لان اول كتاب عربى يعلق على حروب اكتوبر جاء منى بالذات . وقال فى الوقت نفسه انه مع ذلك دهش ان يأتى هذا العمل منى بالذات . فلما ابدت دهشتى لدهشته واستغرابى لهذا التصور منه ، وتساعلت عن سببه ، قال لى بصراحة : لآنك ضدى ... ومرة أخرى سألت عن معنى كلمة اننى ضده . وقلت له اننى اختلفت مع بعض سياساته ، واستطردت قائلا : اننى يا ريس لا اريد الوحدة الى تفاصيل ما حدث ولكن اسمح لى وقد صارتنى بهذا الشكل ان اقول : اننى العاتب عليك قسيادتك تعرف اننى حين اختلفت رايانا لحاكم لا افعل ذلك لا لطموح شخصى ولا لحساب احد آخر ولكن كما كنت تقول لى ، لمجرد ان «مضى كده» .

وذكرته ضاحكا بأنه فى اكثر من مرة أيام حكم عبد الناصر ، الذى لم اقبله قط ولم اعرفه شخصيا قط ، كان ( اى السادات )

يقول لى أحيانا. فى مواقف سياسية معينة ان التقارير قدمت من فلان وفلان أو من جهاز كذا وكذا للرئيس عبد الناصر فطلب إليه الامر باعتقالى . ولكن كان الرئيس عبد الناصر يرفض دائما ويقول « لا .. سيبوه هو مخه كده . احنا راقبناه كثير من اول الثورة وتأكدنا انه لا علاقة له بأحد ، ومع ذلك استطدت قائلا : ياريس ورغم العشرة القديمة والمعرفة بهذا ، فقد اتخذت ضدى اجراءات ومواقف دون ان تسألنى مجرد سؤال فى التليفون او عن طريق احد اصدقائك عن : أية الحكيمة ؟

وقال السادات : « هل نسيت مظاهرات واحداث ١٩٧٢ وبيان الكتاب والصحفيين ؟ لقد كنت انت « شيخ » هذا البيان واستخدمت العجز المخرف يتاعكم توفيق الحكيم . وعندما قرئت نقل هؤلاء الى الاستعلامات استثنيتك انت وتوفيق الحكيم وتجب محفوظ ، واذا بك تريد كتابة مقال فى الاهرام دفاعا عنهم . اننى كنت فى عز الاعداد للمعركة وانت وقفت مع الذين قالوا يملء الفم انه ليس هناك معركة ولا حاجة . غيرك لا نحاسبه على ذلك ... ولكننا كنا نقول دائما ايام جمال عبد الناصر التى ذكرتها الآن انك عاقل وتفهّم ما بين السطور ، فكيف وانت تعرفنى تصدق اننى كنت اضحك عليكم بحكاية المعركة ؟ » .

وقلت له : سيادة الرئيس ، اننى لن ادافع عن نفسى فى هذا الموضوع ولكننى اريد ان اداقع حتى عن اصغر طالب جامعى خرج فى المظاهرات وهتف ضدك مقتنعا بأنه لن تكون هناك معركة . ونظر الى السادات وهو يذوّذ دخان غليونه فى دهشة وترقب واستطردت قائلا : « كان لديك يا سيادة الرئيس قائد عام للقوات المسلحة ونائب رئيس وزراء ووزير دفاع اسمه الفريق محمد صادق . وكان يأخذ فى الحياة العامة ووسائل الاعلام حجما اكبر من ذلك ايضا . الفريق محمد صادق كان يزور معسكرات الجيش ويتكلم مع الضباط والجنود ويقول لهم انه لن تكون هناك معركة . وانه ليس لدينا أى سلاح . وان الروس لا يريدوننا ان نحارب اراضينا . ولو كان هذا الكلام عن استبعاد المعركة اتى من وزير اعلام او من وزير خارجية لقلنا إنها سياسة . ولكن هذا كلام يقوله القائد العام العسكرى ويقول له لجنوده وضباطه ، فهو لا يمكن الا ان يؤخذ على مأخذ الجد . قائد الجيش يا سيادة الرئيس . حتى ولو كان يعرف انه لا يملك طلقة واحدة - عليه ان يكذب على رجاله ويرفع روحهم المعنوية ويؤمن لهم انه مدجج بالسلاح ، فكيف تصدق ان يقول النقيض ؟ هذا الكلام - يا سيادة الرئيس - الذى كان ينتشر فى كاسر الاوساط وخصوصا بين المتعلمين وشباب الجامعات سبب وضعنا جديدا وهائيا وهو امتلاء هذه المعسكرات

بالمجندين من خريجي الجامعات لأول مرة وقد سمعت شخصيا هذا الكلام من شباب كثيرين في المعسكرات اثنى قديم تماما .  
«اسمع لي يا سيادة الرئيس ان اقول بكل صراحة انني اقتنعت فعلا بأنه لن تكون هناك معركة مهما حدث . كما بالنا بألاف الشباب والمطلة والمتقنين في كل المجالات » .

« اننى مرة اخرى ارجو ألا تعتبر كلامي هذا دفاعا عن نفسي ولكن عن كل شاب خرج الى الشارع في المظاهرات » .

القيت بهذا الكلام في مراقبة متكاملة طويلة دون سلق اعداد ولكن من معرفتي بالسلطات قررت ان اضع الحقائق كلها «على بلاطة» مادمت اقولها بسلوب مهذب ومستند الى منطق .

واحقن وجه السادات ، واحتسى عدة رشقات من كوب شاي ونفث الدخان من غليونه عدة مرات ، ثم قال ، بعد فترة صمت وهو يهز رأسه : الفريق صديق .. لو اننى اردت ان ارسل الفريق صادق الى محكمة عسكرية لحكمت عليه بالاعدام ، ولكنى بعد اكتوبر المجيد ، والسمعة التي احرزها الجيش المصري ، لا اريد ان الطخها يمثل هذه المحاكمة . وصمت وحدث في الافق وسكت بدورى لا اسأل ولا انقلش ولا احاول استدراجه إلى ان يقول ما كان ياديا انه لا يريد ان يقوله . وصفق بيديه ، وطلب إلى الشخص الذي حضر ان يبلغ « الست » ان تعد لنا الغداء بعد حوالي نصف ساعة .

قلت له بتبرة رضاء وتهديئة : ما سمعته اعتبره حكما بالبرامة . وشرع من جانبه في اسئلة واحاديث شخصية ودردشة عامة ، وعاد يخاطبني بلهجة ودية عن بعض تصوراتي لردود افعال «اصحابك يتوقع البلاد العربية» بعد الحرب .

تناولت الغداء مع الرئيس السادات وجرمه بين هذه الاحاديث المتفرقة وكانت اول مرة اتناول معه فيها طعام الغداء في هذا الجو الخاص ، ليس في سفر ولا في حفل . وقد جاعوا اليه بأرتب مسلوق وبقواره قطع من الخضمر المسلوقة اخذ يأكلها بيديه دون اى شيء آخر ، رغم انه كانت هناك مائدة عامرة بالنسبة لثلاثة أشخاص فقط .

اشارت السيدة جيهان السادات الى «طاجن مكرونة» وقالت لي : تصور انه لا يريد ان يغير الارتب المسلوق ابدا ، هذه المكرونة احضرناها خصيصا من الخارج ، لانها مصنوعة من «السيلوز» اى .أنها صناعية ليس فيها اى دقيق او نشا او اى مادة غذائية ، وهى لذيذة جدا ومع ذلك رفض ان يذوقها وقلت للسيدة جيهان ، انا مستعد ان اكل الطاجن كله ، على اى حال . وضحكت وقالت انها ستشاركني فيه . والسيدة جيهان لديها

ضعف نحو الطعام الجيد ، تستسلم له أحيانا وتقاومه في أغلب الأحيان حتى لا يزيد وزنها وحتى تحتفظ ببطاقتها وحيويتها البشريتين ، وانصرفت من هذا اللقاء في كنج مريوطه معتبرا ان حلحا آخر ، أو هدنة أخرى قد عقدت .

هيكمل يخرج من الأهرام : لم أعمل مع محمد حسنين هيكل في جريدة الأهرام أيام حكم عبد الناصر ، أى أيام وضع محمد حسنين هيكل غير العادى فى الحياتين الصحفية والسياسية فى مصر ، وإن كنت بالطبع أسمع عنها ما يكفى .

فى تقديرى ان فك لغز شخصية جمال عبد الناصر الشديدة التميز والتفرد فى التاريخ المصرى ، والعملاق الذى خرج من تراب مصر بعد قرون من الرقاد كفرعون جديد جبار ، لا يمكن ان يتم فهمه الا اذا امكن فك لغز علاقته بثلاث شخصيات وصداقات كان لها اكبر الاثر فى حياته : علاقته بعبد الحكيم عامر الذى سلمه الجيش بكامله ، وانشبق عليه وصار ندا له دون اى ند منذ الستينيات ، ومع ذلك ترك له كل هيئته وتأثيره فى أهم أحداث حكمه حتى النهاية المرة .

وعلاقته بأنور السادات ، الذى كان يبدو انه يختلف عنه ، فى كل شىء ، ومع ذلك فقد اختاره لأن يكون خليفة له . ولست من انصار النظرية او النظريات التى تعتبر هذا من باب البلايسات غير المقصودة ، ولكن اعتقد انه كان اختيارا مدروسا ومقصودا ، رغم التشهير الذى لامتثل له الذى قاده السادات بحنكة ومهارة وشراسة ضده بعد وفاته .

وعلاقته بـ محمد حسنين هيكل ، الصحفى الذى لم يكن من اقرب الناس اليه فى اول الثورة ولكنه صار بعد ذلك فى تقديرى اقرب الناس اليه على الإطلاق . فجعله شريكا فى الحكم على أعلى مستوى ، وأيسر دليل انه حين مرض بأزمة قلبية عنيفة اقتضت منعه من العمل تماما ، شكل لجنة تحكم البلاد باسمه كونها من شعراوى جمعة وزير داخلية وأمين هويدى وزير حربيته وسامى شرف مدير مكتبه ، ومحمد حسنين هيكل الذى كان لقبه الرسمى « رئيس تحرير الأهرام » . ولم اتعرف الى محمد حسنين هيكل الا متأخرا .. وكان ذلك فى أوائل الستينيات .

وفى آخر رحلة قام بها جمال عبد الناصر الى سوريا قبل الانفصال وكنت شخصا من انصار الوحدة قبل قيامها وقبل اقناع جمال عبد الناصر بها وكنت بالتالى اسافر الى سوريا كثيرا واعرف حياتها السياسية والاجتماعية جيدا ، وبعد الوحدة كان أكثر ما يثير غضب جمال عبد الناصر هو أن يقرأ فى إحدى الصحف المصرية اسم مدينة سورية او شخصية سورية وقد كتب خطأ ، والواقع أن جهل الصحافة المصرية بهذه الأمور بالنسبة لسورية وغيرها من البلاد العربية كان - وربما مازال - فاضحا ، وهى تكفى باتباع السياسات المصرية الرسمية تجاه الثيارات والشخصيات - العربية حبا او حريا دون تفكير او دون محاولة لتكوين آراء خاصة عن معوفة او خبرة ، وفى إحدى المرات نشرت إحدى المجلات



المصرية صورة واسم زعيم كبير من أقطاب الوحدة ، ومن نواب رئيس وزراء الوحدة ، أظن أنه "فاخر الكيالي" ، على أنه "صبري المسلي" ، رئيس الوزارة السورية التي حققت الوحدة مع مصر ، والعكس بالعكس .

• وهاج جمال عبد الناصر وماج وهاجم بشدة رؤساء تحرير الصحف والمجلات المصرية الجالسين في مكاتبهم المكيفة ، والذين لم يفكر واحد منهم في أن يذهب في أي وقت وفي أي مناسبة إلى سورية ، وكان علي وشك السفر في تلك الرحلة إلى سوريا وأصدر تعليمات حاسمة إلى كل رؤساء التحرير في مصر بأن يسبقوه في طائرة حربية إلى اللاذقية ، التي كان سيذهب إليها في اليخت « الحرية » عن طريق البحر ، ولم تكن رحلة عادية إلى دمشق أو حلب ، ولكنها كانت رحلة شاقة قرر أن يبدأ بها من ميناء اللاذقية ويطوف فيها أنحاء سوريا إلى حمص وحماة وحلب وجبل العرب ( جبل الدروز ) وإلى « دير الزور » و « الحسكة » و « البوكمال » ، أي وأصلا إلى أقصى الشمال السوري ملاصقا الحدود التركية وأقصى الشرق ملاصقا الحدود العراقية ، أيام كانت الحدود التركية والسورية مشدودة الأعصاب وأيام كانت الخلافات مع عبد الكريم قاسم في العراق في قمته .

وركبنا الطائرة جميعا من مطار اللاذقية ، وعندما ادرك رؤساء التحرير بأعمالهم المختلفة وأمرجتهم المتباينة هول مشقة السفر إلى مناطق ليس فيها أي تسهيلات ، بدعوا يتساقطون تدريجيا .

عاد مصطفى أمين واحسان عبد القدوس من اللاذقية بالطائرة بعد يوم ماويومين ، وفي حلب استغاث كامل الشتاوي بمن ينقله بالطائرة إلى دمشق حيث ينتظرون هناك بعد أن تتم الجولة الشاقة ، ولم يصمد إلا محمد حسنين هيكل ، وناصر الدين النشاشيبي ، والمرحوم مصطفى المستكاوي ، وأنا .

وقد كانت حقا رحلة شاقة ، كان استقبال الشعب لجمال عبد الناصر كالعادة اسطوريا بل أكثر من كل مرة ، فقد ذهب إلى مناطق قال لنا أهلها أنه لم يسبق أن زارها « وكيل وزارة » من دمشق العاصمة ، وكانت التسهيلات في بعض تلك المدن التي لم يدخلها مسئول واحد معدومة تماما . لم يكن هناك ببساطة أماكن لرئيس الجمهورية العربية المتحدة وصحبه من الوزراء والصحفيين المصريين والسوريين لا للمبيت ولا للمأكل ولا أي شيء على الإطلاق .

في « دير الزور » مثلا كان هناك بالمصادفة مبنى جديد لم يستعمل بعد لمكتب بريد ، وبقنا جميعا في مكتب البريد ، بات جمال عبد الناصر في غرفة في الدور الثاني من المبنى لعلها حجرة مكتب مدير البريد وفي الدور الأرضي الذي يفصله عن الشارع حاجز بجاجي فقط غطوا الزجاج

بالنشاطين وروصوا أسيرة من القوات المسلحة ونمنا جميعا وذرءا وجترالات  
وصحفيين ، وكان الناس في مثل هذه الظروف يأتون متبرعين بالسراير  
والمراتب والأغطية التي سيستعملها جمال عبد الناصر وصحبه .  
وفي « الحسكة » مثلا وزعونا على الشقق الصغيرة البسيطة جدا التي  
تسايق سكانها على التبرع بها ليبيت فيها القادمون ليلة أو ليلتين .  
وفي شقة ليس فيها أية وسائل راحة من حجرة ومدخل ، « بتنا نحن  
الصحفيين المصريين ، ناصر الدين الشاشيبي ومصطفى المستكاوي في  
الحجرة ومحمد حسنين هيكل وأنا في المدخل .

كذلك كان برنامج الرحلة قاسيا وعنيفا جدا ، بالنسبة لنا نحن المدنيين  
على الأقل ، فقد ركبنا كل وسائل المواصلات وكان أقساما أحيانا  
« الهليكوبترات العسكرية » الحديدية في ذلك الوقت التي لا توجد فيها  
وشلطة واحدة .

فكان ناصر الشاشيبي مثلا ينام على بطة على أرض الهليكوبتر ويضع  
فمه على فتحة الهواء ويتقيأ طوال الرحلة وكل منا يصيبه ألم من نزاع أو  
آخر . ومواعيد التحرك أغلبها في الفجر المبكر لكي نلحق بالرحلة . وفي كل  
مدينة وقرية يخطب جمال عبد الناصر في آلاف الجماهير بلا تعب .  
وللسوريين طريقة جميلة في الترحيب : يعلقون كل سجاجيد مساكنهم  
على النوافذ والشرفات فتعطي الترحيب شكلا فنيا وشخصيا قاتنا .  
ولأنسى منظر تحولنا « حلب » المدينة الكبرى الفاتكة الجمال في الشمال ،  
والطريق إليها يمر بجبل رملي أحمر اللون ومفاجأتنا عندما وجدنا سفح  
الجبل كله مغطى بمئات السجاجيد والألحمة ، وسألنا وعرفنا لدهشتنا أن  
الناس جاءوا بها ووضعوها هكذا غير خائفين من ضياعها ، حفاوة  
وترحيبا .

عرفت محمد حسنين هيكل في تلك الرحلة وتوثقت علاقتي به خلال تلك  
الظروف وكنا نجد دائما ما نتحدث فيه معا وإنما كنا ، وبعد أن ينتهي كل  
عذاب اليوم ، ونأوى إلى فراشنا حيثما كان أملا في بعض النوم قبل  
التحرك مع الصباح الباكر يأتي رسول من حيث يكون جمال عبد الناصر  
يأخذ هيكل ليسهر بقية الليل معه ، وكان بعضنا يتندر على ما يثيره ذلك من  
حنق وغضب لدى كثيرين ، رسميين وصحفيين .

وقد عرض علي محمد حسنين هيكل بعد ذلك العمل معه في الاهرام  
مرارا ولكنني كنت أفضل البقاء حيث أكون ، وفي تقديري أن هذا وثق  
علاقتنا فقد كان أسهل وأكثر راحة له أن يكون له صديق شخصي خارج  
مكان عمله ، يتحدث معه بمرية ، وكانت شمانته في كبرى عندما ذهبت إلى  
الاهرام في الظروف التي ذكرتها حين قال لي ضاحكا : ألم يكن احسن أن  
تأتي إلى الاهرام بالذوق لا بالعاقبة ؟

لم أعمل إذن مع محمد حسنين هيكل في الاهرام الا في رئاسة انور

السادات وكان واضحاً أن علاقته بأنور السادات لاتقل كثيراً في مستواها الرسمي والعمل على الأقل عن علاقته بالسلطة في عهد جمال عبد الناصر . كنت ألاحظ أنه الوحيد الذي يستطيع أن يخاطب السادات فيما لا يستطيع أن يخاطبه فيه أحد ، وأن رؤساء الوزارات والوزراء يخطبون هذه بنفس الطريقة .

ولا أنسى مرة كنت جالسا فيها معه في مكتبه وهو يتحدث تليفونيا مع أنور السادات في يوم عصيب جدا . كان ذلك اليوم في أوج مظاهرات وإضرابات ١٩٧٢ . وقد احتلت الجماهير واقعا مدينة القاهرة بشوارعها وميلاديتها ، والسلطة عاجزة عن التصرف . وكان أنور السادات قد دعا أعضاء مجلس الأمة الى الاجتماع به ليحدثهم عن الموقف ، في قصر عابدين . وكان السادات صباح اليوم المحدد لانعقاد هذا الاجتماع في استراحة القناطر ووصلته انباء خطيرة عن هذا الاحتلال للقاهرة الذي وصل الى سلطة قصر عابدين نفسه ، وقرر السادات الليلة السابقة أن ينقل الاجتماع من عابدين الى استراحة القناطر . أي يذهب الوزراء وأعضاء مجلس الشعب والصحافة الى القناطر . وانزعج أكبر المسؤولين في البلد ، وكان لابد أن يقول أحد للرئيس السادات أن نقل الاجتماع الى القناطر اعلان للناس وللدنيا عن أن رئيس الدولة غير قادر على دخول عاصمته ، ولم يجدوا شخصا يفتح الرئيس في ذلك الا محمد حسنين هيكل ، وكان هذا هو الحديث الذي سمعته يومها وسمعت ورأيت كيف استعمل هيكل كل وسائل الاقناع والضغط المعنوي الى أقصى الحدود على أنور السادات لكي يقبل بالذهاب الى الاجتماع في قصر عابدين كما هو مقرر .

وكان الموضوع حساسا وحرجا لأنه يمس شجاعة الرجل وكبريائه وكان هذا منعكسا على دقة الحديث وقوة الضغط المطلوب ، وقد سمعت طبعا بأذني كلام هيكل للسادات ، وأن كنت لم اسمع ردود السادات الا من هيكل بعد ذلك ولكنه تمكن على أية حال من اقناع السادات بابقاء الاجتماع في قصر عابدين . وفي تقديري الآن انه لو لم يتم ذلك لوقعت كارثة . وقد كنت اشعر بعد ذلك . ان أنور السادات صار يكره القاهرة وأهلها وكل ما تمثله ، وزاد هذا الاحساس لديه بعد مظاهرات الطعلم سنة ١٩٧٧ كما سيأتي .

كان يشعر أن القاهرة بالذات ضده دون سائر القطر ، فهي في نظره مدينة المشاعيين من الطلبة والعمال والمتحذلقين والصحفيين والكتاب وكل من أصبح يسميهم بقصد الاستهزاء « الافنديات » و « الارزال » ، وصار يلقي خطباته في المناسبات التي تقتضي الوقوف امام الجماهير خارج القاهرة ، ويهاجم في معسكرات الجيش « افنديات القاهرة » ويؤلب الضباط والجنود

ضدّهم بأن يقارن علنا بين حياتهم في المعسكرات الصحراوية وبين ، افتدييات القاهرة ، ، وكان كل من في القاهرة يعيش ناعما في غرفة مكيفة .

ولهذا أيضا بدأ يقضى معظم أيامه في «الاستراحات» المتزايدة في مختلف أنحاء القطر فلا يأتي إلى القاهرة ، ولا حتى إلى بيته في الجيزة إلا في المناسبات وفي أوقات نادرة . وأترك هذا الاستطراد .

المهم أن حرب ١٩٧٣ قامت وانتهت وعلاقة محمد حسنين هيكل بالسادات لا يبدو عليها أي تغيير . ويجب أن اسجل هنا اعترافا ، فرغم أنني صحفي قد لا يصدق القارئ أن كثيرا من الأحداث كانت تمر تحت أنفي ولا أراها أو لا تستوقفني كما يجب ، ربما لأنني لم ادخل الصحافة كسائر الصحفيين من باب العمل في السوق على جمع الاخبار من مصادرها .

ولكنني دخلت الصحافة من باب الجلوس إلى مكتب وكتابة مقالات الرأي فكان نشاطي واهتمامي الخبرين دائما يأتيان في المرتبة الثانية وأحيانا يفوتانني . لم اتقن أبدا فن طرح الاسئلة الاخبارية على المسؤولين أو اللجوء إلى الحيل المعروفة لاستدراج مسئول إلى حيث التقط منه خبرا أو قصة ، وأذكر أنني عندما صرت بعد ذلك رئيسا لتحرير الاهرام ، كنت اقضى سحابة يوم كامل أحيانا مع الرئيس السادات وأعوذ من عنده إلى الاهرام مع العصر أو الغروب ، وأجد الأستاذ ممدوح طه رئيس قسم الاخبار العتيد في الاهرام في ذلك الوقت ، في انتظاري في مكتبى وما أن يرانى حتى يهب صائحا ايه اخبار التعديل الوزارى ؟ متى ستجرى حركة المحافظين ؟ هل وقع الرئيس حركة تنقلات السغراء ؟ وعشرات الاسئلة من هذا النوع عن الاخبار المنتظرة . وكان ينظر إلى قى ذهول عندما اقول له أنني لم اسأل عن شيء من ذلك ، ولعله كان يقول في سره بالتاكيد «ايه رؤساء تحرير آخر زمن دول» ؟ ويقول لى : مع رئيس الدولة كل هذا الوقت وتأتى بلا اخبار ؟ وكنت أندم دائما واكتشف أنني كعادتي التلقائية اذا قابلت مسئولا على أي مستوى في مصر أو في خارج مصر ، ادخل معه في مناقشات وراء حول قضية ساخنة ، ويغرقني الجدل وأتسى حكاية الاخبار القابلة للنشر .

هكذا ، مثلا كان إحساسى بمقدمات أحداث ١٥ مايو ، هامشيا جدا رغم خطورتها ، الأمر الذى لم يصدقه أى طرف من الأطراف . ربما لأننى أيضا تعودت في حياتى الصحفية فى تلك الاوقات ألا انضم إلى معسكر ضد معسكر ، خصوصا بين عناصر تنتمى كلها إلى المؤسسة العسكرية وأولئك الاحتفاظ بمسافة بينى وبين كل الأطراف . كل شعورى ( ولعله صحيح ) دائما أنها صراعات سلطة وليست صراعات آراء وسياسات .

واننى مستعد للانحياز إلى رأى او سياسة وليس الى شئله فلان  
او شئله علان . وقد دفعت فى بعض المناسبات ثمنا كبيرا لهذا  
الموقف ، غير المفهوم من اهل السلطة فى كل زمان ومكان .  
بنفس الطريقة ورغم علاقتى الوثيقة بهيكل ، لم اشعر  
بتصاعد الازمة بين السادات وهيكل ، لم أن السادات مثلاً مقابلة  
«كنج مريوط» ، ولم يكن هيكل يتحدث فى الأمر ، وكنت أسمع ما  
يسمعه أى شخص بين الشائعة والتصديق .

وفى غمرة التغييرات التى حدثت بعد حرب ١٩٧٣ وعودة  
المنفيين المحكوم عليهم ، بدأت تتردد أقوال عن قرب إطلاق  
سراح مصطفى امين من السجن مع تحسن العلاقات بالذات مع  
الولايات المتحدة الامريكية . والمملكة العربية السعودية ،  
وتردد كلام عن وساطات من المرحوم الملك فيصل ومن الشيخ  
كمال أدهم .

ومع ذلك كانت مفاجأة هائلة بالنسبة لى ، عندما كنت جالساً فى مكتبى  
فى الامرام ذات صباح وفتح هيكل الباب فتحة صغيرة وقال لى جئت لك  
بمفاجأة .. حرر .. ولم يكن غير مألوف أن يأتى هيكل الى مكتبى فجأة ، او  
إلى مكتب غيرى ويجلس ليدردش ، فضحكت ولم ارد واذا به يفتح الباب  
وأجد على امين واقفا بجواره يقتحم الغرفة واقفز من مكتبى ونبتاليل  
العناق .

كانت تربطنى بعلى امين علاقة صداقة شخصية الى جانب المدة التى  
عملت فيها معه فى اخبار اليوم وعندما سجن مصطفى امين بقى على امين  
فى لندن ولم يعد الى مصر مدة تسع سنوات .

وكان الناس اذا ذهبوا الى لندن يتحاشونه خوفاً ، وعندما ذهبت الى  
لندن لأول مرة قال لى صديق : ان على امين يجب ان يرانى واقترح ان  
نتعشى فى بيته بعيداً عن الانتظار وهو لا يتصل بأحد لأنه لا يجب ان يخرج  
احداً من اصدقائه ، خصوصاً بعد ان رأى بعضاً من اقدم تلاميذه وزملائه  
يتحاشونه ، واتصلت تليفونيا على الفور بعلى امين وقلت له اننى تعودته  
كريماً ، واذا كان لا يزال كذلك فعليه أن يدعونى الى العشاء فى احد مطاعم  
لندن الفاخرة وصممت على ذلك ، وكنت اقصد ان اشعره اننى اريد ان اراه  
علناً وامام الناس جميعاً وليس فى الخفاء .

وقد سمعت مرة من احد اقدم واصدق زملائه فى المهنة انه لا يسافر  
الى لندن حتى لا يضطر الى مقابلة على امين . وبالفعل تقابلنا للعشاء فى  
مطعم كبير شهير ، وللمصادفة دخلت المطعم فجأة مجموعة من الصحفيين  
المصريين المعروفين وزوجاتهم ، ومن مدرسة مصطفى وعلى امين ،  
وصعدوا للمنظر ، ووقفوا مترددين ، ثم هجموا عليه معاتقين ومقبلين وقد  
ازال وجودى عنهم الحرج ، وكنت بعد ذلك اراه باستمرار فى لندن وفى  
بيروت طوال مدة بقائه فى الخارج ، وكنت لا افهم منه ولا من هيكل الا أن  
علاقتهما مازالت على احسن ما يكون .

هكذا قابلت علي امين وهيكل ببشر عظيم وام يبقيا كثيرا فقد قال لي  
هيكل ان علي امين مصمم علي ان يرى كل مبنى الاهرام الجديد في نفس  
اليوم ، وانصرف علي اتفاق ان اتصل بعلي امين او يتصل بي بعد ذلك .  
وبعد ايام اصدر السادات امرا بالافراج عن مصطفى امين .  
وبعد ايام قليلة ، اتصل بي المرحوم فائق السمرائي الزعيم والوزير  
العراقي الاسبق والذي كان لاجئا سياسيا في القاهرة في هذا الوقت ،  
وكان صديقا حميما وقديما لمصطفى وعلي امين . قال لي انه يقيم مأدبة  
غداء تكريما لعلي امين بمناسبة عودته ، في قاعة محجوزة في فندق  
شيراتون مع عدد من الشخصيات وانه يدعوني للغداء معه .

وفي يوم الدعوة ، كان لدى عمل اخرني في الاهرام فوصلت  
الى مأدبة الغداء وقد جلس الجميع وشرعوا في تناول الطعام  
واعذرت وجلست بسرعة علي آخر مقعد خالي حول المائدة .  
وقبل ان يفرغ الحاضرون من الطعام ، قام علي امين من مكانه  
البعيد عني وجاء الي حيث اجلس وسحب مقعدا جلس عليه  
خلفي مباشرة وهمس في اذني بصوت لا يسمعه غيري :  
هيكل خرج من الاهرام ، والرئيس السادات كلفني بأن احل  
محله اليوم ، لا احد يعرف بعد ، ولكنني ذاهب لاتسلم الاهرام  
بعد ساعة واريدك ان تأتي معي لنذهب معا ...  
وقع علي الخير وقع الصاعقة شعرت فجأة انني كالاطرش  
في الزلزال في وسط معمعة ما ولا اشعر بشيء . وقلت لعلي  
امين : ساذهب الي البيت بعد الغداء وسأكون في مكتبي في  
الاهرام كالمعتاد حوالى الساعة السادسة .

والح علي امين علي اهمية ان يدخل الاهرام الي مكتبه الجديد لأول مرة  
وانا معه ، وقلت له : بصراحة انا اري هذا غير جائز ، هذا يجعلني ابدو  
شريكا في انقلاب لم اشارك فيه وسيكون عملا موجهها ضد صديق لي ،  
وانت تعرف انني لا افعل ذلك .. انني سأكون في مكتبي في الساعة  
السادسة تماما وستطيع ان تستدعيني في اى وقت .



## رئاسة تحرير الأهرام

ذهبت الى مكتبى فى جريدة الأهرام الساعة السادسة بالضبط . وبدلاً من أن أجد تليفوناً واحداً يستدعيني ، وجدت لدهشتى ، تليفونين ١ . الأول من الدكتور محمد عبدالقادر حاتم الذى قال لى إنه ينتظرنى فى غرفة رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير ( أى فى الغرفة التى كان يجلس فيها محمد حسنين هيكل ) . والثانى من الأستاذ على أمين الذى قال لى إنه ينتظرنى فى الغرفة المقابلة للغرفة الأولى أى الغرفة التى كانت تجلس فيها مديرة مكتب محمد حسنين هيكل . وقعت بزيارة لكل منهما وفهمت أن القرار الصادر من الرئيس السادات هو أن يكون الدكتور عبدالقادر حاتم رئيساً لمجلس الإدارة وأن يكون الأستاذ على أمين مديراً للتحرير ودهشت لهذا الترتيب الذى لم أفهمه عندما همس على أمين فى أذنى بالخبر فى قاعة الطعام فى فندق شيراتون قبل ساعات واستنتجت أن السادات لا يريد أن يسلم الأهرام كاملاً الى على أمين بعد هيكل ، لكننى شعرت أن على أمين ليس مستاء من هذا الوضع ، فقد كان فى قمة الجذل والنشوة . وكيف لا وهو يجلس على «قمة» الهرم بعد أيام قليلة من انتهاء منفى دام تسع سنوات ؟ وأفهمتى وهو يشرح لى الوضع الجديد أن هذا وضع مؤقت ، وأنه يتوقع أن يترك الدكتور حاتم مكانه بعد الاطمئنان الى سير الأمور فى الأهرام بهدوء وأنه - أى على أمين - سيكون المسئول الأول والأخير فى مرحلة قالية .

وتجربة على أمين فى الأهرام ، قصة أخرى ، فانا كما قلت أحاول أن انظر قريباً من الخيط الاساسى للكتاب وهو محاوراتى مع أنور السادات ، وإن كان لابد أحياناً من الابتعاد عن هذا الخيط قليلاً لذكر أشخاص وأحداث لا مقر من ذكرها لاستكمال الصورة .

أدهشتى أيضاً أتنى لمحت فى ذلك اليوم فى حديث على أمين بداية حملة فاجأتنى ضد محمد حسنين هيكل . ولكننى لم أرحب بالحديث ولم أحاول أن اسأل أو أن أعرف . وقد كنت اتصور أن علاقة الاثنين من أوثق وأقدم العلاقات حتى لحظة دخولهما معا إلى مكتبى قبل أيام كما رويت سابقاً .

وكان قرار السادات فى وضع حاتم حكيماً كما تبين لى من اليوم التالى . فقد قوبل على أمين بجو من العداء الشديد من كل من فى جريدة الأهرام ،

أصحاب الولاء الطبيعي لهيكل ومدرسة الأهرام ، كما أن على أمين كان يرى في كل محرر أو عامل أو فراه مندوبا لهيكل وخصما له ، كذلك تبين لي بسرعة أن على أمين يريد تغيير شخصية جريدة الأهرام التقليدية إلى جريدة أشبه بشخصية الجريدة التي أسسها مع مصطفى أمين وهي أخبار اليوم .

وكنيت قد قررت أن اعتزل الحياة الداخلية في الأهرام تماما . والا يربطني بها إلا المقال الأسبوعي الذي اكتبه كل يوم أحد ، والتواجد في المكتب بالقدر الضروري لاستقبال الزيارات الهامة . ولكن دوامة الصراع العنيف بين على أمين وأسرة تحرير الأهرام كانت تتجاذبنني من أكثر من طرف بقوة وعنف . فالمحررون يجيئون إلي إما للشكوى من خناقاتهم مع على أمين وإما للاستعانة بي لإقناعه بالعدول عن اتجاه أو آخر بحكم علاقتي به . وعلى أمين يفعل الشيء نفسه ، ويحاول اجتذابي إلى وضع واقعي أكون فيه أقرب إلى وضع المستشار له . فهو يقرأ لي مقدما بعض ما يكتبه أو بعض ما يريد أن ينشره في الجريدة .

وكنيت أجد من حق الجريدة التي انتمى إليها ، من جهة ومن حق العلاقة مع على أمين من جهة أخرى أن أتدخل أحيانا ، وأحيانا كنت أخفي عن الجميع .

ثم أشعر بأن على مسئولية المساهمة في حماية المؤسسة الحريفة من العواصف ، فأعود إلى المعمة من جديد .

وبدأت أشعر بأن على أمين أخذ يتململ من وضع الدكتور حاتم . ومن ذهاب المحررين إليه أو من تدخل حاتم في بعض ما يكتب وينشر . وإنه يستعجل حدوث ما كان يتوقع من صدور قرار بترك حاتم للأهرام واستلامه له بالكامل .

ومن أطرف ما قلته لي على أمين يوما : أتعرف لماذا يتمسك الدكتور حاتم بمقعده ؟ . لقد اتصل به هيكل عقب التغيير مباشرة وهذا ويتمنى له التوفيق ولكنه رجاء في أن يحقق له رغبة واحدة في الأهرام ، وهي : ألا يترك على أمين يجلس على « كرسى المكتب » الذي كان يجلس عليه هيكل ؟

والحق أن على أمين أخطأ التصرف في شيء أساسي . فقد حاول فعلا أن يغير ترتيب وتبويب الأهرام وصياغة صفحاته الأولى وما نشأتاه إلى ما يجعل الأهرام نسخة من أخبار اليوم . وكان هذا أكبر موضوع يجذبني بالتدخل بينه وبين أسرة تحرير الأهرام واستغاثت المرحوم على حمدي الجمال مدير تحرير الأهرام .

وكثيرا ما كنت أقول لعلي الجمال ليلا بعد انصراف على أمين وتركه تعليمات معينة في هذا الاتجاه أو عقب تلقى على الجمال برفقة من على أمين من الخارج ، ( من الجرائد مثلا حيث كان يوجد مؤتمر قمة عربية )



يأمر بتوجيهات معينة بهذا المعنى ، أنني كنت أقول لعل الجمال : لا تنفذ  
هذه التوجيهات وقل لعل أمين عدا أنني أنا الذي نصحتك بذلك وسأواجهه  
في الصباح بأنني المسئول .

وكان هذا يحدث بالفعل . ولم تكن مهمة ترويض على أمين بالمهمة  
السهلة ، بشخصيته القابلة للثورة السريعة العارمة كالوحش والهدوء  
العاطفي السريع كالطفل ، خصوصا في تلك الأيام التي كان يشعر فيها بكل  
نشوة وقوة انتصار العودة لا إلى مصر بعد تسع سنوات ولكن إلى الأهرام  
بأذات . ووجدت أن المنازعات بيتنا تفاقمت بشدة وقررت أنني لا أستطيع  
الاستمرار نفسيا وعصيبيا في هذه المصراعات وعيوني في النهاية على إنقاذ  
المؤسسة التي أنتمى إليها . واتصلت ، كمحاولة أخيرة ، ثيوفوتيا  
بمصطفى أمين ، وقلت له أنني أريد أن أجلس معه هو وعلى أمين بمفردنا  
ساعة على الأقل . وانفقنا على موعد أيلقه مصطفى إلى شقيقه وفي  
الساعة السابعة مساء أحد الأيام جلسنا في مكتب على أمين بمفردنا .  
ورويت لمصطفى أمين كل تصرفات أخيه وكان تركيزي الأساسي في  
الحديث هو الهجوم على محاولة على أمين تغيير هوية « الأهرام » إلى ما  
يشبه هوية أخبار اليوم . وسردت له الأمثلة بالشرح والتحليل . وعلى أمين  
جالس يستمع إلي في ذهول .

كنت أعرف أن مصطفى أمين أقوى أعصابا وأهدأ وأقدر على النظار إلى  
بعيد بعكس أخيه . وقال لي مصطفى أمين : هل انتهيت من كلامك ؟  
قلت له : نعم وقد اردت أن يكون هذا الحديث أمامك وآخر مرة أقول فيها  
هذا التصح وأخر مرة أحذر فيها من عواقب هذه السياسة . وأنا منسحب  
بعد ذلك تماما ولا يفعل على أمين بالأهرام ما يشاء .

وقال مصطفى أمين : أحب أن أقول لك أمام على أنني موافق على كل  
كلمة قلتها ! وأنني حدثت على أحيانا في بعض ما حدثته أنت فيه ! وأنني  
أقول له أمامك الآن : أنه لا يمكن لعامل أن يقدم على تغيير شخصية جريدة  
عمرها مائة سنة في سنة واحدة ! هذه مغامرة صحفية مستحيلة ! وقلت  
له : الحمد لله أنني سمعت هذا منك وأنا أكرر أنني أعتبر أن مهمتي في  
هذه القضية قد انتهت .

لم يعلق على أمين على الموضوع . وغلبت عليه وداعته المفاجئة  
واحساسه بأنني أخلص له النصيح مهما قسوت في كلامي . ولكنه انتقل  
بالحديث إلى وضع الدكتور حاتم وإلى وضع الأهرام بصفة عامة .  
أذكر ذلك لأنني نظرت للتوأم الشهير وقلت لهما كلمة كانت كأنها نبوءة .  
قلت لهما : يا على بيه ، ويا مصطفى بيه ، أرجو أن تفكرا بالعقل . أن  
وجود أحدهما على رأس أخبار اليوم - كان رئيس مجلس إدارة أخبار اليوم  
وقتها الأستاذ أحسان عبد القدوس ولكن عودة مصطفى أمين إلى أخبار  
اليوم التي أسسها جعلته قائدها وموجهها الفعلي - ووجود ثانيهما على  
رأس الأهرام أي وجودكما على رأس أكبر مؤسستين صحفيتين في البلاد

أمر لا يمكن أن يستمر طويلا ! ثم إنه غير مقبول سياسيا ! إن كل فعل له رد فعل والأحداث كحركة البندول تتجه من طرف الى طرف . وهذه السيطرة الحالية سيكون لها رد فعل لا أعرف عواقبه . وفي تقديري أن تسيفا الأحداث وأن تقررا ماهو الوضع المنطقي والمقبول بالنسبة لكما في الصحافة المصرية في هذه المرحلة ! ونظر إلى الاثنان في دهشة وتفحص ، ولا أذكر بماذا علقا على ذلك .

بعد شهر من وجود علي أمين على رأس الأهرام بدأ الرئيس السادات يتصل بي ويطلبني للذهاب إليه من حين إلى آخر ، ولكن ليس بكثرة .. وقبل ذلك كان علي أمين يأتي أحيانا من عند الرئيس ، ويروي مايريد أن يروي له من أخبار ، ولكنه كان يكرر علي في أغلب الحالات : أن الرئيس السادات يحبك كثيرا وهو يحدثني دائما عن مزاياك وقال لي اليوم كذا وكذا .. إلى آخره .

وكان علي أمين يذكر لي هذا بمزيج من الارتياح والدهشة معا ، إذ كان يعرف بالطبع اعتراضاتي على بعض سياسات الرئيس السادات .

وعندما بدأت أرى الرئيس ، كنت أحرص في كل مرة على أن أبلغ علي أمين مقدما بذلك وإذا عدت كان يهتم بالطبع كصحفي أن يسمع مني ما هي الأخبار . وكان يدهش حين أروي له المناقشات والآراء العامة التي تحدثنا فيها دون أي أخبار !

ورغم أن السادات ربما كان أقدر من رأيته في حياتي على عدم إظهار حقيقة مشاعره - لا يناعه في هذه القدرة إلا الصديقان القديمان والعدوان اللودان مصطفى أمين ومحمد حسنين هيكل - رغم ذلك فإنه لم يكن صعبا علي أن أدرك أن أنور السادات لا يحب مصطفى أمين وعلي أمين على المستوي الشخصي . بل أكثر من ذلك كان يكن لهما شعورا عدائيا خفيا ، وأن استعانت بهما في ذلك الوقت كانت ضرورة سياسية .

ويخيل إلي أن مصطفى أمين كان يدرك ذلك إلى حد ما ، أما علي أمين فيخيل إلي أنه لم يكن يدرك ذلك على الإطلاق .

وكان علي أمين يسرف كثيرا في الاتصال بالرئيس . وفي ملاحقته يطالب المواعيد والزيارات .. وفي ملء الجريدة بالأخبار والاقوال التي ينسبها إلى الرئيس مباشرة ، وأذكر بالتأكيد أنني حاولت أكثر من مرة أن أوصي إليه ألا يزيد في ذلك ولا يأخذ ترحيب السادات الظاهر به على محمله المطلق وأنه « إن كان حبيبك غسل .. ما تحسوش كله » ولكنني أشك في أن كلماتي قد قاربت حتى أذنيه .

وفي مقابلاتي مع السادات في تلك الفترة لم يأت ذكر الأهرام وما يدور فيه مرة واحدة اللهم إلا يوم أن تشر علي أمين عددا كبيرا من الأخبار المهمة والصغيرة بالصيغة التي كانت مفضلة لديه وهي أن يبدأ بعبارة « قال لي الرئيس السادات » ليؤكد لدى القراء ما كان يتصور أنه وضعه

المؤثر الجديد .. وقال لى السادات : غريب على أمين ده !! يأتى ويقول لى  
فى عرض الكلام : ما رأيك يا ريس لو فعلت كذا ؟ ويقول لى أحد أفكاره ..  
وفى اليوم التالى أحده قد نشر فكرته ، وقد نسبها إلى بقوله « قال لى  
الرئيس السادات سأفعل كذا أو كيت » .

لم تترك مقابلاتى القليلة والطويلة للسادات فى تلك الفترة أى معنى  
معين لى ، سوى أنها مناقشات صريحة جدا حول بعض أمورنا العامة ،  
قد أذكر منها ما أذكره بعد قليل ، ولم يخطر على بالى أنها تمهيد لى  
شئ . وبالعادة أيضا لم أكن أعرف كل ما يدور وراء الستار .. حتى جاء  
يوم أبلغنى فيه على أمين ، ولا أجد غيره ، أننى مطلوب لمقابلة الرئيس غدا  
الساعة كذا فى استراحة القناطر ولكنه أضفى على هذا الموعد أهمية لم  
أنتبه إليها فى وقتها ، صحيح أنه هو الذى أبلغنى وليس مكتب الرئاسة  
وأنه أخذ يؤكد على بكل وسيلة أن أعود من الموعد إلى مكتبه فى الأهرام  
مباشرة ، ولكننى رجحت أن ذلك امتداد لشخصية الصحفي الشغوف  
بالسبق الخبرى بالدرجة الأولى .

ونذهبت فى الموعد إلى الرئيس السادات .. وبعد التحيات والمجاملات  
الأولى قال لى فجأة وبسرعة : « لقد قررت أن على أمين يجب أن يترك  
جريدة الأهرام فوراً » ولما أبدت دهشتى وتساءلت قال لى السادات  
مستعملاً التعبير الذى سمعته منه لأول مرة ثم أصبح من عباراته الشهيرة  
بعد ذلك : كنت أعرف من البداية أن على أمين لا يصلح للأهرام وأن  
الأهرام لا يصلح له . ولكننى عندما قررت إخراج هيكل قررت أن أقرن ذلك  
بصدمة كهربائية لكل من فى الأهرام . إن هيكل لم يكن رئيس تحرير جريدة  
ولكنه جعل من الأهرام حزباً وخطبوا له أجهزته وصار كل واحد فى  
الأهرام يظن أنه هيكل صغير يشارك فى حكم البلاد ، ووجدت أن الصدمة  
الكهربائية التى تجعلهم يفيقون هى أن أرسل لهم على أمين بالذات .. عدو  
هيكل اللدود .

وقاطعته قائلاً : ولكننى لم أكن أعرف ياريس أن هناك أية خصومة بين  
هيكل وبين مصطفى وعلى أمين إلا بعد أن جاء على أمين إلى الأهرام ،  
وبدأت حملته هو ومصطفى أمين على هيكل .

وضحك السادات وقال لى : ألا تعرف أن هيكل من ناحية ومصطفى  
وعلى أمين من ناحية أخرى أعداء الداء من قبل ؟ هل تحاول أن تقنعنى  
أنك سازج إلى هذا الحد ؟

واقسمت له على صدق ما أقول . وقال لى السادات : كيف ينسى على  
ومصطفى لهيكل أنه جردهما أولاً من العلاقة الوثيقة بعبد الناصر .  
وجردهما ثانياً من العلاقة الوثيقة بالأمريكان ، وصارت اتصالات  
عبد الناصر الهامة مع الأمريكان من خلال هيكل وليست من خلال مصطفى  
وعلى .

وقبل أن أفتح فمى - ولم يكن لدى فى الواقع ما أقوله - استعطر قاتلا :  
لقد قررت أن يعود على أمين إلى جريدته ومدرسته فى أخبار اليوم ، وأن  
يكون مصطفى أمين رئيس مجلس إدارة كما كان من قبل . وقررت أن تتولى  
أنت رئاسة تحرير الأهرام ، وأن يتخذ هذا كله من صباح الغد !!  
كان لهذا الكلام وقع الصاعقة على . فلم أكن أتصور أن السادات  
استرد حسن ظنه الشخصى بى بعد جبل الوشائيات الذى يعزل كل حاكم  
لدرجة أن يضعنى فى هذا المكان بالذات . ولم أكن أرغب فى أن يكون  
قصده من ذلك استعمالى لأداء دور معين ، كما قال أنه استعمل على  
أمين ، ثم انتى كنت قد قررت منذ تركى رئاسة مجلس إدارة دار الهلال ألا  
أتولى أية مسئولية صحفية إلا مسئوليتى عن نفسى . أى عن الكلام الذى  
أضغ اسمى عليه ، بعد أن حفلت الصحافة بتيارات بالغة السوء وصار  
كثيرون من مندوبى الصحف لدى جهات السلطة والحكومة مندوبين لجهات  
السلطة والحكومة لدى الصحف ، وصار الصحفي لا يعمل لمستقبله من  
اجتهاده وعلاقاته داخل المؤسسة ولكن من علاقاته بالجهات ذات السلطة  
على الصحافة خارج المؤسسة حسب الظروف ( رئاسة الدولة أو رئاسة  
الوزارة أو وزارة الاعلام أو أجهزة المخابرات والمباحث العامة  
والامن !! ) .

وحيث أقول إن الدنيا دارت بى فأننى لست أبالغ على الإطلاق . كنت  
أدرك فوق ما سبق كله أننا نتوغل فى مرحلة بالغة الاضطراب فى حياتنا  
ومفاهيمنا السياسية لايعرف إلا الله ماذا سيحدث فيها . وكانت معرفتى  
بأن السادات له ظاهروباطن تبعده عن فكرة العمل المباشر معه ، وضرورة  
الاحتفاظ بمسافة بينى وبينه . وكنت فوق هذا وذاك أمر بأزمة صحية  
متعددة الجوانب ، حتى انتى بالمصادفة كنت قد حصلت من الأهرام -  
بموافقة على أمين والدكتور حاتم - على إجازة لمدة شهر للسفر إلى لندن  
للإلاج . واتممت كل الاجراءات من حجز الفندق إلى حجز مواعيد مع  
الاطباء . وتذكرت أن فى جيبى يومها بالمصادفة جواز السفر وتذاكر  
السفر ، وبدل السفر التحدى الذى صرفته لى جريدة الأهرام .  
ولكننى بدأت كلامى مع السادات .. بالحجة الأولى وهى أنتى لا أريد  
من حيث المبدأ أن أكون رئيس تحرير أية جريدة أو مجلة أو رئيس مؤسسة  
صحفية . وقلت له أنه شخصيا يعرف هذه الرغبة عنى من قديم . وقصة  
ذلك أنتى فى سنة ١٩٦٦/٦٥ وكنت رئيسا لمجلس إدارة دار الهلال  
وسلطت أنور السادات بالذات لدى جمال عبد الناصر عدة مرات لكى يعينى  
من هذه المهمة .

كنت أقول للسادات أن ينقل لجمال عبد الناصر رأى فى أن رئاسة  
المؤسسة الصحفية يجب أن تكون لمدير إدارى فى الدرجة الأولى وعلى  
أعلى مستوى وأن يكون الصحفي رئيسا للتحرير فقط . وأن هذا هو الوضع

فى العالم كله إلا فى حالات الصحفيين الذين أنشئوا مؤسسات صحفية .  
كنت أقدم له هذا الاقتراح مدروسا مفصلا وركزته أن يحدد اختصاص  
رئيس التحرير بحيث يضمن عدم تدخل رئيس مجلس الإدارة فى سلطة  
رئيس التحرير بآى شكل كان . حتى من الناحية المالية .. المؤسسة تحدد  
ميزانية للإعلانات والترقيات والمصروفات والرحلات الصحفية إلى آخره  
بحيث تكون سلطة رئيس التحرير فى التصرف كاملة فى حدود ذلك بالنسبة  
لجهاز التحرير شاملة كل شيء صحفيا وماليا وإداريا ويتفرغ رئيس مجلس  
الإدارة لمسائل المشاكل الصحفية والمالية والإدارية والطباعة والعمالية  
الضخمة .

كنت قد جربت فى عضوية مجلس إدارة أخبار اليوم - عقب التأميم  
مباشرة - ثم بصفة خاصة كرئيس لمجلس إدارة دار الهلال - كافة المشاكل  
الهائلة التى لا علاقة لها بالعمل الصحفى والسياسى نفسه . واشتريت  
مطابع وأقمت مبانى وبيعت واشترت فى ورق الصحف ، وحاربت فى جبهة  
الاعلانات ، وواجهت اللجان النقابية ولجان الاتحاد الاشتراكى فى  
المؤسسات فى ذلك الوقت حول قضايا الميزانية والأرباح وغيرها .  
ورغم أننى كنت رئيسا أقوض أكبر جزء من المسؤوليات إلى غيرى من  
كبار المختصين بعد حسن اختيارهم فإن رئيس مجلس الإدارة يبقى هو  
المسئول أمام الدولة وأمام الناس وأمام العاملين فى المؤسسة وبالتالي  
فهو مضطر إلى أن يقاسى مع كل قرار . وكان اقتراحى المستمر أن تبدأ  
التجربة بى فيعين زميلى مصطفى بهجت بدوى عضو مجلس الإدارة  
المنتدب لدار الهلال ، والصحفى والكاتب والشاعر إلى جانب ذلك رئيسا  
لمجلس إدارة دار الهلال وإن أعين أنا مديرا عاما لتحرير كل ما يصدر عن  
دار الهلال من مجلات ومطبوعات .

وكان أنور السادات يحمل الاقتراح للرئيس عبد الناصر ويعود إلى  
بالرقص ، حتى قال لى نهائيا : الرئيس عبد الناصر يقول لك أنس هذا  
الموضوع تماما . كرئيس مجلس إدارة مؤسسة صحفية ليس كرئيس  
مجلس إدارة الحديد والصلب . هذا منصب سياسى فى الدرجة الأولى وإن  
كان اسمه « رئيس مجلس إدارة » . وأذكر أننى بناء على ذلك قررت ترك  
العمل الصحفى فى مصر فترة من الزمن ، وبالفعل عثر أصدقائى على  
وظيفة لى فى اليونسكو فى باريس لمدة سنتين . ولكن جاء الدكتور ثروت  
عكاشة فجأة وزيرا للثقافة وهو رجلنا الأول فى اليونسكو وعلم بالامر  
واستدعانى فجأة وسألنى عن مدى صحة الخبر فقلت له نعم فقال لى إنها  
وظيفة صغيرة بالنسبة لك . فقلت له : « إننى لا أطلب مستقبلا فى اليونسكو  
المهم أنها تعطينى المرتب الذى أعيش به مع أسرته فى نفس المستوى  
الذى أعيش به هنا . فقال لى أنه تصور حين علم بالامر أننى مغضوب  
على . وأنه اتصل بجمال عبدالناصر وسأله عن سر الغضب على الذى

يدفعنى إلى السفر إلى باريس .  
فدهش عبد الناصر ونفى له علمه بأى شيء من ذلك . وقال له : ( وأنا  
أروى عن الدكتور ثروت عكاشة ) أنه يعرف أن جماعة الاتحاد الاشتراكي  
يضايقوننى ولكنه يرجو منى ألا أهتم بذلك كثيرا .  
على أية حال فقد قامت حرب ٦٧ بعد ذلك ولم يعد واردا أن أفكر فى  
السفر .

ذكرت الرئيس السادات بكل هذا ، وكان يعرفه ، لاقنعه بأننى أعتذر عن  
عدم قبول رئاسة تحرير الأهرام من حيث المبدأ ولهذه الأسباب القديمة .  
ولكنه رفض الاقتناع بكلامى ورفض اقتراحى عليه أن يعين أى شخص  
آخر رئيسا للتحرير ويمكنه اعتباره مستشارا إلى جانب أى رئيس تحرير  
يختاره .

وأخيرا لجأت إلى العذر الصحى وقلت له أننى موشك على السفر بعد  
أسبوع وأخرجت له من جيبى جواز السفر وتذكرة الطائرة فرفض ..  
واقترحت عليه أن يؤجل القرار شهرين حتى أسافر وأعود فى حالة صحية  
أحسن . فقال لى أنه قد تحدث معى بطريقة يعتقد أن على أمين قد فهم  
متها الخبر الذى يخصه فعلا . فقلت له إن الأهرام يستطيع أن يستمر بكل  
ثبات بجهازه الحالى ويمدير تحريره على الجمال مدين الشهرين ، وكان  
أملى فى الواقع من التأجيل أن يتسع الوقت لإقناعه بالعدول .

وكان الرئيس السادات يمر بفترة يكره فيها المرحوم على حمدى الجمال  
كراهية شديدة دون معرفة شخصيته ولا يطبق سماح اسمه لأنه رأس  
كتقيب الصحفيين مرة جمعية عمومية صاحبة لتقاية الصحفيين هوجم فيها  
السادات هجوما شديدا . واعتبره إما مستول ، وهو أمر غير صحيح ، وإما  
أنه عجز عن السيطرة على الجمعية العمومية والسيطرة على الجمعية  
العمومية لتقابة الصحفيين دائما أمر مستحيل . وصار يسميه من يومها  
« ميمى بيه » وصاح فى : تريد أن تترك الأهرام شهرين « لميمى بيه » وكل  
رجال هيكل مازالوا هناك وعلى رأسهم « ميمى بيه » نفسه ؟

وقد طال الحوار الى ما بعد الظهر . ولم أكن أعرف أن على أمين كان  
يستقصر تليفونيا من حين إلى آخر عما إذا كنت مازلت عند الرئيس أم لا ،  
متعجبا بالطبع لطول الوقت . وقال لى السادات : تسلم رئاسة تحرير  
الأهرام غدا صباحا وبعد شهر سافر للعلاج كما تريد . وطلبت من السادات  
طلباً أخيراً سخيفاً قلت له : ألا يعلن الخبر إلا بعد ثلاثة أيام ، سأقضيها  
فى البيت التقط فيها أنفاسى واتدبر بعض أمورى ، فوافق . وهمت  
بالتهوى للانصراف ثم تذكرت فجأة وضع الدكتور عبدالقاسم حاتم كرئيس  
لمجلس إدارة الأهرام . وقلت للرئيس السادات : إن علاقتى بالدكتور حاتم  
الشخصية ودية . ولكن الدكتور حاتم لطول تعوده ممارسة السلطة كوزير  
وكتائب رئيس وزراء وكتائب أول يرأس الوزارة واقعيا ، ولغرامه بمهنة

الإعلام ، لا يمكن إلا أن يتدخل .. وقد كان يتدخل في الجريدة أيام على أمين بل وأحياناً بالحذف في مقالات على أمين نفسها ، وطلبت إليه تحديد هذه العلاقة بوضوح تام وقلت له : أنا غير مهتم برئاسة مجلس الإدارة كما ذكرت ، ويسعدنى أن يبقى فيها الدكتور عبدالقادر حاتم ، ولكن يجب أن يكون واضحاً أن لا أحد غيرى له أية سلطة على أى شىء له علاقة بالتحرير ، ولذلك طلبت أيضاً أن يصدر القرار بتعيينى « رئيساً لتحرير الأهرام ومشرفاً على كل مايصدر من مؤسسة الأهرام من مطبوعات » . فهذا يشمل كل فروع التحرير من مركز الدراسات الاستراتيجية إلى مجلة الطليعة إلى الأهرام الاقتصادى إلى آخره .

وأكد لى السادات أن هذا هو ما سيكون . وقال لى : سأرسل ممدوح سالم ( وزير الداخلية فى ذلك الوقت ) إلى حاتم فى منزله يبلغه هذا الاتفاق بدقة تامة . ثم ضحك السادات ضحكته ، حين كان يجب أن يقول شيئاً يظهر به خبرته فى سبب أغوار الرجال وقال لى : وعلى فكرة ممدوح يحب القيام بمثل هذه المهمات !

وصحبنى الرئيس السادات إلى باب الاستراحة . ونجاةً تذكرت شيئاً آخر وقلت له : إذا كان مصطفى أمين أو على أمين سيمصبح رئيساً لمجلس إدارة أخبار اليوم فما هو مكان إحسان عبدالقدوس فى هذه التغييرات ؟ فتوقف السادات عن السير ووضع يده على كتفى وقال : لا تخف على إحسان أنت تعرف مكانته الخاصة عندى وهى مكانة لم تتغير . ولكن إحسان ( دلوعة ) وقد زاد دلوعه أكثر من اللازم . أنه يريد منى أن أخوض له أصغر معاركه ولا يتحمل مسئولياته بنفسه .. وأنا فى أية ولا فى إيه ؟ سيتقل إحسان كاتباً فى الأهرام . إن هذا يريحه ، فهو قد ترك السياسة واقعياً من زمن طويل وهو « يتمتع » دائماً لأن المنصب الصحفى يضع عليه كتابة القصص وبيعها للسياسة . فليكن له ذلك . أنه سيفضب أول الأمر ، ولكن مكانته الشخصية محفوظة عندى وهو يعرف ذلك جيداً فعلاقتنا لعللاقة لها بالمناصب الصحفية .

ركبت السيارة متجهاً إلى الأهرام حيث وصلت مع القروب . وذهبت فوراً إلى مكتب على أمين ، وأنا لا أدري كيف سأبدأ معه هذا الحديث وكيف انتهى منه . وعندما دخلت عليه كان فى حالة ترقب هائلة واجلسنى وطلب لنا فنجانين من القهوة وقال لى : إنه علم بوقت انصرافى من عند الرئيس ، وطلب إلى مصطفى أمين أن يحضر ليكون معنا .

هدأ هذا الاحتشاد لاستقبالى من روعى ، فلا بد أنه يعرف ، مما يجعل مهمتى أسهل ، إذ كيف يسمع منى لأول مرة أنتى مكلف بالجلوس فى مكانه ؟

وصل مصطفى أمين بعدى مباشرة ، وتذكرت على الفور حديثي القديم وقد تحقق التوقع واستحال بقاؤهما على رأس أكبر مؤسستين صحفيتين في البلاد .. ورويت خلاصة قصتي بالاختصار الممكن والهدوء الممكن . وبعد أن انتهيت ، قال على أمين لأخيه في صوت فيه مزيج من الحيرة والغضب والابتهاج فيما أظن بالعودة إلى أخبار اليوم أيضا : ما رأيك يا مصطفى ؟

كان رد مصطفى أمين : رغم هدوئه المعتاد ، غاضبا قاطعا كالفصل الحاد : رأيي أن هذا « شلوت » من السادات لك ولي .. أنه ضربة ضدك ! تبعد الخلافات العنيفة قى الأهرام وبعد الحملات عليك في صحف ومجلات أخرى ، يجيء هذا القرار وكأنه حكم يقشلك في إدارة الأهرام بعد هيكلي . وتدخلت محاولا تخفيف هذا المعنى وحاولت تذكيرهما بحديثي القديم من أن وضعهما كان من البداية غير قابل للاستمرار .

رد مصطفى أمين بالهدوء القاطع نفسه : كلا .. أنا لا أعترف بذلك ! إن السبب في هذا كله هو إحسان عبد القدوس . فمئذ عودتي إلى أخبار اليوم بعد خروجي من السجن ، والمظاهرة التي استقبلتني بها أخبار اليوم ، وإحسان عبد القدوس لا يطيق وجودي في الدار مع أنه رئيس مجلس الإدارة . لقد طلب محررو الأخبار إقامة حفل تكريم لي فرفض وقال أن في هذا اهانة له . أنه يتصور أن كل تحية لي عمل موجه ضده ، أنه يقول لكل من يقابله أن مصطفى أمين يوجه كل الدار ويحاول جطي « طرطورا » أنه يلوم كل محرر يتورني في مكنتي . ومعلوماتي المؤكدة أنه أخذ « يزن » على أذن صديقه « أنور السادات » وأمله الذي تصوره هو أن يعود على أمين إلى أخبار اليوم وأنه بالتالي سيعين رئيسا لمجلس إدارة الأهرام .. وهذا مايريده . الآن سيفهم أن أنور السادات يعرف أنه لا يستطيع أن يكون رئيسا لمجلس إدارة الأهرام أو أن يصدر جريدة يومية .

كانت جلسة مبعبة على أعصابي وأعصابهما بالتأكيد . وحاولت عن اقتناع أن أقول لهما أن وجودهما معا مرة أخرى على رأس أخبار اليوم هو الوضع الطبيعي بصرف النظر عما يحدث في الأهرام . وكان غريبا أن أجد على أمين المتأثر بالقرار أكثر تقبلا لهذا المنطلق من مصطفى أمين الهادئ القوي الأعصاب بطبعه . كان يؤكد .. أن لم يقل ذلك بصراحة - أن هذه بداية موجة مضادة ضدهما استسلم لها أنور السادات ، وكنت أشعر بما ذكرته قبل من أن مصطفى أمين بذكائه الخارق يحس بأن أنور السادات لا يحبهما كما كان يتصور على أمين .

وتركتهما وذهبت . إلى بيتي لارفع سماعة التليفون ، وانقطع عن العالم يومين للراحة ، قبل الذهاب لتسلم رئاسة التحرير مرة أخرى .



قضيت اليومين فعلا في محاولة الراحة ونسيان كل شيء وليس في التفكير في أي شيء مما أنا مقدم عليه . والواقع - اعترفت لنفسى - يومها أن كل ماقلته للسادات من أسباب للاعتذار عن رئاسة التحرير لجريدة الاهرام كان غير صحيح .. فكل إنسان في مهنته لاشك يتطلع إلى أن يحقق ذاته ويشيع هويته بالوصول إلى قمته .. ورئاسة تحرير جريدة يومية قوية ومنتشرة هو قمة تحقيق الذات وأشباع الهواية والحرقة لأى صحفى ، ولكن المرء يصبح أقل رغبة وأكثر زهدا في ذلك إذا جرب هذه القمة مرة أو مرتين .. فيمكن قد ذاق حلاوة الامر ومرارته معا . والاشراف على إصدار جريدة قوية وواسعة الانتشار لايعادله شيء في إشباع غرام الصحفى ، وهو يتطوى على امكانيات هائلة للتأثير في 'الرأى العام على جبهة واسعة تمتد من الرياضة وملابس النساء وتذوق الفنون إلى السياسات بكل أنواعها ، لمن يأخذ الصحافة بمعنى الرسالة والخدمة العامة .

بهذه المعانى لم أكن زاهدا في المنصب أو ما يعادله . ولكننى كنت قد كنت خلال عملى الصحفى المتنوع قناعة بأننى لن يكتب لى هذا الحظ فى الظروف التى أريدها ،

أمنية أن يراس المرء تحرير جريدة يومية قوية ويشكلها طبقا لمخطط وفكرة في رأسه يعتقد أنها تقدم للقارئ جريدة تنقسه ، لها طابع متميز ، يصعب تحقيقها فى ظروف صحافتنا فى المرحلة التى عشتها ، كما أنها ليست مرحلة قيام كاتب أو صحفى بإصدار جريدة بإمكانيات بسيطة .. صارت الصحافة صناعة كبرى .. الذين سبقوا نجحوا بعد البداية فى النهوض وإقامة الامبراطوريات الصحفية المعروفة التى لم يعد ممكنا اقامتها بجهود فردية مستقلة . والآن لاتوجد إلا هذه الامبراطوريات .. وزاد على ذلك ولاية الدولة على الصحافة منذ قيام ثورة ١٩٥٢ سواء قبل التأميم أو بعده .

وبعد التأميم بالذات صار قرار من يكون هنا أو هناك ليس ملكا للكفاءة ولا للمهنة ولا للقارئ ولا للمؤسسة الصحفية . فقد كنت مثالا سعيدا فى عملى كرئيس تحرير الأخبار من حيث اللقب وكرئيس فعلى لتحرير أخبار اليوم ، ومع ذلك كنت غائبا فى الجرائر حين صدر قرار بنقلى أو بترقيتى من الناحية الادارية - والتى لا تهمنى طبعاً - إلى رئاسة مجلس إدارة دار الهلال . وحاولت التوصل من هذا القرار . فقد كنت أعرف كل المؤسسات الصحفية وأزورها وأخالط العاملين فيها ، ما عدا دار الهلال التى كان طابعها البعد التام عن مجرى التأثير السياسى . وقلت إن نقلى من جريدة يومية إلى أوسع الجرائد انتشاراً إلى مجلات أسبوعية بالنسبة لكاتب سياسى كنقل مطرب من ميكرفون الاذاعة إلى ميكرفون فى سرادق وأن هذا قرار ضدى 11

وامتنعت عن تسليم عملي في دار الهلال حوالى شهرين . وكنت اعتقد  
ولا ازال انه قرار غير برئ قصد به « تحديد اقامتي » في سرادق كما  
ذكرت ، بدلا من موجات الاثير الواسعة ، ولكنه كان قد قيل للرئيس عبد  
الناصر ان مطبوعات دار الهلال - وهذا صحيح - تمثل ثلثي كل ما تصدره  
الصحافة المصرية جميعا إلى العالم العربي واننى باهتمامي التلقائى لا  
الرسمى بالقضايا والبلاد العربية خير من يكون واجهة صحفية لعصر في  
العالم العربى .

ولما كانت هذه القرارات لا يؤخذ فيها عادة رأى الخبراء ، فلم يقل أحد  
إن معظم هذا الحجم من التصدير هو روايات مترجمة ومجلات للمرأة  
وللأطفال إلى آخره . وهى مجالات هامة ، ولكن ليس لها علاقة بالتأثير  
الفكرى بين التيارات السياسية العامة .

ثم أن رئاسة تحرير جريدة يومية فى هذه الظروف تتطلب استعدادا  
للعواقبة التامة والمطلقة لاتجاهات الدولة ، فقد يقبل نشر مقال مخالف  
ولكن لا يمكن أن يقلل أن تكون روح الجريدة كلها بصفة عامة مخالفة لاتجاه  
الدولة فى قضية من القضايا العامة .

وفوق كل هذه المحظورات التى جعلتني اتخلى تماما عن رغبة رئاسة  
تحرير جريدة يومية ، كانت هناك معرفتى السابقة بأثر السادات وبعيوبه  
وحسناته . ولم اكن أرغب فى صدام آخر قد يكون أكبر وأضخم ويمنعني  
من العمل الصحفى . وكنت أفضل أن أبقي قادرا على مخاطبة الرأى العام  
فى حدود مقال كل أسبوع على أن ارتطم بما يحول بينى وبين القارئ .  
كانت هذه هى الأسباب الحقيقية لمحاولتى الحثيثة فى الرفض ، وليست  
الاسباب التى حاورت وداورت بها مع أنور السادات .. ولكن اردت أن لا  
تتحكم دائما فيما نجد فيه أنفسنا من مواقف .. وهكذا كان ما كان .

كانت فترة عملي فى رئاسة تحرير الاهرام هى أكثر فترات اتصالي  
بالرئيس السادات وأن لم تكن أقصا كما سيتبين بعد قليل .  
كانت أكثر فترات اتصالي به بحكم طبيعة العمل نفسه . فرئيس تحرير  
أهم جريدة لابد أن يتصل بالرئيس تليفونيا مرارا خصوصا مع رئيس  
السادات يهوى الصحافة ويهتم بها . بل لقد لاحظت أننى عندما كنت لا  
أتصل به حين لا أجد مبررا لذلك يعاتبني على عدم الاتصال . كنت أقول له  
إننى أظن أن مهمتى أن أخفف عنه مسئولياته ولا أضيف اليها . وكان يأخذ  
على أننى لا أشكوه من مشكلة قط . وكان يجب أن يتصل به الصحفيون  
عموما ويحكوا له المكايات . كذلك بحكم العمل أيضا من الطبيعى أن أبدا  
أنا يطلب مقابلة من حين لآخر وأن يستدعيني هو من جانبه بأكثر كثيرا مما  
كان يحدث قبل ذلك .

والغريب الذى أسجله للسادات أننى لا أكاد أتذكر مشكلة هامة قامت بينى وبينه حول ما ينشر فى الجريدة . لم تكن مرحلة خلاف سياسى حول قضايا هامة كالاخلافات التى ظهرت بعد ذلك . ومع ذلك فقد كان إذا اختلفت الجريدة أحيانا عن شيء يراه ويظهر فى الصحف الأخرى ، فقد كنا نناقش فيه ومناقشات تقسم بسعة الصدر والتفهم ، وكان قابلا لأن يقتنع بغير ما يرى وأن يوافقنى فيه ، وكنت من وقتها أقول لزملائى ومسئولين فى أماكن أخرى ، ومازلت أقول لهم ذلك : إن رؤساء الدول قابلون للمناقشة ! وأى رئيس إذا سمع نقاشا لكلامه يخطو على حجة وإقناع وقهم ويعبر عنه بطريقة لائقة تراعى حساسياته كرئيس ، فإنه فى الأغلب يفتتح . لأن النصيحة الصادقة ستكون بطبيعتها لمصلحته . ولكن أكثرهم لا يفعلون ! والمشكلة فى الأغلب تكون حين يكون « صاحب النصيحة » مطعونا فيه مقدما لدى الرئيس بالآلاف التهم غير الصحيحة وهو لا يعرف . فهذا يجعل كلامه من البداية بالطبع غير مقبول .

ولكن كانت هناك مشاكل من نوع آخر .  
أو لعلها ليست مشاكل بالمعنى الكبير للكلمة ، ماعدا مشكلة واحدة كانت أول ماقابلنى مع الرئيس السادات واستمرت معلقة زمنا طويلا ربما إلى يوم أن تركت رئاسة تحرير الأهرام .  
بدأت أشعر بسرعة بأن الرئيس بكره محمد حسنين هيكل أكثر مما تصورت أول الأمر .

لم يكن هذا فى الانتقادات التى يوجهها إليه والتى لم تخرج عن أن هيكل تعود أن يكون شريكا فى الحكم أيام عبد الناصر ، يشكل الوزارات ، يصنع القرارات ، فى حين أنه ... أى السادات ... لا يقبل ذلك . وأنه على حرصه الشديد على الاستعانة بكفاءة هيكل إلا أنه حاول عبثا أن يجعل هيكل يعمل معه بشروطه ، لا بشروط هيكل ، ولكن هيكل تصور أنه صار مركز قوة من نوع آخر غير قابل للعزل .

ولم يكن شعوره المتزايد بالنقمة على هيكل شخصيا هو المشكلة ، فقد حددت له موقعى ، وقد كان يعرفه مسبقا من أننى وهيكل صديقان على المستوى الشخصى والمهني والعائلى أيضا . وكان يقول أنه يقدر ذلك تماما ، وانتهى الأمر . كما أننى تعودت ألا أخوض معه أو مع غيره من أهل السلطة فى أى حديث يتصل بشخص صحفى آخر . لأن أى حديث عن زميل فى المهنة يسهل تفسيره على أنه محاولة دسيسة أو محاولة إساءة خدمة . فى حين أننى لو تحدثت عن رئيس وزراء أو وزير مثلا فليس فى الأمر شبهة المنافسة المهنية . وبالمثل كان يعرف علاقتى بعلى أمين إلى آخره ، ولكن المشكلة أننى بدأت أشعر بأن نقمة السادات على هيكل قد تعدت شخص هيكل إلى جريدة الأهرام ذاتها . كنت أشعر بأنه يكره جريدة الأهرام فعلا . وأحيانا كنت أشعر بأنه يتمنى لو أغلق عينيه وفتجهما فلا يجد الأهرام . الأمر الذى جعلنى أيام رئاسة على أمين وأول أيام رئاستى

أشعر بقلق جدوى وخطر على المؤسسة لا أظن إلى اليوم أنه كان على غير أساس .

وأننى أجروء على الاعتقاد بأننى ساهمت بدور كبير فى حماية مؤسسة الأهرام قبل أن يبرء عداؤه لها ويحولها إلى مصلحة بدلا من أن يدكها على رموس من قىها .

كان يشعر بأن الأهرام مازال وسيظل « هيكليا » مهما حدث . وكنت أعرف أن أخبار زيارات بعض المحررين لهيكل تثيره جدا . وفى صحننا . لا تخلو صحيفة على الإطلاق من « محررين نشطين » يكفون على كتابة التقارير إلى أصحاب السلطة مع اختلاف فى المستويات : بداية من يرتفع مستواه إلى الكتابة إلى رئيس الدولة راسا إلى من لايزيد مستواه

على الكتابة إلى المباحث . وفى كتابات أثرت كثيرا فى حياة الصحافة والصحفيين وعلاقات المهنة بالسلطة .

ولا أشك فى أنه كان يتلقى قدرا هائلا من التقارير عن علاقات بين هيكل والأهرام .

وكان يعتقد أن هيكل قد جعل من الأهرام مؤسسة خطيرة ذات أجهزة غريبة .

كان هناك « الدسك » DESK وهو الاسم الذى نطقه على « سكرتارية » التحرير المركزية . وكان هناك « مركز الدراسات الاستراتيجية » وكان هناك « قسم معلومات » إلى آخره . وكان يعتبر هذه أجهزة شيطانية أسس بها هيكل ليس جريدة ولكن حزبا سريا يستطيع أن يقوم بأدوار خطيرة .

هكذا كان يفاجئنى السادات أحيانا بملاحظات من نوع : المركز الاستراتيجى ده يا أحمد أنا مش مستريح له أبدا . ده كان هو الذى بيغذى هيكل بمادة مقالاته ويغذى عبد الناصر بالمعلومات التى تناسب هيكل . لازم تشوفك فيه طريقة .

مثل هذه الملاحظة كانت تتورد من حين لآخر بنفس الطريقة . وكنت أقول له نفس الرد : ياريس أنا أعرف العاملين فى هذا المركز واحدا واحدا واستطيع أن اتحدث عن كل شخص منهم . إنهم شبان مستعدون للعكوف على دراسة أى شىء يكفون بدراسته . وكل ما يصدر عنهم من مطبوعات ، أقرؤه جيدا ولم يكن عبثا أننى طلبت إليك أن ينص قرار تعيينى على أننى مسئول أيضا عن كل ما يصدر عن جريدة الأهرام من مطبوعات . أريدك ياريس أن تدلنى على مقال واحد أو كتيب واحد فيه ما يثير الاشتباه فى مقصده أو أمانته العلمية .

ولم يكن السادات يقرأ دراسات المركز ، فلم يكن قارئنا بطبعه ولكنه كان طبعيا يحس أنه من مخلفات وآثار هيكل وإذن فإن من فيه هيكلين . وليسوا أكاديميين لديهم القدر المطلوب من التجرد الفكرى .

كذلك « الدسك » ، فمن حين لآخر كان يقول لى نفس الشيء : يا أحمد انت مش واحد واحد بالك من « الدسك » دول اخبث ناس فى الاهرام ؟ هيكل منقيهم واحد واحد أنا يصلنى كلامهم وتعليقاتهم كلها ( السكرتارية المركزية التى هى الدسك تجلس حول مائدة فى وسط صالة التحرير تماما وامام الجميع وعلى مسمع منهم ) لسه هيكل بيلعب بيهم ويبدسوا حاجات فى الجرنال ، فكان ردى أيضا تقليديا : إننى جديد تسببا على الاهرام ولا أعرف شخصيا منات المحررين فيه . ولكننى أعرف بالتجديد أمضاء الدسك الذين يذراوح عددهم بين ثمانية وعشرة أشخاص . ثم أنتى اجتمع بهم مرتين يوميا : الساعة الثانية عشرة ظهرا لنقرر موضوعات الصفحات الداخلية وبشكل الجريدة عموما . ومرة ثانية الساعة الخامسة لاعداد الصفحة الاولى والاستماع إلى أية ملاحظات من أى محرر عن أى صفحة يمكن استدراكها فى الطبعة الصادرة فى اليوم التالى .

كنت دائما أشرح هذه الأمور وغيرها عن الجريدة بالتفصيل وبإثابة وصبر محاولا أن أشرح للرئيس تفاصيل العمل اليومي للجريدة من اجتماع التاسعة صباحا مع رؤساء الأقسام إلى السهر حتى أتسلم أول نسخة من طبعة الغد حولى الساعة الحادية عشرة ليلا ، مؤمنا بأن من يفهم تفاصيل الشيء يأنس إليه وتقل شكوكه فيه .

وأذكر مرة أنه كرر لى نفس الملاحظة عن « الدسك » ودائما بدون تحديد مأخذ معين ، إلا ضرورة التخلص من كل من فيه . وحاولت أن أغلق هذا الباب نهائيا . فقلت له فى غضب لم أسيطر عليه كثيرا : باريس ، اسمح لى ، أنت فى الواقع تتهمنى بالبلاهة ، وعدم الكفاءة . فأننا أراس هذا الدسك مباشرة وأجلس وسط أقرانه بالساعات يوميا وتصمورك أنهم يمكن أن يلعبوا بى أو يمرروا من تحت أنفى ما لا أوافق عليه هو فى الواقع ليس اتهاما لهم بقدر ما هو اتهام لى بالغفلة والبلاهة والذي يستحق التغيير فى هذه الحالة هو أنا وليس فلانا أو علانا .

ولم يعد بعد ذلك الى حديث الدسك مرة أخرى .

وكننت عندما توليت رئاسة تحرير الاهرام قد قررت أن أضع فى الصفحة الأخيرة - وهى مكان بارز ومقروء - « بيوأزا » بعنوان « وجهة نظر » وأعلنت أن هذا الباب من حق أى محرر فى الجريدة من أقدم محرر إلى أى محرر تحت التمرين أن يكتب فيه . وأننى سأختار ما ينتشر فيه كل يوم على أساس الجودة والجودة والمناسبة بصرف النظر عن الأسماء . وقد قاومت كل رئاسات الاهرام وقتها إنشاء هذا الباب . ولكننى قلت لهم أن الاهرام تعود أن يعيش على كتابات هيكل وأخباره وأنه الآن محتاج إلى أن يحتفظ بمكانته إلى أن يعيش على أخبار وكتابات كل من فيه ، وأنه خلال شهر أو سنة سيظهر فى هذا الباب ويلمع عشرات الكتاب الجدد الذين لم تتح لهم الفرصة .

ونجح الباب نجاحا كبيرا وتحمس له الشباب المصريون ولمعت فيه أسماء أمام الجمهور لأول مرة ككتاب رائ . وكان طبعيا أن يكون مذاق الباب حريفا في النقد أكثر من المعتاد في ذلك الوقت وفي الأهرام بالذات . وبدأ السادات يشكو من كتابات هذا الباب ، ثم لاحظت أن شكواه ليست من درجة حرارة النقد فيه ولكن من أسماء معينة . وكان سهلا أن لاحظ أن بعضها أسماء عرفت بصداقتها لهيكل أكثر من غيرها ولكنه كان يقول لي : يا أحمد فلان هذا شيوعي ، ويكون ردي عليه : يا ريس ده سبق حبسه لأنه من الإخوان المسلمين ! ، أو تكون الملاحظة والرد بالعكس مثلا .

وقد عرفنا بعد سنوات أنه كان في مسألة التحرير كاتب تحرير ، يزود الرئاسة بالمجلدات من التقارير عن النكتة التي قالها هذا والكلمة التي قالها ذاك ولم تعرف ذلك إلا حين كوفيء صاحبنا بمكافآت ضخمة في عهد نالية لمرحلة رئاستي للتحرير وبناء علي طلب من السادات .

وقد تأكد لي وقتها إلى أي حد بلغ تسرب اتفه الأشياء عن الدسك أو عن الجريدة طبعا ، عندما اخترنا في اجتماع الدسك يوما - كصورة للصفحة الأولى صورة - يظهر فيها الرئيس السادات وهو يعانق « أبو عمار » مستقيلا له . وفي اليوم التالي عرضت علينا صورة مطابقة تقريبا لنفس الصورة والرئيس يعانق « أبو عمار » مودعا له ، وقلت إننا هكذا سننشر نفس الصورة مكررة على يومين . واخترت بدلا منها صورة لرئيس وزراء المغرب الذي كان قادما إلى القاهرة في مهمة .

وبعد مدة ، قابلت « أبو إياد » ، الذي ضحك وقال لي : أبو عمار عاتب عليك ، فسالته لماذا ؟ فقال لي : يقول أنك رفعت صورته يوما من الصفحة الأولى وقضيت عليها صورة لرئيس وزراء أو وزير خارجية المغرب !! ودهشت طبعا لسرعة انتقال هذه الحكاية التافهة ، وشرحت له أبو إياد ، القصة وضحك أبو إياد وقال : إن الأمر مجرد مداعبة من « أبو عمار » .

والمشكلة نفسها كانت تتجدد مع السادات حول مجلة الطليعة ، كان دائم الشكوى من ماركسياتها الصريحة وكان يضغط على بطريق مباشر أو غير مباشر لكي أجد حلا لتصفيتها .

وذاث يوم كنت جالسا معه عندما دق جرس التليفون ، وفهمت أن المتكلم معه يحدثه عن عدد مجلة الطليعة الصادر في اليوم التالي وأن فيه كذا ، وكيت من المواد الشيوعية والماركسية الصارخة .

وبعد أن وضع السادات سماعة التليفون قال لي : ده حاتم ، ينهني إلى ما هو منشور في عدد الطليعة المقبل ، كيف تسمح بهذا الكلام ؟ . ومرة أخرى ، قررت كما في حالات سابقة بعد أن يتكرر الشرح والحديث مرات كثيرة حول قضية معينة أن أحاول وضع حد بأن أصع الرئيس أمام اختيار منطقي حاسم . قلت له في تلك المرة يا ريس ، هذه مجلة قرر الاتحاد الاشتراكي - أي الدولة - أن يصدرها الأهرام كمثير ماركسي ، صريح وهي مازالت كذلك ومع أنني بخص قرارك الذي طالبت به « مسئول عن كل

ما يصدر عن الأهرام من مطبوعات « فأنتى أقول لك إننى لا أقرأ مجلة الطليعة إلا بعد نزلها الى السوق .

وخيل إليه أنه قبض على مثليسا فقال لى : « ودى تيجى ازاي بقه مع مسئوليتك ؟ » قلت له إننى إذا قرأت مجلة الطليعة بهذا المعنى للمسئولية فمعنى ذلك أنتى ستضطر إلى إعادة كتابتها من أولها إلى آخرها ! هذه فعلا مقالات ماركسية وهى مقالات رأى ، يكتبها أصحاب رأى ، وقد صدرت بهذه الصيغة ، وليس هناك إلا أحد اختياريين : إما أن تبقى هكذا مادامت سياسة الدولة تسمح بوجود هذا العنبر ، وإما أن يصلنى خطاب من رئيس الاتحاد الاشتراكى غدا بإغلاقها ، وسوف أغلقها تنفيذاً لقرار مالك المؤسسة .

وقد كان من عيوب السادات ، أو لنقل من أساليبه المفضلة فى العمل ألا يخوض بعض المعارك بنفسه بل بوسائل أخرى . وحالة مجلة الطليعة نموذج لهذا الأسلوب . فهو لا يريد أن يصدر قرارا صريحا بإغلاقها ، ولكنه يريد من المسئول عن المؤسسة أن يدخل فى معارك جانبية مع مجلة الطليعة تنتهى إلى إغلاقها أو تطفئش محرريها وجعلها شيئا آخر دون أن يقال إن السبب هو قرار بالتخلص منها بصراحة . وفيما أعلم فإن الأستاذ إحسان عيد القدوس حين تولى رئاسة مجلس إدارة الأهرام بعد تركى لرئاسة التحرير تعرض لنفس الضغوط وقاومه . حتى جاء المرحوم يوسف السباعى بعد إحسان عيد القدوس . فنفذ هذه الخطة وهى خطة إثارة منازعات شكلية وجانبية مع المجلة انتهت بخروج من خرج وبتحويلها إلى مجلة للشباب والعلوم ! .

معركة المدعى الاشتراكى كانت هذه معركة صحفية بارزة فى تلك الفترة . ولعلها كانت أول معركة صحفية خاضتها صحيفة ضد وزير انتهت إلى إخراج الوزير منذ زمن طويل جدا . كان الأستاذ الدكتور مصطفى أبوزيد قهوى قد عين فى وظيفة مبتكرة هى « المدعى العام الاشتراكى » ليمثل الاتهام فى قضية ١٥ مايو . وقد أكسبته مرافعاته العنيفة وقبوله القيام بهذا الدور أمام محكمة غير دستورية ولا قضائية عكاسة كبيرة عند السادات . وفى أحد التعديلات الوزارية عين وزير العدل مع بقائه فى منصب المدعى الاشتراكى . وكان من طبيعة الدكتور مصطفى أبوزيد فهمى أن يرد ببلاغة وإطالة وعنق على كل من يتعرض له أو من يتصور أنه يتعرض له فى الصحافة والبرلمان حتى صارت الناس تشعر بخشية معينة نحوه .

وفى إحدى المرات أدلى الدكتور مصطفى أبوزيد قهوى بحديث فى إحدى الصحف ، رأى الرسام الفنان صلاح جاهين أن يتخذه مادة اكاريكاتيره اليومى بالأهرام . وكان يشاورنى دائما فى كل رسم كاريكاتيرى بالتليفون صباح كل يوم . ووافقت على الفكرة ورسم الدكتور مصطفى أبوزيد قهوى فى صورة كاريكاتيرية .

وظهر الكاريكاتير . وأحدث ضجة كبيرة فقد طال العهد الذى لايجوز فيه رسم الوزراء باشخاصهم فى الكاريكاتير الصحفى فما بالنا والمرسوم هو شخص وزير العدل والمدعى الاشتراكى معا ؟ . وفى اليوم التالى جاءنى صلاح جاهين منزعجا فى مكتبى وقال لى أنه تلقى بالتليفون استدعاء بالذهاب غدا إلى مقر المدعى الاشتراكى للتحقيق معه فى الواقعة المفسوية إليه .

وهذأت روع صلاح جاهين . وقلت له أن يذهب إلى الموعد وأن لايقول أكثر من أنه استخدم حقه فى التعبير عن الرأي وأنه عرض الرسم على رئيس التحرير المسئول وأنه يطعن فى حق المدعى الاشتراكى ومكتبه فى التحقيق معه . ويطلب السماح له باستدعاء صحام ومندوب من النقابة ورئيس التحرير المسئول .

ولكن المفاجأة كانت أن الأهرام ظهر فى اليوم التالى وقد نشرت فيه بروازا كبيرا على عامودين فى رأس الصفحة الأولى يروى الخير بينط كبير بطريقة تتطوى على التشهير والتحدى والاعلان عن دخول معركة اذا اقتضى الامر ولم يكن ذلك أيضا بمأكوف . وأحدث هذا النشر ضجة كبرى جعلت الذين ذهب إليهم صلاح جاهين لا يقتحون معه أى تحقيق فى انتظار تعليمات جديدة وعاد صلاح جاهين بلا تحقيق ولحق به رد طويل وعنيف من الدكتور مصطفى أبوزيد فهمى للنشر .

وفى اليوم التالى نشرت رد الدكتور مصطفى أبوزيد فهمى كاملا وكتبت ردا طويلا عليه وأعدت نشر الصورة الكاريكاتيرية فى وسط الموضوع بحجة أنه تقليد صحفى ليراهم من لم يكن قد رآها . وتكرر الرد من الدكتور مصطفى أبوزيد فهمى . وهنا وجدت أن القضية قد تضخمت وقررت أن أنجه بها اتجاهها آخر . فكتبت مقالا طويلا لم أكتف فيه برفض تصرف المدعى الاشتراكى فى استدعاء من لايملك استدعاء كنوع من الارهاب والتخويف . ولكننى أثرت قضية انفجرت كالقنبلة وهى أن جمع شخص واحد بين منصبى وزير العدل والمدعى الاشتراكى هو وضع غير دستورى وأنه لايد من أن تغير الدولة هذا الوضع وأن تخاف له أحد المنصيين دون غيره .

ومرة أخرى رد الدكتور مصطفى أبوزيد فهمى ورددت عليه . وواصلنا الحملة طالبين إحالة الموضوع إلى لجنة الشؤون التشريعية فى مجلس الشعب للبت فيه .

والتقط النائب الكبير الشجاع المرحوم المهندس محمود القاضى وقد كان برلمانيا بارعا لايشق له غبار ، التقط الموضوع . وزارنى فى المكتب وشرحت له كل جوانبه القانونية والدستورية وقدمت له كل الأوراق . وأثار محمود القاضى الموضوع فى المجلس ونجح فعلا فى إحالته إلى اللجنة التشريعية .



بهذا اعتبرت أن الموضوع قد انتهى . فلا يمكن أن تقضى اللجنة التشريعية إلا بعدم دستورية الوضع ، لأن عدم دستوريته صارخ وقاطع وبالقالي أصدرت على الفور تعليمات لكل أقسام الجريدة ألا ينشر سطر واحد عن الدكتور مصطفى أبوزيد فهمى لاسلبا ولا ايجابيا ولا خبرا ولا اى شىء يمكن تأويله ، فقد حققنا الهدف ولا نريد أن يقول أحد أننا نتعقبه ، وفعلنا لم يكن فى ذهننا ذلك . ولم يكن هناك اى مشكلة شخصية بيننا . ولكن بعد يومين اتصل بى الرئيس السادات تليفونيا وقال لى ايه الحكاية مع مصطفى أبوزيد ؟ انتوا مش تسبوا الراجل بقى ؟ ولا أدت عايز الناس تقول إن الأهرام رجع يشيل وزراء ويضط وزراء ؟ .

وقلت له : اسمح لى ياريس ، المقارنة التى فى بالك لا أساس لها اطلاقا . وهو الذى تجنى علينا وليس العكس وعند أحيل الأمر إلى اللجنة التشريعية توقف الأهرام عن نشر اى شىء عنه حتى لايساء تأويله .

ومضحت وقلت له : وأنا ياريس واثق سانة فى المانة من قرار اللجنة التشريعية مهما كانت الظروف .

قال لى : الظاهر كده كما قيل لى . لكننى زعلان على مصطفى أبوزيد . قلت له : مشكلته ياريس أنه يسرف فى الرد وفى عنف الجدل والخصومة .

فقال لى : هو مش مدفع شوية . لكن تعرف أنه عاجبنى بسبب الحكاية دي ؟ انه كما تقول فعلا لايترك شئنا إلا ويرد عليه . هو صحيح بيؤذينا احيانا لكن مش احسن من الوزراء التانيين اللى عاملين صم وبكم ، لايردوا ولايصدوا ، وهم فى الحقيقة يتركوننى أرد عنهم جميعا .

وقد انتهى الموضوع فعلا بتأييد اللجنة التشريعية لرأينا فى الأهرام وصدر قرار بابقاء مصطفى أبوزيد فهمى مدعيا عاما اشتراكيا وتعيين وزير آخر لوزارة العدل .

الاحزاب لأول مرة : كان الحديث ، فى حديقة منزل الرئيس السادات بالجيزة ، عن الدستور الذى سبق وضعه ، ولأول مرة لمحت أن الرئيس يفكر فى صيغة لايجاد نوع من « التعدد السياسى » . الأمر الذى جعل الجلسة تصبح جلسات متوالية .

ناقشنا الدستور طويلا ، وكانت فكرته كما قال لى أن أقرب نموذج إلى ذهنه كان دستور ديجول الذى وضعه للجمهورية الخامسة فى فرنسا . بين النظام البرلمانى الذى يضع كل السلطة فى يد البرلمان وبين النظام الرئاسى الذى يضع كل السلطة فى يد الرئيس .

وقلت له أن هذه بالفعل صيغة مناسبة وضالحة خصوصا لبلاد العالم الثالث ، حيث لم تتعمق الظروف التى تكفل نجاح الديمقراطية واستمرارها . ولكننى قلت للسادات أن دستورنا قد تخطى دستور ديجول .

وأنت بصراحة يعطى رئيس الدولة سلطات هائلة .

ولا أنسى رد السادات . فقد قال لى :

- يا أحمد .. عبدالناصر وأنا ، آخر القراعة ! هو عبدالناصر كان محتاج للنصوص علشان يجكّم بيها ، وأنا أنا محتاج لنصوص ؟ .. السلطات اللي بتقول عليها أنا حاططها للى حيجوا بعدنا .. حييجى بقى رؤساء عادييين .. محمد وعلى وعمر .. حيحتاجوا للنصوص دى علشان يمشوا بشغلهم .

ووجدت فى حديث السادات تناقضا بين ماكان يلّمح به فى غموض وعدم وضوح لايجاد صيغة للتعدد السياسى ، وبين كلامه عن السلطات المطلقة للرؤساء التالين له . ولغت نظيره إلى ذلك ، وائنى فيما يبدو لا أفهم المطلوب أو الذى فى ذهنه بالضبط .  
وقال لى السادات :

- اسمع ! .. فيه حاجة الأنديات المدنيين مايفهموهاشى ، لكن أنت قارئ تاريخ وتفهمها . الجيش يا أحمد دخل السياسة . معنى كده أنه لن يخرج من السياسة قبل ثلاثين سنة . وأنا لما بافكر فى طريقة للتعدد السياسى والمؤسسات وغيره .. عايز أعمل توازن فى الحياة المدنية مع القوات المسلحة .. ده الواقع اللى لازم نعرفه ، إن كان عاجبنا والا مش عاجبنا .

وقلت له : يعنى سيادتك بتفكر مثلا فى صيغة زى اللى فى تركيا ؟ .. أيامها كان هناك صراع حزبي عنيف بين حزب العدل ( ديمريل ) وحزب الشعب ( أجاويد ) ، ولذلك سألنى السادات فى دهشة : إزاي ؟  
قلت له : فى تركيا برلمان . وفى البرلمان سبعة أحزاب وليس حزبان فقط . والصراع بينهما عنيف . ولكن الجيش فى تركيا منذ أيام أتاتورك له وضع خاص فى الدولة . إنه حزب « أتاتورك » الذى يعتبر نفسه القيم والممارس على أساسيات نظام أتاتورك رغم وجود مساحة واسعة للأحزاب والبرلمان .

واستوضحنى السادات فى اهتمام كبير ، وشرحت له كيف أن الجيش فى تركيا لا يبدو فى الصورة ولكنه يتدخل ، وبمقدار ، فى الوقت المناسب ، ورئيس الجمهورية المنتخب دائما هو رئيس أركان حرب القوات المسلحة . وفى القرارات الأخيرة كقزو قيرص أو العلاقة مع اليونان أو حلف الاطلنطى ، الجيش هو صاحب الرأى الأعلى .

وقلت له : ولكن التوازن بين الجيش والمؤسسات المدنية حدث عقب واقعة لامثيل لها . فقد مات أتاتورك دكتاتور تركيا وخلفه « عصمت اينونو » أقرب زملائه فى الكفاح وفى بناء تركيا الحديثة . ولأول مرة أعلن عصمت اينونو عن السماح بقيام حزبين . ورأس هو الحزب الجمهورى ، وخاض الانتخابات . وإذا باليطل التاريخى والحاكم المطلق يسقط فى الانتخابات ويفوز الحزب المنافس له . ولكنه لم يفعل كما فعل أتاتورك حين « ألف » حزب معارضة ثم حله بعد قليل وشنق بعض معارضيه . ومع أن عصمت

أيُنومو الرجل العظيم كان يستطيع أن يرفض النتيجة ويلقى الدستور . فقد قبل نتيجة الانتخابات ، وقبل أن يكون زعيما للمعارضة . وظل الجنرال عصمت أيُنومو في المعارضة حتى الانتخابات التالية ، ففاز بالأغلبية الساحقة ! ولكن الجيش كان ومازال دائما له هذا الوضع الخاص ، لأن رجل الجيش عصمت أيُنومو ساعد على ذلك .

واهتم السادات بالحوار على تجربة تركيا . وطلب إلى أن أرسل له أي شيء يكون لدى عن النظام التركي . وبالفعل طلبت المستشار الصحفي التركي وسألته إن كان لديه نسخة من الدستور التركي وأي قوانين متصلة به .

وبحسب دبلوماسي شديد ، جاءتني السفير التركي ، دون سابق معرفة ، إلى مكتبي في الأهرام . ومعه الدستور . ومعه عدد من القوات والوثائق التي لا أذكرها الآن . وطلبت أن أسمع منه عن الأحزاب ، فأملى على أسماعها كلمة . زعماءها وبرامجها وتاريخها ... إلى آخره .

وأرسلت كل هذا إلى الرئيس السادات في مظروف كبير . ولكننا لم نعد إلى الحديث عن التجربة التركية بعد ذلك .

ولعلنا نذكر أنه بعد عشر سنوات تقريبا من هذا الحديث ، تدهورت الأحوال السياسية والاقتصادية في تركيا ، وقام الجيش التركي بقيادة رئيس أركان الحرب الجنرال إيغرين بتسليم السلطة ، ووضع دستور جديد ، وألغى الأحزاب القديمة . ولكنه أسرع إلى انتخاب الجنرال إيغرين رئيسا للجمهورية ، وأجراء انتخابات عامة وإقامة برلمان جديد والسماح بحزبين جديدين فقط .

والغريب أن الجنرال إيغرين والجيش وضعا ثقلهما رسميا وعلنيا مع أحد الحزبين . ولكن هذا الحزب الذي زكاه الجيش والرئيس سقط ونجح الحزب الآخر فلم يتردد في دعوة رئيس الحزب الذي فاز إلى تشكيل الوزارة وتولي الحكم .

لكن ، لماذا تنفرد تركيا بهذه الظاهرة إلى الآن ؟

في تقديري أن ملاصقة تركيا لجار قوي هو الاتحاد السوفيتي ، وبالتالي عضويتها في حلف الأطلسي ، يجعل تركيا محتاجة إلى المحافظة على « صيغة ديمقراطية » حتى يمكن بقاؤها في هذا الجسم الأوربي الذي تنتمي إليه . رأينا ذلك في أسبانيا والبرتغال ، فلم تقبلا في السوق الأوربية المشتركة إلا بعد أن تحقق فيها ذلك .

وفي تقديري - الآن ، وليس وقتها - أن السادات حين بدأ يفكر في التعدد السياسي ، كان أهم دافع لديه ، تسهيل الاندماج في عالم الغرب والحصول على حمايته وتمالفة وخبراته . لأن شواهد أخرى - قد يأتي ذكرها بعد ذلك - جعلتني أصل إلى هذا الاستنتاج .

ولم يكن وقتها قد توصل إلى فكرة المنابر . ولذلك لم يأت هذا التعبير على لسان السادات في ذلك الوقت قط . ولا أدوي حتى اليوم هل كانت فكرته وتسميته ، أم جاءت من استشارات ومنايع أخرى .



## السادات يتحدث عن :

### شاه إيران - اندروپوف - حافظ الأسد

هذه الحكاية استطيع أن أذكر تاريخها بدقة أكثر ، إذ جاء هذا اللقاء مع السادات عقب رحلة قمت بها وأنا رئيس لتحرير الأهرام إلى منطقة الخليج العربى وكان شاه إيران أيامها يبدو قى غاية القوة والأهمية وتسطع شمسهُ فوق المنطقة ، وطوال الرحلة على الشاطئ الغربى من الخليج كان الحديث فى أى مجلس لايد أن يذكر خطر شاه إيران ومخططاته لمناطق البترول العربية إلى آخره ..

كان ذلك فى أوائل ١٩٧٤ فقررت فجأة أن أستكمل الرحلة بالذهاب إلى طهران وقابلت الشاه مقابلة طويلة فى قصر « تياقاران » ودار بيتنا حديث طويل ليس هذا مجاله ، وإن كنت أجد أنه ليس من الخروج على مجرى الحديث أن اسجل ملاحظة صغيرة - فقد وصلت طهران بدون موعد «أابق» ، ووجدت فندق هيلتون يقص بمئات الصحفيين المشهورين من الأمريكان والأوربيين والعرب ، وصحفية مصرية واحدة هى زميلتنا فى الأهرام السيدة أنجى رشدى . وكان جاك شيراك رئيس وزراء فرنسا يزور طهران . وأنا لسبب لا أذكر منه إلا ضرورة العودة إلى القاهرة ، قد حجزت مكانا على الطائرة إلى القاهرة بعد أربعة أيام وانتهى أملى فى أن أقابل الشاه عندما وجدت هذا الزحام ولم أعرف من أين أبدا . ومئات أكثر صحف العالم فى الهيلتون منذ أيام طويلة ينتظرونه . واقترحت على الزميلة أنجى رشدى أن أذهب إلى وزير الإعلام وأطلب مقابلة الشاه حتى أكون قد قمت بالواجب ثم أسافر . وبالفعل ذهبت مع الزميلة أنجى رشدى إلى مكتب وزير الإعلام . الذى استقبلنا فورا . وشرحت له طلبى فزد قائلا إنه سيبدل جهده ولكن تحديد موعد للمقابلة فى هذه الأيام الأربعة مستحيل . وقلت له إننى أقدر الموقف وإنها غلطتى فى التقدير وشكرته ولكنه فجأة قال : دعنى اتصل بالقصر وأبذل محاولة ! ، ودهشت للاهتمام ، والعلاقات بين مصر وإيران مقطوعة ، وآخر العهد بها أيام عبد الناصر كانت حالة عداء عنيف ، وهو بالتأكيد لم يسمع باسمى من قبل وإن كان قد عرف صفتى كرئيس لتحرير الأهرام . واتصل تليفونيا بجهة ما متحدنا باللغة الفارسية ثم قال لى : سيأتى الرد بعد عشر دقائق .

وجلست أدبا وشكرا لمحاولته اليايسة . وبعد عشر دقائق دق التليفون ، وقال لى الوزير : موعدك مع جلالة الشاه اليوم الساعة الثالثة إلا ربعا ! أى بعد أربع ساعات بالضبط .

وزادت دهشتى . وأقنيتى الشاه بحفاوة وأعطانى وقتا طويلا ، وعدت إلى الفندق بين نظرات استغراب صحفيى العالم الذين كنت أعرف بعضهم وعرضوا على مساعدتهم !!

يومها قلت للزميلة أنجى رشدى هذه معاملة غير عادية والمقصود بها مصر طيعا واعتقد أن ثمة خلوطا لا تعرفها انفتحت بين مصر وإيران ! المهم ، أنتى عدت وشرحت مقالا فى « الأهرام » عن الرحلة كلها وفيها ذكر للقائى مع الشاه وبعض ما تحدثنا فيه .

وبعد أيام ، كنت عند الرئيس السادات فى استراحة القناطر هذه المرة وجلسنا تحت الشمس فقد كان البرد قارسا وانتهت أحاديثنا التى كانت سبب اللقاء ثم أستاذته فى الانصراف ، وبعد أن صافحتى الرئيس مودعا صاح فجأة : الله ! ده أنا نسيت أسألك عن أهم حاجة ! أنا عايزك تحكى لى بالتفصيل عن زيارتك ل طهران ومقابلتك للشاه ! أقعد وسأجعلهم يحضرون لك الغداء .

ورويت للسادات قصة الرحلة والمقابلة كاملة . ثم أخذ يتهاى على بالاسئلة التى تنطوى أحاديثها على ثناء من نوع أو آخر على شاه إيران . من نوع : ولكن ألم تلاحظ أنه خارق الذكاء ؟ أو : ألم تجد ثقافته واسعة ؟ ألم تجد أن فكره الاستراتيجى شديد التفوق .

كان السادات يسألنى بروح من الإعجاب الهائل عن شخص لم يكن يعرفه فهو لم يره إلا فى مؤتمر فى الرباط أيام عبد الناصر ، وتشاجرا وتبادلا الإهانات فى جلسة واحدة عامة للمؤتمر وانتهى الأمر !

وبدأت أقول للسادات أنه ذكى وكفء بلا شك ، ولكن السؤال هو فى أى شيء يستخدم ذكائه . فقد أدهشنى أن أجد طهران عاصمة البترول فى أحيائها الشعبية أفقر من القاهرة ! ومجاريها مازالت مفتوحة ! وقلت له إن طهران لأنها مرتفعة كانت فى عز الشتاء تحت درجة الصفر . وأرضها مغطاة بالثلوج . ومنظر الحفاة بملايس مهلهلة على الجليد كان أقسى على نفسى من نفس المختار لو رأيته فى تلال دافئة كمسكر ، واعترفت له بأن الدعاية الغربية الهائلة للشاه قد خدعتنى .

وقاطعتنى السادات قائلا فى اقتناع نهائى :

- اتعرف أننى أعتقد من زمان أن مثلى الأعلى بين كل زعماء العالم الثالث هو شاه إيران ؟ .

وأبدت دهشتى الشديدة بالطبع وتساملت عن الأسباب فاستطرد السادات قائلا :

- زعماء عدم الانحياز يتوقعك الذين ملئوا الدنيا ضجيجا منذ سنوات :

تهرو - وتكروما - وسوكارتو - وحتى عبد الناصر - وحتى تيتو التي لسه عايش .. أين هم الآن ؟ راحوا فين ؟ التي مات والتي انهزم والتي راح في انقلاب والتي انكمش داخل حدوده زى تيتو ! وأحد فقط من هذا الجيل وهذه المرحلة كلها باق على مقفده ، بكل سلطانه وهيلمانه ، والدنيا تسعى إليه ، هو شاه إيران .

وقبل أن التقط أنفاسي استطرذ يقول في حماسة :

- والسبب بسيط ، كل هؤلاء تصوروا أن في العالم قوتين عظميين هما روسيا وأمريكا ، وحاولوا التعامل معهما على قدم المساواة . والحقيقة غير ذلك تماما ، قهناك دولة عظمى واحدة هي أمريكا . وروسيا ليست حتى دولة عظمى ثانية - إنها تأتي بعد أمريكا بعشر أو بعشرين درجة - وبعدهما دول أوروبا واليابان إلى آخره - وقد كان شاه إيران هو الوحيد الذي أدرك هذه الحقيقة ، قام عمل إيه ؟ قعد على جحر أمريكا ، وهيسك في هدومها ! واديك شايك : كل أصحابك راحوا والشاه عملته أمريكا كل التي هو عايزه ! قامت ثورة وهرب إلى إيطاليا .. الأمريكيون جابوه ورجعوه وقعدوه على العرش لحد دلوقت علشان كده بقول لك إنتى اعتقد إنه راجل خارق الذكاء وغير عادى .

هذا الكلام الذى سمعته من السادات ، ظل من يومها محفورا فى ذاكرتى كالنقش على الحجر - إنه ليس كلاما عابرا . لقد وجدت فيه من سمعته أول شرح كامل لفلسفته السياسية ولرؤيته للعالم ، وكان هذا الكلام أول مؤشر واضح وصريح وقوى ، بدأ يجعلنى أتوقع اتجاهات السادات المقبلة . وقد كان ذلك كما ذكرت فى أوائل ١٩٧٤ ربما فى يناير بالذات . وجعلنى أيضا أتخوف من سياسات تنطوى على انقلاب كامل فى التوجهات ، وأخاف أن يكون السادات مقدما على قفزة هائلة نحو المجهول . فكسب أمريكا ليس بهذه البساطة ، وإن يكون بدون ثمن كبير ، فحتى إذا أردنا ذلك فإن الشاه بينه وبين أمريكا مصلحة كبرى هي البترول فوق ملاصقته للاتحاد السوفييتى ، فوق كونه حارسا للخليج ، أى أن كل الظروف تجعل أمريكا حريصة على إرضائه . فى حين أن بيننا وبين أمريكا مشكلة هائلة هي إسرائيل ، لاتوجد مشكلة مثلها فى العلاقة بين أمريكا وشاه إيران . وقد تطورت علاقة السادات بالشاه بعد ذلك كما هو معروف وعندما سقط الشاه لم يحتف ولم يتمسك به فى العالم إلا السادات ، لم أدهش كثيرا ، فقد كان هذا الحديث قبل علاقتهما المباشرة عالقا بذهنى طول الوقت - وفى تقديري - ومعلوماتي - أن السادات كان واثقا من أن أمريكا سوف تعيد الشاه إلى عرشه مرة أخرى ويكون هو الذى كسب الرهان .



خلال رئاستى لتحرير جريدة « الأهرام » سافرت مع الرئيس السادات إلى الخارج مرتين ، المرة الأولى كانت إلى الرباط ، حيث عقد آخر مؤتمر

قمة عربي حضره السادات ، وبالتالي آخر مؤتمر قمة عربي حضرته مصر .

كان هو المؤتمر الشهير الذي أعلن فيه قرار القمة بأن منظمة التحرير هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني . وكان أول مؤتمر يعقد بعد حرب ١٩٧٣ ، والعلاقات العربية بوجه عام يسودها التفاهم والانسجام ، وبالتالي كان جو البشر والابتهاج يسود جو المؤتمر وما حوله . وإن كانت لي تحفظات أساسية على هذا المؤتمر ولكن ليس هذا مجالها .

كان السادات قد اصطحب معه وفدا كبيرا . كان هناك السيد ممدوح سالم والمشير عبد الغنى الجمسى والمرحوم حافظ بدوى وكثير من الصحفيين والمراقبين . وبعد نهاية المؤتمر ، اتجهنا نحن الصحفيين الى المطار لنعود على الطائرة مع الرئيس وسائر مراقبيه . وكان هناك بالمطار « أبو عمار » وفي انتظاره طائرة أخرى : وكان كل من الرئيس السادات وأبو عمار ذاهبا الى الجزائر ، السادات في زيارة رسمية وأبو عمار في إحدى رحلاته العادية . وقبل الاقلاع بدقائق ترك أبو عمار طائرته وركب الطائرة المصرية مع السادات .

وبعد أن أقلعت بنا الطائرة ، استدعاني الرئيس السادات من حيث اجلس بين زملاء الصحفيين ، لكي اجلس الى جواره خلال مسافة الطيران من الرباط الى الجزائر . حيث كان سينزل هو ونمضي نحن بالطائرة الى القاهرة .

جلست بجوار الرئيس السادات وأمامنا كان يجلس أبو عمار وبيننا وبينه مائدة ، أي مسافة لا تسمح له بأن يسمع ما نقول . وتبهرت بما يشبه الود المفقود بين الرجلين . فلم يتبادلا كلمة واحدة طيلة الرحلة . وانصرف السادات يتحدث الي ، يحيطني علما بما جرى في اجتماعات القمة المطلقة ، واستفسر أنا منه عما أريد . وانتهى لا أنكر كلام السادات اليوم جيدا : كحديثه عن كيف مقرر اعتبار منظمة التحرير هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني في دقائق ، وحديثه عن أنه لم يطلب أية مساعدات مالية ، وكيف ان السوريين هم الذين طالبوا بمساعدات مالية . وطالبوا بأن أية مساعدات مالية تقرر يجب ان تقسم مناصفة بين سوريا ومصر . وكيف انه لم يتدخل بأي كلمة في كل ذلك . وأشياء أخرى لا أرى ان هذا مجال سردها ، انما تستوقفني الآن واقعة واحدة ذات دلالة .

فقد قال لي السادات : إن كل الملوك والرؤساء العرب بلا استثناء قد زاروه واحدا واحدا ، وابدوه مائة في المائة على سياسته منذ حرب ١٩٧٣ وما بعدها من عمليات فك الاشتباك ، وغير ذلك . ثم استدار السادات



هامسا في اذني : لكن يا اخي فيه حاجة غريبة قوى ! كل ملك او رئيس زارنى كان يعبر عن تأييده لى ، ثم يقول لى « بس ياريس لازم تخلى سوريا دائما فى ايديك » ما فيش واحد ما قالش هذه الجملة بالضبط ، معناها ايه دى ؟ معناها الوحيد ان حافظ الاسد هو اللى قال لهم يقولوا لى الاشارة دى ! ومعناها ان حافظ الاسد متشكك فى استمرار تحالفنا معه ، وانه داير يشكك الآخرين ! هل هذا كلام عاقل ؟ هل يمكن ان يخطر على بال احد ان مصر بعدما اشتركت مع سوريا فى الحرب ، تسببها ؟ وتسببها وتروح قين ؟ !

أدهشتنى هذه الواقعة كما أدهشت الرئيس السادات ، ولكنها ظلت عالقة فى اذنى . حتى مرت سنوات ، واختار السادات طريق الحل المتقرب بعد خلافه مع حافظ الاسد حول زيارة القدس ، وكنت اقول ان حافظ الاسد كان إذن يخشى ان يترك بمفرده منذ ذلك الوقت البعيد . فهل كان هذا من باب الشك السياسى الطبيعى ، أم كانت لذى حافظ الاسد معلومات او إشارات تتوقع اتجاه السادات ، قبل ان يفتبه احد منا الى ذلك ؟ !



الرحلة الثانية كانت الى رومانيا وبلغاريا . اذ اتصل بى السيد حسن كامل رئيس الديوان الجمهورى تليفونيا وسألنى اذا كنت أرغب فى السفر مع الرئيس فى تلك الرحلة أم لا . وقلت له : هل هذه دعوة أم مجرد عرض ؟ فالرئيساء يطلبون الى الصحفيين السفر معهم ولا يسألونهم عن رغبتهم .. فقال لى السيد حسن كامل : بصراحة الرئيس ، كان عايز يسافر لوحده . لكن الأستاذ على أمين يلح بشدة على مرافقة الرئيس .. وقد قال لى الرئيس ان أسالك اذا كنت جاهزا للسفر فيسافر كلاكما معه أو لا يسافر معه أحد . فقلت له : انا جاهز اذا قرر الرئيس ان يسافر أو قرر ان يبقى ..

وكان الرئيس قد قال لى من قبل انه يريد ان يقابل « جيفكوف » رئيس بلغاريا لأنه اقرب الزعماء الى القيادة السوفيتية ، وذلك فى محاولة اخيرة لتحسين الموقف بين مصر والاتحاد السوفيتى ، وانه يريد مقابلة « شاوشيسكو » لأنه على صلة وثيقة بقيادة اسرائيل ويريد ان يقوم بدور فى حل النزاع العربى الاسرائيلى .

وأذكر ان الرئيس وقتها - مبررا ذهابه الى « جيفكوف » - تحدث طويلا عن شخصيات القيادة السوفيتية وتعذر التفاهم معهم . وصب جام غضبه على « بودجورنى » و « بونوماريوف » والغريب انه قال لى يومها : دول كلهم موظفين بيروقراطيين ما يفهموش فى السياسة ، الوحيد اللى يفهم فى المكتب السياسى ، الراحل اللى اسمه « اندروپوف » . كل ما نتعب معهم القول « كلموا اندروپوف » وهو يفهم علينا على طول ويتصرف ويمشى الامور .

وبومها سألته : مش « اندروپوف » ده بتاع ال « كى - جى - بى » اى رئيس المخابرات السوفييتية ؟

ورد السادات قائلا : « أبوه ، لكن فى النظام الروسى رئيس المخابرات ده مش ضابط بوليس .. انما لازم يكون مسئول سياسى على أعلى مستوى ! وهو فعلا السياسى الوحيد اللى شفته فيهم !

وقد تذكرت هذا الحديث بعد سنوات بل وبعد اعتقال السادات ، عندما أصبح « اندروپوف » سكرتيرا عاما للحزب الشيوعى السوفييتى خلفا لبريجنيف وكتبت يومها هذا الحوار مع السادات عن « اندروپوف » ، الذى كان اختياره مفاجأة فى جريدة « الشرق الأوسط » ، وفعلنا فقد اثبت « اندروپوف » فى الفترة القصيرة التى عاشها رئيسا للاتحاد السوفييتى كفاءة سياسية هائلة فقد اربك أمريكا باقتراحاته المتوالية حول نزع الصواريخ من أوروبا . وكان هو الذى اتخذ قرار الدعم إلى أقصى حد لسوريا بعد هجوم إسرائيل على لبنان ، بعد أن تميزت سياسة روسيا بالبرود والجمود أواخر عهد بروجنيف نحو قضية الشرق الأوسط منذ كامب ديفيد ، وهو الذى وضع فى المكتب السياسى وجوها جديدة تستهدف التغيير والتجديد ومن بينها « جورباتشيف » الزعيم الحالى للاتحاد السوفييتى الذى يسير على سياسته تماما .

ولم تر السادات عن قرب طيلة الرحلة الى البلدين إلا مرة واحدة فى بلغاريا ، إذ أرسل يستدعينا - على أمين وأنا - من الفندق الذى يقيم فيه الرئيس وجلسنا معه منفردين جلسة طويلة شاركنا فيها بعد قليل السيد إسماعيل فهمى وزير الخارجية فى ذلك الوقت .

كان السادات مجهورا بالنظافة والنظام فى بلغاريا وارتفاع مستوى المعيشة البادى من الصحة التى يتمتع بها الناس فى الشوارع والملاهي التى يلبسونها ، وكان واضحا ان السادات كان تحت تأثير الوهم الشائع أن بلاد شرق أوروبا أفقر بلاد العالم ، وحيث أن بلغاريا أفقر شرق أوروبا فلعله تصور أنه سيجد مستوى الحياة فيها كمستوى الحياة فى أحيائنا الشعبية !

وسألتى عن ملاحظاتى . فقلت له ضاحكا أول الأمر اننى سأحتفظ بها حتى لايمنعنى من كتابتها فى « الأهرام » بعد أن أعود . وقال لى : قول وعليك الأمان !

قلت له إن السيد إسماعيل فهمى كان فى جلسة مباحثات أمس مع الجانب البلغارى ، وعندما عاد إلى الفندق فى ساعة متأخرة كان فى قمة الغضب ، وروى لى أنه وزير خارجية ويعرف جيدا الموضوع الذى

سيحدث فيه مع البلغاريين . ولكن بعض زملائه من الوزراء طلبوا إليه أن يطلب إلى البلغاريين مطالب اقتصادية : تسهيلات ائتمانية ، قروضا ، صناعات زراعية تشتهر بها بلغاريا .. الخ .

وعندما فتح إسماعيل فهمي هذا الموضوع فوجيء بالبلغاريين يقولون له : ولكن لديكم تسهيلات ائتمانية يبلغ كذا مليون منذ كذا سنة وستسقط بعد أيام لأنكم لم تستخدموها ! وفي ميناء « فارنا » لكم آلات مصنع كذا معبأة في الصناديق منذ زمن ونحن نطالبكم بتسلمها ! وقد أقمنا لكم « مجزرا أليا » في مدينة كذا في مصر ولكنه متوقف عن العمل منذ شهرين لأن الكهرباء لم تصل إليه !

روى لي إسماعيل فهمي في تلك الليلة السابقة وهو في قمة الغضب على الوزراء الذين لا يعرفون ما بين مصر وبلغاريا من اتفاقات ، ويضعونه في هذا الموقب الحرج .

رويت ذلك للرئيس السادات في وجود إسماعيل فهمي وعلى أمين . وسأل الرئيس إسماعيل فهمي عن صحة هذا الكلام .

وقلت للسادات : اننى اثير هذا الموضوع لأن السيد إسماعيل فهمي مسافر بعد الرحلة مباشرة الى « بون » حيث سيرأس وفدا من عدة وزراء مصريين يبحثون مع ألمانيا الغربية ما يمكن ان تقدمه لنا من مساعدات مالية وفنية . وأخشى ان يذهب وزراءنا دون حملة مدروسة مسبقا ودون معرفة لما لنا وما علينا بالضبط .

والتفت السادات الى إسماعيل فهمي وسأله : ألم تجتمعوا في مصر لترتيب هذه الأمور قبل ان تلتقوا في بون ؟ ورد عليه إسماعيل فهمي قائلا : اجتمعنا برئاسة الدكتور عبد العزيز حجازي ، ولكن بصراحة ، كان بعض الوزراء دارسا لموضوعاته ، وبعضهم ليس كذلك .

وقلت للرئيس اننى فتحت هذا الموضوع عمدا لكي اثير ما هو أهم ! فهذه الحالة مع دولة بلغاريا الصغيرة متكررة بيننا وبين دول كثيرة من اليابان شرقا إلى أسبانيا غربا ! ومعلوماتي من مصادر التخطيط في مصر ان تحت تصرفنا قروضا وتسهيلات ائتمانية تصل إلى ٩٠٠ مليون جنيه ، ولكننا لا نستعملها وبعضها يسقط حقا فيه بمضى المدة !

واستذكر السادات ذلك . وقلت له ان هذه معلومات حقيقية وهذا هو ما كنت أنوى ان اكتب عنه في « الاهرام » بعد عودتي من وحي ما حدث للسيد إسماعيل فهمي بالأمس .

وقلت للسادات اننى اتصور ان الامر يحدث ببساطة على هذا النحو : يذهب وزير لنا في رحلة رسمية أو ياتينا وزير من الخارج ، فيعقد الوزير المختص اتفقا ماليا أو اقتصاديا مع هذه الدولة أو تلك . ويتغير الوزراء لدينا كثيرا والادارة الادارية لدينا لا تتميز بالاستمرار والمتابعة ، فتتسى بعض الاتفاقات ، وتغير في الادراج ، والسبب انه ليس لدينا في

الواقع التخطيط يعكس ما تردده في الصحف ، وقد يكون من الواجب أن يحضر أي مباحثات اقتصادية مندوب من وزارة التخطيط حتى تكون الأشياء كلها مجموعة ومنسقة في مكان واحد ، أو تلزم كل وزارة بإبلاغ وزارة التخطيط بما لديها . فنحن الآن مثلاً لدينا تسهيلات وقروض غير مستعملة ونرسل عشرات الوفود بحثاً عن تسهيلات قروض جديدة ! وقال السادات لاسماعيل فهمي : من الآن عليك أن ترتب ألا يسافر أي وفد اقتصادي إلا ومعه وزير التخطيط شخصياً . وكان وزير التخطيط وقتها هو الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله . وعندما عدنا إلى مصر ، كتبت بالفعل مقالا في الصفحة الأولى من « الأهرام » حول هذه القضية .

ولادبري كيف نشب في هذه الجلسة ذاتها حديث جاد عن الصحافة في مصر ، وقال المرحوم علي أمين إن ثلاثين سنة لم تنجب صحفياً واحداً وأن الصحفيين الشبان لا تنفع منهم ولا يصلحون لشيء ، وقلت رداً على ذلك إن هذا غير صحيح على الإطلاق ، وإن إطلاق كلمة « الصحفيين الشبان » على كل صحفي ليس رئيساً للتحريض كلمة مضللة وقلت للسادات : ياريس الذين تسموئهم « صحفيين شبان » بلغوا الأربعين والخمسين من العمر ولا يلبسون الينطونات القصيرة : فيهم الذي أصبح اصليح ، والذي أه كرش ، والمصاب بمرض السكر ، وأولادهم طلبة في الجامعات ! ولكنك لا ترى إلا رؤساء مجالس الإدارة ورؤساء التحرير ، اننى اسميهم الصف الثانى والصف الثالث ، الخ وأنا مستعد أن اكتب لك الآن أسماء عشرين صحفياً كل منهم يصلح أن يكون رئيساً لتحرير جريدة أو مجلة ، ولكن المسألة ببساطة هي أن الفرصة يجب أن تتاح لهم وسوف ينجح نصفهم علي الأقل !

وأذكر أيضاً من هذه الجلسة اننى ذكرت الرئيس بموضوع سبق أن تناقشنا فيه ، وهو خلق جهاز الرئاسة إلا من رجال الأمن ، ورجال البروتوكول ! ولا توجد مكاتب فنية ولا حتى موظف فني واحد ، وضربت مثلاً بهذه الزيارة لبيلغاريا ، فقبل أن يسافر رئيس الدولة إلى بلد آخر ، يجب أن يعد له « دوسينه » وأوم من ورقة واحدة فيها خلاصة علاقتنا معها : سياسياً ، واقتصادياً ، والاتفاقات المبرمة بيننا ، وعدد طلابنا الذين يدرسون فيها .. الخ ..

وكنت أحدث السادات في هذا المعنى كثيراً ، ولكنه كان يضيق ذرعاً بالورق ، وبالعامل المنظم ، وكل محادثاته الدولية شفوية لامحاضر بها ، محققاً بأسرارها لنفسه ، ولا يعمل إلا بالتيقون .

## الانفتاح

هبّت رياح الانفتاح على مصر ، وكلمة "الانفتاح" من اكثر الكلمات التي اثارت ومازالت تثير الجدل الحثيف في مصر ، وفي تقديرى ان سبب الكثير من المجادلات يرجع الى ان كلمة "الانفتاح" تحتمل انواعا كثيرة من التطبيقات العملية . وهى كلمة ليس لها تعريف واحد ودقيق فى القاموس الاقتصادى . كما ان لس "الانفتاح" و "الانغلاق" معانى نسبية . فلم يكن هناك قبل تلك فى تقديرى "انغلاق" بالمعنى المطلق كما يحدث فى المعسكر الشرقى مثلا ، ولكن أى بلد يقرر ان يبني لنفسه اقتصادا له درجة من الاستقلال ، وصناعات جديدة ، يجب حمايتها حتى تقف على قدميها ، لابد له من ان يوصد الباب فى وجه أنواع من السلع الكمالية ويوجه أقصى ما يمكنه من دخله القومى نحو التنمية ، ويقلل قدر الطاقة من النزعات الاستهلاكية . وكلمات "الاعتماد على النفس" و "ربط الاحزمة" و "التقشف" وغيرها هى انواع ودرجات من "الانغلاق" . ومن الشائع ان نقرا لكثائنا وهم يتغنون بالانجليز الذين تقشفوا خلال الحرب العالمية وبعد الحرب العالمية بسنوات طويلة ، وكيف ان الانجليز لم يكن مسموحا له فى الاسبوع إلا ببيضة واحدة وبكذا قطعة من السكر .. الخ ، فاذا جئنا الى مصر صرخ الكتاب انفسهم اذا سمعوا باختفاء سلعة لا تهم اكثر من واحد فى المائة من الناس .

هكذا عندما ركزنا فى الخمسينيات والستينيات على التصنيع والمشروعات الكبرى . كانت هناك مثلا قيود على السفر للسياحة فى الخارج ، ولكن سافر لأول مرة عشرات الالاف من الشباب للدراسة فى كافة المجالات من موسكو الى كاليفورنيا ومن خبراء علوم الذرة ، الى "الاسطوانات" والعمال للتدريب فى المصانع فى ألمانيا الغربية وغيرها . ولولم نتقشف ونركز على التصنيع والانتاج فى الخمسينيات والستينيات لداهمتنا فى السبعينيات والثمانينيات بمشاكل زيادة اعنف مما نواجهه الآن .

وها نحن الآن في حالة "انغلاق" ثانٍ ، ولا ينطق أحد من فرسان فلسفة الانفتاح ، مع قارق أن "الانغلاق الأول" كان اختيارياً لبناء الصناعة ، والانغلاق الثاني كان اختيارياً ، تحت وطأة ديون الانفتاح العشوائي ، وفي سنة ١٩٧٤ ، القى اتحدث عنها هنا ، كانت تدور بيني وبين الرئيس السادات مناقشات كثيرة حول هذا الموضوع .

كانت الصحف تخرج علينا كل يوم بعد تحرب اكثوبر تبشرنا بالآلاف ملايين الدولارات التي تهطل علينا - أو ستهطل علينا - من البلاد العربية والأوربية وأمريكا . ولعل السادات كان حريصاً على تأكيد فكرة اقتران السلام المقبل بالرخاء العميم ، وقد بدأ يكرر هذه المعاني في خطابه في السنوات التالية ، فأخذت هذه الأموال تتحول إلى مجالات الاستهلاك بسرعة هائلة .

كان تقديري الذي كنت أعبر عنه دائماً للرئيس السادات أن جو الانتصار بعد حرب اكثوبر ، هو أحسن جو لأن تطلب الدولة من الناس ربط الأزمات والصبر ثلاث سنوات مثلاً ، نوجه فيها هذه التبرعات والمساعدات والقروض والتسهيلات في اتجاه الاستثمار الانتاجي وإصلاح ما أهمل منذ ١٩٦٧ ، فيكون ذلك أساس رخاء حقيقي يتزايد بعد ذلك ، ولكن السادات كان متعجلاً في توزيع ما اعتبر أنه ثمار النصر ، وكانت له طرق غريبة في تبسيط عقد القضايا الاقتصادية وعقد مقارنات بالغة الطرافة .

أذكر مثلاً ، أن الصحف نشرت أنه تقرر إقامة ثلاث مناطق حرة في الاسكندرية وبورسعيد والسويس . وفي أحد هذه الحوارات قلت للرئيس إن فكرة إقامة منطقة حرة فكرة جيدة . خصوصاً إذا كانت منطقة حرة بالمعنى

المصحيح : تقام فيها صناعات محلية واجنبية للتصدير وتقام بها مخازن للشركات العالمية الكبرى ، وخدمات للصناعة والاستيراد والتصدير ، الخ . ولكن إقامة ثلاث مناطق حرة مرة واحدة خطأ كبير ، فنحن ليست لدينا تجربة سابقة في المناطق الحرة وإقامة منطقة حرة تحتاج إلى أموال وإلى خبرات . ثم إن طرح ثلاث مناطق حرة على العالم في وقت واحد سوف ييخس ثمنها لكثرة المعروض . وقد تتحول إلى مناطق للتهرب في الدرجة الأولى . فلماذا لا نبدأ بمنطقة حرة واحدة ، حتى تستوفي شروطها وتعتلى بما نطمح إليه من نشاطات ، ثم نعلن على ضوء التجربة عن منطقة حرة ثانية ، وهكذا ؟

ورد على السادات قائلاً : انفي اتعجل اليوم الذي تصبح فيه مصر كلها منطقة حرة !

- أراي باريس ؟

- ألا ترى الرخاء والنجاح في هونج كونج وسنغافورة وغيرها . وكان عبثاً محاولة شرح الفرق بين مدينة حرة وبين دولة طويلة عريضة ، إلى آخر ما يدخل في ألف باء الاقتصاد .

وهذا النوع من المقارنة يذكرني بالحديث الذي دار بيننا بعد ذلك بسنوات وكان السادات قادما من إحدى رحلاته من النمسا وزيارته لكرايسكي ولا أذكر الآن مجرى النقاش ولكني أذكر كيف قاطعتي السادات فجأة ، قائلا : أليست النمسا دولة اشتراكية ؟ أليس كرايسكي زعيما وجاكما اشتراكيا ! أنك كما أعرف زرت النمسا . ولأنك أنك أكلت في مطاعم القراخ المشوية في ضواحي فيينا . هل يوجد في العالم فراخ من حجم القراخ هناك ؟ أنا أريد أن أقيم في مصر اشتراكية كاشتراكية النمسا !! :

وكان صعبا أيضا شرح الفوارق بين ظروف النمسا وظروف مصر ، وإن فيينا وريثة قرنين كعاصمة لامبراطورية الهابسبورج إحدى أغنى امبراطوريات أوروبا ، وبين مصر التي قضت تلك القرون تحت حكم الأتراك ثم الاحتلال الانجليزي . كنت وقتها أخذ هذه الأقوال مأخذ ما أعرفه من استعداده الطبيعي للانبهار السريع ببريق هذا الشيء أو ذاك . استدعاني الرئيس السادات يوما إلى استراحته في المعصرة وقال لي إنه قرر أن يترك منصب رئاسة الوزارة وأن يعين الدكتور عبد العزيز حجازي وزير الخزانة وأحد نواب رئيس الوزراء ، في منصب رئيس الوزراء . وكان الصراع حول هذا المنصب يشتد منذ انتهت حرب أكتوبر وفك الاشتباكين الأول والثاني ، توقعا لأن الرئيس السادات لابد سيتخلي عن رئاسة الوزارة في أية لحظة .

لم أفاجأ بالقرار . فقد كان الرئيس السادات كلما جاءت مناسبة أخذ يمدح بحماسة الدكتور عبد العزيز حجازي ويردد قوله « ده راجل عجيب ا ده مخه فيه كمبيوتر .. عارف وفكر كل حاجة ا » وقال لي السادات : أريدك أن تكتب لي خطابا أوجهه إلى حجازي بتكليفه بتشكيل الوزارة الجديدة .

وتبعت الرئيس إلى أن تقلد كتابة خطاب بتكليف شخص بتشكيل الوزارة وقيام رئيس الوزارة المكلف بكتابة خطاب بقبول التكليف كان هو الطريقة المتبعة بين القصر ورؤساء الوزارات قبل الثورة ، وأنه منذ ١٩٥٢ جرى العمل على أن يصدر قرار جمهوري بتشكيل الوزارة الجديدة مباشرة .

وقال لي السادات : أنا عارف لكن أولا أنا عايز أرجع التقليد القديم ( أظن أنه لم يكرر ذلك بعد تلك المرة ) . وثانيا : أصل عبد العزيز حجازي "ظهره خفيف" .

وسأله عن معنى هذا التعبير الريفى فيما أظن الذي كنت أسمعه لأول مرة ، وقال لي : يعنى يتفرز وينزعج بسرعة ، وهناك ناس كثير حتكون ضل اختياره وأنا عايز تكتب لي خطاب تكليف يحدد مهام الوزارة من ناحيته . ويورى كل الناس أنى بأسند حجازي بكل قوة . وتركتني فترة كتبت فيها مشروع خطاب التكليف ، ثم عاد وقرأ المشروع

ولم يزد عليه فيما اذكر إلا كلمة "كاملة" حول تطبيق سياسة الانفتاح .  
وهذا هو نص الخطاب .

"السيد عبد العزيز حجازي .

"تعلمون كما يعلم شعبنا . . اننى كنت قد أخذت على عاتقى مسئولية  
رئاسة الوزارة الى جانب منصبى كرئيس للجمهورية منذ أن صار قرار  
القتال من أجل تحرير الأرض نهائيا ذلك كى أتحمّل المسئولية عن هذا  
القرار . كاملة أمام الشعب . وأمام التاريخ .

"ولقد مَنَّ الله علينا بالنصر فى حرب أكتوبر واعدنا لشعبنا والأمة  
العربية كلها هبتها وكرامتها . واليوم وقد عرفنا طريقنا الى حل قضية  
العدوان بالسلم أو بالحرب . وبعد أن قرأ الشعب ورقة أكتوبر التى تضمنت  
أهدافنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية العامة .

"وبعد أن بدأنا فى تطبيق سياسة الانفتاح الاقتصادى فى إطار مبادئنا  
الاساسية من جهة وادراكنا للمتغيرات الدولية من جهة أخرى .

"وبعد أن تم وضع الخطة العاجلة للتنمية وبدأنا بالفعل فى مهمات  
التعمير الكبرى .

"فقد رأيت أن أعهد إليكم برئاسة الوزارة حتى تأخذ السلطة التنفيذية  
وضعها الطبيعي وتتحمّل مسئولياتها المرسومة بين سائر المؤسسات  
الدستورية .

"وفى تقديري ان الوزارة التى سوف ترأسونها عليها أن تنجز المهام  
التالية :

"أولا : ألا تكف عن وضع مرافق البلاد ووضع المواطنين فى موضع  
الاستعداد المستمر للقتال . فالمعركة لم تنته بعد ولابد أن يكون هذا فى  
حساب الدولة والشعب على الدوام وفى تقديرنا لكل الظروف والقرارات .  
ثانيا : أن تعمل الوزارة يهدى من ورقة أكتوبر التى أقرها الشعب فى  
استفتاء عام والتى حددت معالم الطريق للعمل الوطنى فى المرحلة المقبلة  
من أجل التقدم والبناء .

"ثالثا : أن تركز على تنفيذ خطة التنمية القصيرة الأجل التى تم وضعها  
بعد إقرارها من مجلس الشعب وفى المواعيد المقررة لها دون تأخير . إنها  
خطة ( العبور الثانى ) الى مجتمع الرفاهية والكفاية والعدل .  
"وفى هذا المجال لابد أن تعمل كل أجهزة الدولة بأقصى طاقاتها ،  
ولابد من إزالة المعوقات الادارية والمجاسبة فى حزم على أى تهاون أو  
تقصير .

"رابعا : أن تضع الوزارة سياسة الانفتاح كاملة موضع التطبيق بحيث  
تنطلق جهود المواطنين الخلاقة وتتوافر الثقة والتسهيلات اللازمة للأطراف  
التي تتعاون معنا دون قيد سوى أن يؤدى المواطن للدولة حقها الذى فنص  
عليه القوانين هيفترن بذلك توفير الحافز بإقرار الواجب المترتب عليه .



"خامساً : أن تهتم الوزارة الى جانب توفير متطلبات المعركة والتنمية بتجنيب شعبنا قدر الطاقة وطاقة موجة الغلاء العالمية التي تؤثر على الاسعار في كل مكان وذلك بالموازنة بين متطلبات المعركة والبناء وبين ضرورة توفير مستوى المعيشة المقبول لأوسع الجماهير من فئات شعبنا المكافح .

"سادساً : اننا ونحن نطلق الحريات ندعو الى الانفتاح لا بد أن يكون للقانون هيئته والعمال العام حرمة والمرافق والخدمات نزاهتها وهذا يتطلب من الوزارة أن تؤكد دائماً على الطهارة الثورية شرطاً لتحمل المسؤولية ومزاولة أي نشاط ، فلا يكون هناك انحراف أو استغلال غير مشروع وذلك بترشيد الأجهزة وتوحيد جهات الرقابة والاخذ بالسرعة والحسم في الثواب والعقاب معا ، ولست اشك في انك وزملاؤك قادرين على القيام بأعباء هذه المهام وأداء واجبات المرحلة في التجاوب والتفاعل الصحيين كسلطة تنفيذية مع سائر المؤسسات والسلطات الشرعية في البلاد .  
وفقك الله وزملاؤك والسلام عليكم ورحمة الله ..

توقيع : رئيس الجمهورية

٥

هكذا كان الدكتور عبد العزيز حجازي أول رئيس للوزارة بعد حرب ١٩٧٣ وفي بدايات مرحلة جديدة تؤذن بتجولات كبرى في مصر . وكان الدكتور عبد العزيز حجازي هو الذي أصدر قانون الانفتاح ( قانون استثمار المال العربي والاجنبي والمناطق الحرة رقم ١٧٤ لسنة ١٩٧٤ ) .

وكما قلت ، كانت عواصف الانفتاح قد هبت بالفعل قبل وزارة حجازي وقبل صدور هذا القانون . فقد هجمت على البلاد شتى أنواع السلع الاستهلاكية ، وبدأت تظهر أولى فصائل المستثمرين الجادين كما ظهر النصابون المحليون والدوليون المعروفون ، ودارت كل أجهزة الاعلام ، مرئية ومسموعة ومقروعة ، تندد بما سمي «فترة الانغلاق» وتهاجم كل مشروع وطني اقيم في مصر ابتداء من السد العالي إلى اصغر المشروعات ، ووصل الامر الى حد تحقير كل ما هو مصري ، والتهويل على الناس بمزايا كل ما هو اجنبي ، حتى العلبات المستعملة التي بدأ التجار يجلبونها من الخارج ويبيعونها للناس حاملة الكلمة السحرية الجديدة ، وهي انها "مستوردة" .

وكتبت في الصفحة الاولى من "الامرام" مقالا أثار ضجة واسعة وعلامات استفهام ، على أساس أن "الاهرام لا يمكن إلا أن يعبر عن سياسة الدولة . وكان عنوان المقال هو "الانفتاح ليس "سداح مداح" . وهو المقال الوحيد الذي أنتشر هنا كاملاً لأنه يعطي فكرة عن الجو السائد في ذلك الوقت ، ( بتاريخ ١٢ يوليو ١٩٧٤ ) هذا نصه :

« بعد قضية تحرير الاراضي العربية ، التي مازالت قائمة ومستمرة ، لا توجد قضية تبلغ في ضرورة متابعتها ، قضية الانفتاح .  
ومستويات مناقشة هذه القضية كثيرة . فهي يمكن أن تناقش على المستوى العالمي ، وما هو حادث من ظاهرة تبادل الخبرات ، واستثمار ظاهرة تبادل الخبرات ، واستثمار رؤوس الاموال ، وتسهيل التجارة بين دول الشرق والغرب ، بأشكال مختلفة طبعاً ، ولكن تبقى لها دلالتها السياسية والاقتصادية العامة . الدلالة السياسية أن الرأسمالية في نموها وصراعها لم تعد قادرة على تجاهل الاسواق والامكانات الضخمة في روسيا والصين مثلاً ، وأن الدول الشيوعية وقد بنت قاعدتها الصناعية وسط الحصار الدولي أصبحت تسعى الى اكتساب الموارد والمعرفة التكنولوجية لقطع طريق التقدم بسرعة أكثر ، وآخرها عقد مجموعة الشوكات الامريكية الذي وقعته "هامر" في موسكو لاستثمار ٢٠ الف مليون دولار في مجالات شتى ، فيما وصف بأنه اكبر عقد في التاريخ . والدلالة السياسية أيضاً ما يسميه كينستجر "الاعتماد المتبادل" الذي يعمق السلام بأكثر مما تعمقه المعاهدات .

وهناك المستوى العربي ، وهل يا ترى بذلت كل الجهود من اجل استثمار اكبر قدر من المال العربي من جهة والطاقت البشرية العربية من جهة أخرى في مشروعات مشتركة تجعل العالم العربي ، حقاً اقرب الى أمل الوحدة ، وتجعله ، كما يتوقع بعض المراقبين الاجانب ، « القوة العظمى السادسة » هذا اذا لم تختل توقعاتهم كما فعلنا في حالات كثيرة .

ثم هناك المستوى المصري وهو ان كأن يتصل بنا مباشرة ، إلا انه لا مفر من ان نسجل أن مصر كانت دائماً رائدة في محيط واسع حولها .. ولنقل حتى لا يكون هذا تباهياً غير موضوعي إنها رائدة بصوابها وأخطائها فأتى تجربة في مصر ، تتسرب الى الدائرة الاوسع ، عربياً بل واسيوريا وأفريقيا .

ونحن نخوض تجربة جريئة ، علينا أن نحسبهم بدقة حسابات حرب أكتوبر .

لقد صدرت ورقة أكتوبر . ثم صدر استثمار رأس المال المصري والعربي والاجنبي . ولكن هذا لن يمنع المناقشات والتفسيرات والاجتهادات .

وفي البدء ، ظن بعض الناس أن سياسة الانفتاح معناها ان تصبح مصر الاقتصادية والاجتماعية "سداح مداح" ، كل شيء فيها مباح . وكانت خلاصة هذا الرأي ، اذا جردناه من التحفظات الكلامية الشكلية ، هي الأخذ قورا بنظام الاقتصاد الحر الكامل ، الذي لم يعد موجوداً إلا في كتب الاقتصاد القديمة ، فالعالم الرأسمالي ذاته يعرف البنوك والصناعات الكبرى التي تملكها الدولة - إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وغيرها - ويعرف

حقوق العمال والتأمينات المختلفة ، ويعرف قوانين منع الاحتكار ، ويعرف أساليب الحماية من المنافسة الأجنبية . ولم يعد قول زعيم اليمين الأمريكي جولد ووتر قبل عشر سنوات « إن الفقير مسئول عن فقره ولا حل له ، كما أن من ولد بقدمين كبيرتين لا يمكن له تغييرهما » .. لم يعد هذا واردا . فقد أزاحه هذا القول في أمريكا ذاتها من مرشح قوى للرئاسة إلى هامش المسرح .

ولم يدرك دعاة "السداد مباح" وكل شيء مباح" أنه حتى الرأسمالية الوطنية يهددها هذا المنطق ، فالأقتصاد الحر بمعناه المطلق أن البقاء للأقوى . وبالتالي فلن أقيم في مصر غدا مصنع أجنبي ضخم متقدم لصناعة الأحذية مثلا ، فهو كفيل بأن يغلق أكثر من عشرة آلاف ورشة أحذية يعمل فيها عشرات الآلاف من المصريين . لابد أن يجيء يوم طبعنا تدخل فيه الآلات الحديثة التي تنتج الرخيصة ولا تستخدم إلا القليل من اليد العاملة . ولكن السؤال هو متى وكيف وفي أي إطار حتى لا تحدث خلخلات اجتماعية مبالغ فيها وخطيرة وليس هدف الانفتاح هنا أن يكتب أحد ذات يوم ما كتبه لورد كرومر متباهيا بعد سنوات من احتلال مصر .. لقد اختلفت الصناعات المحلية من الأسواق وصارت السلع الأوروبية في كل مكان !

ولم يدرك دعاة "السداد مباح" وكل شيء مباح" أنه حتى الدول الرأسمالية الغنية ، كانت إذا شعرت ببؤس داخل في اقتصادها الوطني تسرع إلى إجراءات الحماية بصور شتى ، فعلمتها أمريكا ضد أوروبا واليابان حين ضعف الدولار في أواخر حرب فيتنام ، وعمدت إنجلترا ثم فرنسا ثم إيطاليا إلى إجراءات حماية منقذة مخالفة لقوانين السوق المشتركة بمجرد احساسها بالخطر : تارة بتخفيض العملة ، وتارة بفرض رسوم جمركية عالية على استيراد بعض السلع ، ورغم كل الانفتاح في العالم ، نحن نمرق نفس الوقت بمرحلة من "الوطنية الاقتصادية" التي يمارسها الجميع ربما لموازنة معطيات الانفتاح الجديدة .

وقد أخذنا نحن بسياسة الانفتاح في وقتها المناسب . فقبل الثورة كان البلد مفتوحا تماما ولكن لم يأت إلينا شيء يذكر وقتها لم يكن المال القانص متوافرا بهذه الدرجة . المال الغربي الشرقي مكرس لاصلاح ما خربته الحرب هناك . والبترول العربي إيراداته بسيطة ولا سيطرة لاصحابه عليه وكنا بلادا ضعيفة محاطة بالاستعمار ، والمال مازال يحمل معه السيطرة السياسية . ثم لم يكن لدينا ما خلقته حركة التصنيع عن طريق القطاع العام من صناعات اساسية كبرى ومن خبرات فنية واسعة .

وهذا عنصر هام يشجع الاستثمار وليس العكس . فالمال حتى الآن يفضل الاتجاه إلى حيث تتوافر هذه الامكانيات والطاقات بدرجة أكبر ، بينما يتردد طويلا في الذهاب إلى حيث لا توجد الطرق والموانئ والقدرات المحلية والعمال المهرة والخبراء .. أي ما يسمى "بالمقابل المحلي"

ولعل هذه النقطة الأخيرة تقودنا الى تسجيل بعض الملاحظات ، أو  
العناوين ، حول مرحلة الانفتاح الحالية في مصر :

● أن هذا المقابل المحلي اساسى جدا لنجاح الانفتاح . ولذلك فوضع  
خطة لتوفير المرافق الاساسية ، واستكمال كل طاقات القطاع العام ،  
واعطائه فرصة الانطلاق على اسس اكثر اقتصادية ، أمر اساسى ، لأنه من  
هنا نزيد "قدرتنا على استيعاب" المشروعات الجديدة .

● إننا يجب أن نشرح هذا للرأى العام باستمرار . فلا يظن أن القروض  
والاتفاقات التى نعقدتها معناها تحويل آلاف الملايين الى البنوك المصرية  
لنصرف فيها ، ولكن كل دولار منها يقابله جنيه مصرى علينا أن نؤفقه ،  
ومرتبط بوجود مشروع مدروس جاهز للتنفيذ . فلا تنتشر روح التواكل  
وانتظار سقوط المطر !

● إننا يجب أن ندرك أيضا أن الطريق شاق ، وأن هذه المشروعات سوف  
تستغرق زمنا حتى تؤتى ثمارها . وبالتالي فالمرحلة الاولى للانفتاح هي  
مرحلة إدخال ، وحرص على الموارد ، وصعوبات ، واولويات .

● إن قانون الاستثمار الجديد ذاته ، ترك الكثير من الامور للبساطة  
التقديرية للجهة أو الشخص المسئول عن التنفيذ وهذا امر له خطورته من  
ناحية : من ناحية احتمال الخروج عن الخطة العامة للبلاد ، ومن ناحية  
عدم اطمئنان الاجنبى ذاته لهذه السلطة التقديرية . فالثقة تندعم بالقواعد  
لا بالاشخاص . ولذلك لابد أن يستكمل القانون بلائحة أو غيرها أى بقواعد  
مكتوبة لا تعوق الانفتاح ، ولكن تنظمه ، لمصلحة الطرفين معا .

● إن منطق الانفتاح ، بقواعده وضوابطه ، يجب أن يعتمد من الوزير الى  
الموظف الصغير الذى يباشر العمل اليومى ويحتك به وجها لوجه .  
فالقرارات العليا يمكن أن تضيق شرايينها حتى تختنق كلما نزلت الى  
ساحة التطبيق ، بسبب لوائح ، أو تركيز سلطة ، أو مخاوف ، أو رواسب ..  
فما لمعنى أن يضع فرد ، مصرى أو اجنبى ، امواله للمستوردة فى بنك  
ويكون له حق استخدامها قاتونا ، ولكنه لا يصرف منها شيئا إلا بشق  
الأنفس وبعشرات الاجراءات والتوقيعات !

● الخطة .. الخطة .. المشروعات المدروسة الصالحة للتنفيذ ، أهم من  
أى شيء آخر .. وبغير الخطة يمكن أن نتعرض لأزمات كالتضخم  
المفاجئ ، أو الاختناقات ساعة تجيء لحظة تحويل العائدات الى الخارج  
بعملات حرة ، أو نفقد الهدف الاجتماعى الذى نستهدفه من التنمية ، أو  
تطغى المشروعات التى تجيء "لمتلئف" اسرع واكبر ربح دون عائد محلى  
كبير وأروى هنا واقعة صغيرة ..

حين أراد ديغول أن يفتح على مصر أرسل بعثة من أكبر رجال  
الصناعة والمال فى فرنسا . وجرى مباحثات مع الجانب المصرى كان لها  
خروج ، ولكنهم بعد أن رحلوا قال لى السفير الفرنسى وقتها : جاء وفدنا  
وفى ذهنه أن لديكم خطة وبالتالي سوف تطرحون انتم ماذا تريدون ولكن

الجانب المصري سأل الفرنسيين : ماذا لديكم ؟.. فإذا قالوا مثلاً : يمكننا أن-نقيم مصنعاً لكذا ، قالوا له : عظيم .. نريد واحداً منه ! وهكذا عاد الوفد الفرنسي وقد اقتنع أنه ليس لدينا خطة ، وأننا لا نعرف الأولويات التي نريدها ، وبالتالي لا يمكن إقامة مشروعات كبيرة بهذا الأسلوب .

● التدريب .. التدريب ! ليس تدريب العامل والموظف وحده ولكن أكبر المديرين أيضاً . فعلوم الإدارة والتجارة والاقتصاد تتغير بسرعة وسياسة العالم المتقدم تقوم على أساس سياسة "التعليم المستمر" التي أشارت إليها ورقة أكتوبر . قال لي أستاذ جامعي ممتاز سافر مؤخراً : كنت أدرس مادة التجارة الخارجية ، فوجدت أنها صارت فروعاً وتخصصات .. فهناك علم "تخطيط التجارة الخارجية" .. وهناك .. وهناك ..

كان هذا نص المقال .. وفي الصباح التالي اتصل بي الرئيس السادات ، وكان غاضباً .

في ١٣ يوليو ( تموز ) ١٩٧٤ في اليوم التالي من نشر مقالتي عن الانفتاح ، اتصل بي الرئيس السادات تليفونياً وقال لي إن الدكتور عبد العزيز حجازي غاضب جداً من هذا المقال ، وأنه شكاني إليه ، وأن ظهور مثل هذا المقال بهذا العنوان في الصفحة الأولى من « الأهرام » وموقعاً باسمي بعد أقل من ثلاثة أشهر من صدور القانون ، يعرقل الانفتاح ويثير له مشاكل كثيرة . وأتطرق السادات في كلام طويل لم أعد أميز منه بالضبط ماذا يمكن أن يكون كلام الدكتور حجازي ، وماذا يمكن أن يكون كلام السادات نفسه .

وقد كنت على وشك السفر إلى الخارج بضعة أسابيع للعلاج في لندن ، فلما عدت وجدت أن الدكتور حجازي قد استعمل في مؤتمر صحفي له عبارة « إن الانفتاح ليس سداً مدام » ، ولاحظت أن ثمة جملة لا تخطئها العين الخبيرة على الدكتور حجازي في الصحف المصرية ، وسمعت من بعض الأصدقاء أن الدكتور حجازي بدأ يشكو في مجالسه الخاصة من تأمر بعض الوزراء عليه وعدم تعاون أجهزة أخرى في الدولة معه .

وذهبت أזור الدكتور حجازي أسأله عن الأخبار ، واشترت في حديثي معه إلى أنه استعمل العبارة التي قيل لي أنه غضب منها . وانفجر الدكتور حجازي في حديث غاضب طويل . أذكر منه جوهرة المتصل بموضوع الانفتاح . فقد قال لي ما معناه : أنه أصدر قانون الانفتاح ، وأنه تم السماح « بالاستيراد بدون تحويل عملة » لأول مرة ( طبعا ليس هناك شيء اسمه استيراد بدون تحويل عملة ! ولكن ثمن المستوردة يدفع من عملات المصريين في الخارج دون أن تمر هذه العملات على مصر ، أي « من يره يره » ) ولكن الدكتور حجازي قال لي إنه قرن ذلك بإصدار قائمة بستين سلعة يمكن استيرادها على هذا النحو .

وهى سلع ومواد مطلوبة لتسيير عجلة الصناعات والمهن المصنعية فى كل مجال . فعشرات الآلاف الذين يعملون فى قطاع التجارة لم يعد لديهم ما يلزم التجارة من « مفصلات معدنية » و « كوالين » وغيرها ، والآلاف مصانع الإحذية الصغيرة أيضا تنقصها مواد كثيرة ضرورية لصناعة الأحذية ، والآمثلة كثيرة فى الصناعات المتوسطة . المهم انه فهم الانفتاح بهذا المعنى . على أنه تسهيل تدفق هذه الأصناف ومعنى ذلك انه من ناحية ، يحرك عجلة الاقتصاد والانتاج والعمالة على نطاق واسع جفت يذابيه وبدأ يتوقف . وأن هذا التحديد من ناحية أخرى سيعيد الى النشاط الاقتصادى العارفين به ، وأهل التجارة والصناعة الحقيقيين .

ولكن الدكتور حجازى قال مستطردا انه فوجئ بالهجوم الاستهلاكى الذى ليس اول ما تحتاج اليه البلاد بعد سنوات الحرب ، من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٢ .

وقال لى فيما اذكر : لو ان لديك مالا فى الخارج ، فأسهل عليك وبدون أى علاقة بالتجارة والصناعة ، ان تشتري من بيروت « فستقا » بمائة الف جنيه ، وتعرضها فى اسواق القاهرة وسوف تلتهمها القاهرة فى اسبوع ، فتكسب ارباحا طائلة بسرعة وتستورد « فستقا » من جديد ، وهكذا يدور مالك عشرات المرات بسرعة .. واليك ليست مشكلته الآن الفستق والشيكلات ورجاجات « السفن أب » التى تستورد وتباع الرجاجة منها فى مصر بخمسة وسبعين قرشا ( اسعار زمان قيل تضخم ١٢ سنة بعد ذلك ) .

واعترف الدكتور حجازى بأن هناك قوى عاتية تضغط فى هذا الاتجاه . ويدخل أصناف من الناس الغرباء عن عالم التجارة والمال والاقتصاد . ويمخاطر هذا التيار الذى يجرف أمامه كل سدود أو قيود أو نظم أو قوانين .

ولم يمض وقت طويل حتى جاءت ليلة ، كنت فيها ساهرا فى مكتبى كرئيس لتحرير « الاهرام » ، عارفا ان الرئيس السادات مجتمع بالدكتور حجازى رئيس الوزراء ، وبالسيد ممدوح سالم نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية ، وانهم يبحثون تعديلا وزاريا محدودا . ثم علمت ان الاجتماع انتهى وان الدكتور حجازى عاد الى بيته ليفكر فى اقتراحات التعديل كما طلب إليه السادات . وبعد ساعة أو ما يزيد قليلا على ذلك ، جاءنا خبر للنشر صبيحة اليوم التالى : ان السادات قد كلف السيد ممدوح سالم برئاسة وزارة جديدة . وذلك قبل ان يعلم الدكتور حجازى فى بيته بالخبر !

• • •

كانت موجة الانفتاح « السداح مداح » عاتية بالفعل .. وقد تزامن ذلك مع الارتفاع الهائل والمفاجئ فى اسعار البترول بعد حرب ١٩٧٣

وبالتالى سقر المصريين للعمل فى بلاد البترول ليس بالآلاف ولكن بمئات الآلاف وبالملايين فيما يعد . وتدفقت تحويلات المصريين بالعملة الصعبة بالآلاف الملايين على مصر من كل جهة . كما تدفق « الاستيراد بدون تحويل عملة » أى استخدام تلك العملات من عرق المصريين فى الخارج للاستيراد الاستهلاكى رأسا من جهة أخرى .

وسبحت مصر - السوق وليست الدولة - على بحر من العملات الصعبة لم يسبق له مثيل لا قبل ١٩٥٢ ولا بعد ١٩٥٢ . وبدلا من افتتاز هذه الفرصة لتحويل هذه الاموال الى قنوات استثمارية منتجة ، تركت ترويع فى الاسواق وتوجد الشهوات الجديدة وتتيح الفرص للخامرين واللصوص والمريقين الذين ينتحلون صفة رجال الأعمال . هذا الواقع هو الذى رفع ديون مصر من ألف مليون دولار إلى أكثر من ثلاثين ألف مليون دولار فى عشر سنوات ، وجعل مصر لا تفيد من مرحلة الثروة البترولية ، واخذ المصريون يعودون بلا عمل ، وبالتالى كل مصاعبنا الاقتصادية التى نحن فيها الآن .

لم اكن بالطبع وحيدى فى توقع مخاطر هذا الانجراف فقد كان أى اقتصادى معتدل يرى هذه المخاطر المؤكدة ، ويرى خطورة اعتماد مصر فى انفاقها الهائل الجديد على مصادر ليست فى يدها : تحويلات مصرية أتية من الخارج ستنتهى ذات يوم وقروض أجنبية متلاحقة سيحل أوان سدادها وسداد فوائدها ذات يوم عصيب .

واكن خمر هذا المال السهل والسائب معا ذهب بمعظم العقول . وخدر أعصاب كثير من الناس حتى ممن يملكون الخبرة والمعرفة . فناموا على مخدة ناعمة من الاقتراض الأجنبى والمال المتدفق دون انتاج .

وانى لاذكر انبنى عقدت اجتماعا لقسم التحقيقات الصحفية فى « الأهرام » مع رئيسه فى ذلك الوقت الزميل الكبير الاستاذ صلاح هلال ، وقلت لهم : إن الصفحة الأولى فى كل الجرائد اليومية متشابهة بحكم الظروف ، وبحكم انها مخصصة لنشر أهم الاخبار اساسا ، ولكنى اعتبر الصفحة الثالثة بمثابة « صفحة أولى » أخرى ، فهى أول ما يراه القارئ عندما يفتح الجريدة . وأريد منكم أن تركزوا جهدكم فى هذه الصفحة لرسالة واحدة : تحقيقات صحفية مدروسة تدافع عن الانتاج المصرى ورأس المال الوطنى من الصناعات الكبرى الى الحرف اليدوية .

ودهش بعض الزملاء الذين كانوا يتصوروننى - عن عدم معرفة - اشتراكيا متطرفا وداعية الى التأميم بلا حدود !! وقد قاموا بهذه المهمة خير قيام . وكانت تلك محاولة أخرى غير ما اكتب بامضائى للوقوف فى وجه موجة التبعية الاقتصادية والاغتراب النفسى ونمو مركب النقص بين المصريين إزاء كل ما هو « مستورد » .

ولكن هذا كله كان كاوراق تذررها الرياح العاتية .

الواقع أن الأوضاع التي كشف عنها الانفتاح كانت هي بداية الشرخ الحقيقي بين السلاطات وبينى . الشرخ الذى أخذ فى الاتساع حتى نهاية هذه العلاقة بعد سنوات كتبت مرارا فى « الأهرام » محاولا مقاومة هذا التيار تحت عناوين التنمية والبناء والاعتماد على النفس وعدم تكرار مأساة التبعية الاقتصادية والارتهان للأجنبي . ولكن صوتى كان وحيدا وبدا « تناسله » عن النغمة السائدة يتزايد ويثير مزيدا من المشاكل والتوترات بينى وبين أهل السلطة بوجه عام . ولم تكن هناك وقتها صحف معارضة ولا أحزاب معارضة كما هو الحال الآن . ولم تكن قد « راحت السكرة وجاءت المفكرة » كما نحن الآن . ومن شعورى بهذا الشئوذ فى موقفى كرئيس لتحرير « الأهرام » بدأت أفكر فى ترك هذا المنصب دون مشاكل أكبر . وأن أعود مسئولاً فقط عن مقال أكتبه وأضع اسمى عليه . الأمر الذى يمكن أن تحتمله الدولة . ولشعورى بأنه سوف يكون مستحيلا أن اتحمل مسؤولية ما لا بد أن تعكسه الجريدة الأولى والأهم من أشياء أساسية تغير المجتمع ولا أستطيع أن اتحمل مسئوليتها .

ومن المؤلم أن أكتب هذا الكلام الآن بعد أن مضى عليه حوالى أربعة عشر عاما . وقد اضطرت مصر بعد هذا التسبب والفساد والانقياد للمصالح الشخصية الرعناء إلى « إنغلاق ثان » جديد لمواجهة كارثة أعباء الديون وفوائدها . وهو فى هذه المرة ليس « إنغلاقا اختياريا » قررناه بإرادتنا لكن نقيم أسس المجتمع الصناعى الذى لا بد منه . ولكنه « إنغلاق اضطرارى » أجبرنا عليه الدائنون . وأوصلنا إليه سلوة عشر سنوات من الجشع وقصر النظر وانعدام الاحساس بالمسئولية فضلا عن الآثار النفسية المدمرة التى أوجدتها فى مجتمعنا هذه السياسة الاقتصادية . إذا كانت جذيرة باسم « سياسة اقتصادية » .





## المرض والاستقالة

فى أوائل سنة ١٩٧٥ ، كنت مدعوا ذات لياة إلى العشاء على مائدة سفير الغاتيكان فى مصر واكلت طعاما خفيفا ، ولم أسهر فى الجريئة ، ونمت مبكرا ، دون أى شعور بأى تعب أو إرهاق . واستيقظت كعادتى فى الساعة السابعة صباحا ، ونهضت من الفراش وإذا بى أقع على ظهري غير قادر على النهوض . كان ذهني صافيا تماما ولا أشعر بأى ألم أو شعور غير طبيعى . كنت قادرا على أن أحرك أطرافى بشكل عادى ، ولكننى لم أتمكن بشتى المحاولات من أن أستجمع أطرافى ونهض من الفراش أو أتمكن من مجرد الجلوس عليه ، إذ كنت لا أكاد أرفع ظهري عن الفراش إلا وأعود فأقع على ظهري من جديد . وناديت زوجتى وشرحت لها حالتى الغريبة وعلى الفور اتصلت زوجتى تليفونيا بجارتنا الذى كان يسكن فى نفس العمارة ، أبرز أطباء القلب الاستاذ الدكتور محمد عطية . وقد كان ومازال الطبيب الذى يتابع صحة الرؤساء المصريين المتعاقبين . وبعد أن فحصنى الدكتور محمد عطية ، إتصل فورا بالأستاذ الدكتور يحيى طاهر طبيب المخ والأعصاب ، الذى حضر من بيته فى دقائق . وبعد فحص متصل قال لى الطبيبان الكبيران أن شيئا ما أصاب جهاز التوازن فى المخ وأن على كمرحلة أولى أن لا أبرح الفراش شهرين على الأقل ، أكون خلالها منوما طيلة الوقت حتى يستجمع جسمى توازن أطرافه .

وعندما خرج من حجرتى ، قال لزوجتى أن الحقيقة أننى أصيبت بجلطة فى أحد شرايين المخ ، وطلب منها أن لا تقول لى ذلك لأن كلمة « جلطة » عندنا فى مصر تصيب المريض بالذعر . فلم أعرف هذه الحقيقة إلا بعد شهر فى مستشفى البحرية . فى ضواحي واشنطن ، حيث يقول الأطباء فى أمريكا لمرضاهم الحقيقة صريحة مهما كانت قاسية .

وعندما رويت لزوجتي ملقالي لى الأطباء الأمريكان بعد فحوص مرهقة طويلة فى شتى معامل المستشفى وبمختلف أجهزتها قالت لى زوجتى : هذا بالضبط ماقاله الدكتور محمد عطية والدكتور يحيى طاهر قبل شهر فى القاهرة من اللحظة الأولى .

المهم أننى أمضيت مايقرب من شهرين منوما باستمرار فى حجرة مظلمة لا أقابل فيها مخلوقا ، حتى بدأت أتمكن لأول مرة من السير على قدمى فى البيت ، بمساعدة أحد من أفراد البيت ، وبعد أسابيع تمكنت من أن تأخذنى السيارة إلى نادى الجزيرة حيث أتمشى متوكئا على عصا لمدة نصف ساعة على الأكثر أعود بعدها إلى الفراش .

كان التحسن بطيئا بدرجة كبيرة وكانت « الأهرام » قد نشرت خبر مرضى بشكل مثير فى الصفحة الأولى . وفى الوقت الذى طلب فيه الرئيس السادات اعداد الاجراءات لعلاجى فى الخارج أول ماتسمع الفرصة ، لا أنسى أننى تلقيت برقية من السيد اسماعيل فهمى الذى كان فى واشنطن فى إحدى جولات المباحثات مع أمريكا ، ومن الدكتور أشرف غربال ممثلنا فى واشنطن ، بأنهما قرأ الخبر ، وأن أحسن مكان للعلاج هو مستشفى البحرية فى أمريكا ، ولما كان دخول هذا المستشفى لغير رجال الأسطول الأمريكى ، لا يتم إلا بموافقة من وزير الأسطول الأمريكى ، فقد بادرا فورا بطلب هذا الاذن ، وحصولا عليه وأن المستشفى فى انتظارى بمجرد أن أتمكن من السفر .

عرفت هذا كله بعد الافاقة من غيبوبة الاسابيع الطويلة . كما عرفت أن الرئيس والمسئولين والأهل والأصدقاء والملاء كانوا جميعا دائمي السؤال بالتليفون وكثير منهم تفضلوا بالحضور إلى البيت .

ومع السماح لى بالرد على بعض التليفونات واستقبال بعض الزوار عادت صلتى تدريجيا بالحياة والناس . وكان من أول من رأيتهم طبعاً الأطباء الذين نصحوا لى بشدة أن لا أعود إلى عمل مرهق يرمى كرتاسة تحرير الأهرام فى ظروف بالغة الحساسية والتوتر والتعقيد . وقد مرت على حرب ١٩٧٣ سنتان دون نتيجة وبدء التملل العام يعود الى البلاد بعد الفرجة الأولى وبدأت الدولة عاجزة عن عمل أى شئ .

هكذا أخذت ألح على الرئيس السادات كلما اتصل بى تليفونيا ، وألح على كل مسئول آخر له بالرئيس صلة قوية ، يزورنى أو يخاطبنى تليفونيا أنه يجب البحث فورا عن رئيس آخر لتحرير الأهرام ، وأننى قد قررت نهائيا أن لا أعود الى هذا المنصب ، ويكفينى أن أعود كاتبا لمقالات سياسية ومسئولا عن ما يحمل توقيعى فقط .

وكان الرئيس السادات يصمم على تأجيل هذه الحكاية ، مكررا أنني أقول ذلك تحت تأثير صدمة المرض وكنت أريد عليه دائما بأن الدكتور محمد عطية هو نفسه الذى يجرى فحصا شاملا للرئيس مرة كل أسبوع وأنتى راض بما سيقوله الدكتور محمد عطية حول قدرتى على العودة الى العمل . وظل هذا الأخذ والرد يتكرر دون استجابة لالحاحه حتى أرف موعدي سافرى الى مستشفى البحرية فى أمريكا .

ومع أن المرض كان سببا جوهريا فى قرارى هذا ، رغم تأكيد السادات لى كل مرة ، أنني سأعود من أمريكا إن شاء الله ، رى اليمى ، إلا أنه كان شمة سبب آخر أقوى وأعمق .

لقد أتاحت لى الأسابيع الهادئة التى تلت افقتى من الغيبوبة الطويلة ، فرصة التأمل الهادئ فى موقفى بأكمله .

إننى لا أتعب من العمل الصحفى بل أشعر فى نهاية أى يوم مهما طال من العمل الصحفى المحض بنشوة وراحة نفسية ، وأظن أن هذا هو حال من يزاول عملا يحبه . ولعل اكسير الحياة واحسن علاج للصحة هو أن يشعر المرء أنه يحقق ذاته فى عمل خلق له . ولكن الارهاق الحقيقى يأتى من التوتر والقلق والضيق وعدم اليقين وخطورة المزالق وغير ذلك مما يحيط بالعمل ، وليس العمل نفسه . وإننى أستشهد دائما بكلمة سمعتها من شاعر مصرى شارد مهاجر فى أفلى الدنيا الواسعة دون أن يرى مصر منذ حوالى ثلاثين سنة ، إذ دخل على يوما يشكو من مشاكل عمله فى جريدة « الجمهورية » هو الشاعر الذى لا أعرف أين هو بالضبط ، عبد الرحمن الخميسى ، وقال لى ملخصا مشاكله « إننى أضيع جهدى أدافع عن قيثارتى ، ولا أعزف الحانى ! »

وشعرت أنني قد تعبت حقا بهذا المعنى وليس سواء .

لقد تكاثرت خلافاتى مع الرئيس السادات ومع معظم الذين كانوا حوله . وبدأت الساحة منذ الانفتاح تمتلئ بدلا من المستثمرين الحقيقيين بأشباح أشخاص نسمع عنهم ولا نراهم ، أخذت رائحة تجاوزاتهم تملأ الأنوف ، وبدأ أن الوضع الاقتصادى فى البلاد بدلا من أن يأخذ طريقه الى تصحيح وتجديد وانفتاح مثمر ، أخذ يتفكك تحت مطارق تسوية أجنبية ومحلية ، وكان المقصود هو مجرد تفكيك هذا الاقتصاد وتركه مبعثرا عاجزا عن الحركة ، وليس المقصود إعادة صياغته تحت أى عنوان مفهوم ، رأسماليا كان أو اشتراكيا أو مختلطا . ولمن هو أسير قراءة التاريخ متلى ، كأن يبدو أن الموجة الجديدة تستهدف انتهاء محاولة إقامة اقتصاد وطنى يستطيع الوقوف على قدميه والتعامل مع الدنيا طبقا لقواعد مقبولة ، وإعادة هذا الاقتصادى الى التبعية الكاملة للخارج مما يذكر بسا

حدث في أواخر عهد الخديوي اسماعيل ، تحت حكم اللورد كرومر والخديوي توفيق .

وكننت أحرار في فهم هذه الظاهرة : هل هي خطة محسوبة لا تشعر بها كما يسحب موج البحر السباحين على الشاطئ فلا يشعرون بأنفسهم إلا وقد صاروا علجزين عن مقاومة التيار والعودة الى اليابسة ، وإن هذا جزء من الثمن السياسي المطلوب دفعه للولايات المتحدة الأمريكية حتى تساعد على فك الحبل من حول عنق مصر وأى حاكم مصرى ، بالضغط على إسرائيل للانسحاب ؟ أم أن الأمر أبسط من ذلك ولا يعدو عدم فهم الفرق بين الحرية الاقتصادية وبين الغوضى الاقتصادية ؟ أم هو فساد يستشري ويجد فرصته كالعادة واسعة في مرحلة انتقال ؟

ولم يكن هناك وقتها أحزاب المعارضة ولا صحف المعارضة . ولذلك كان جهدى في مخالفة هذا الموج يبدو قافه الأثر ، لأنه جهد وحيد ، ولأنه في غير المناقشات مع المسؤولين ليس له وجود علنى إلا على صفحات جريدة « الأهرام » التي تفرض بحكم سمعتها ووضعها المعنوى من الدولة قيودا على من يكتب فيها وأى مقالات نشرت في تلك الفترة عن محاولة تهذيب مجرى الانفتاح ، أو مرددا معانى الاعتماد على النفس في الأولى حتى يساعدنا الآخرون ولكن دون استغلال أو عن التأكيد على الدفاع عن الرأسمالية المصرية والحرف الوطنية ومعاملة المال العربى معاملة خاصة ودفعه الى قنوات استثمارية لا ترفيحية ، كل هذا كان يتجدد كما يتجدد الريش في مهب الرياح .

وكننت أقول للرئيس السادات عن يقين : إن أسلوب المساعدات الأجنبية نحونا ليس هو الأسلوب البرىء المطلوب . عندما أذهب ياريس لصديق أطلب مساعدته على إصلاح طوالي ، فإنه يساعدنى بأحد أسلوبين : إما أن يعطينى مبلغا من المال أقيم به صناعة أو تجارة اعتمد بها على نفسى . وإما أن يعطينى « مصروفا شهريا » حتى أظل مربوطا به ، أذهب اليه أول كل شهر راجيا أخذ المصروف الذى أعيش به ! والذين يظهرون الحماسة لمساعدتنا ، يساعدوننا بالأسلوب الثانى ! إن مصر ياريس مستهدفة من قوى كثيرة انهم لا يريدون لمصر .. أن تغرق ، فغرق مصر يمتد أثره المدمر غير المعروف الى المنطقة كلها وهم فى نفس الوقت لا يريدون لها أن تقف على قدميها من جديد ، فى كل مرة وقفت قبيها على قدميها صارت هى العامل المؤثر فى المنطقة . إتهم يريدون لها أن تبقى طافية على سطح الماء فحسب . لا تنزل رأسها عن سطح الماء فتختنق ، ولا ترفع رأسها عن

سطح الماء وتتففس بحرية .  
كنت أكرر هذا المعنى على السادات كثيرا ، ولا أذكر أنه آمن على  
كلامي هذا أو عارضه مرة واحدة .  
وعلى جبهة أخرى ، كانت الخلافات ومظاهر عدم الثقة بين السادات  
وبعض القوى العربية الأخرى حول اتصالاته الدولية عموما والأمريكية  
بالذات واشاعات الحلول المنقردة ، إلى آخره ، تثير نوعا آخر من المشاكل  
بينى وبين الرئاسة وأجهزة الدولة الأخرى . وكان « الأهرام » كثيرا  
ما يخرج مقدما الأحداث والتطورات الخاصة بهذا الموضوع بعكس ما تراه  
الدولة والصحف الأخرى وأسجل أن السادات كان كثيرا ما يتصل بى  
تليفونيا يناقشنى ويؤخذنى على ذلك قبل النشر أحيانا وبعد النشر أحيانا  
أخرى ، وكنت أناقشه طويلا كما كنت أقول له دائما : يا ريس ، على أى  
حال ، لا لزوم ، بل وليس من المفيد ، أن تصدر الصحف المصرية الثلاث  
بنفس العناوين ونفس طريقة إبراز الانتباء ونفس التعليقات . بل إن بعض  
الاختلاف مطلوب وأكثر فائدة ويقوى موقفك إزاء أمريكا أو إسرائيل أو  
غيرها ، طالما أننا لانصيب سياسة أساسية لك . . وكان يوافقنى ، ولا  
أعرف راضيا أم على مضض ، ولكننى أسجل أنه لم يحاول إكراهى على  
غير ذلك . والأمثلة اذا اتحت الفرصة كثيرة جدا .

ولم تكن هذه الملاحظات التى أخذت تتكاثر هى كل شيء .. فعلى  
اقتراعى واتصالى الكثيف بالرئيس السادات فى تلك الفترة بالذات ، وعلى  
محاوراتنا الحرة حول كل شيء ، لم يكن من الصعب أن أدرك أنه لا يتحدث  
أمامى بكل مافى ذهنه . أو أنه يطلعنى على أهم أسرارهِ . كما بدا يصبح  
معروفا لى جيدا أنه كان يجلس معى ويتناقش فى أمور معينة ، كان يجلس  
مع آخرين يحتفلون فى أفكارهم عنى تماما كانت اتصالاته متنوعة وفيها  
المعلن والخفى . وهذا حق وربما ضرورة لرئيس الدولة فى مثل نظامنا .  
ولكن هذا الغموض أخذ يتزايد والمساحات التى لا أعرفها من فكره تتسع ،  
بالرغم مما كنت أشعر به دائما من حرصه على بقائى فى عمله .  
هكذا شعرت أن بقائى رئيسا لتحرير الأهرام وإن كان قد صار صعبا من  
الناحية الموضوعية المجردة فإنه لن يلبث أن يكون مستحيلا وهكذا كان  
تصميمى فى تلك الفترة على ترك مسئولية رئاسة التحرير نهائيا ..

وإننى لأذكر ، من أول لحظة لمرضى ، ومن القاهرة إلى مستشفى  
البحرية فى أمريكا أن كل طبيب فحصنى سألنى نفس السؤال . وهو : ما  
الذى أزعجك بشدة فى الثمانية والأربعين ساعة السابقة على ذلك  
الصباح ؟

وكنت أجيّب دائما : لا شيء .

ولست أعرف إذا كنت مخطئا أو مصيبا في تلك الإجابة فقد « قلب كياني » في هذه الفترة بالفعل خير قرأته ذات صباح في جريدة أخبار اليوم ، يتحدث عن ضبط مؤامرة واسعة ضد النظام ، وكلام عن اتصالات بجهات أجنبية واسماء عدد من المثقفين والصحفيين المصريين ، منهم معارف وأصدقاء أعرف جيدا بطلان هذه الاتهامات بالنسبة لهم ، وتوقع القبض عليهم .

ذكرني هذا الخبر بالمؤامرة الكبرى المزعومة التي أعلنها اسماعيل صدقي باشا رئيس الوزراء سنة ١٩٤٦ وأنا مازلت طالبا ، وشملت كل كتاب ورموز الحركات التقدمية والأسماء المطالبة بالتغيير في شتى مجالات السياسة والفنون والآداب مثل سلامة موسى ومحمد زكي عبدالقادر وتعمان عاشور وعشرات غيرهم ، يقصد أجهزة كل الذين كانوا يعارضون ما كان يسمى بمشروع صدقي - بيفن لعقد اتفاقية جديدة بين مصر وإنجلترا . في هذه المرة - ١٩٧٠ - لم يحدث شيء من ذلك ، ولم تتكرر الإشارة الى الخبر ولكنني أذكر تماما كيف رُزِل هذا الخبر كياني وأنا أقرأه ذلك الصباح وسألت نفسي : كيف استمر في المساهمة في الحياة العامة وفي متصيب مسئول ولو معنويا لو أن شيئا من هذا النوع حدث ؟

واقترِب موعد سفري الى أمريكا لاستكمال العلاج واتصل بي الرئيس السادات من أسوان وسألني إذا كنت أستطيع أن أذهب إليه وأراه قبل أن أسافر مع ترتيبات تجعل الرحلة مريحة .

وركبت طائرة خاصة بالرئاسة ، وليس عابها سوى إلا المرحوم سليم اللوزي صاحب ورئيس تحرير مجلة الحوادث اللبنانية والسيد أشرف مروان مدير مكتب الرئيس السادات للمعلومات في ذلك الوقت .

وقضيت الليلة في الفندق على أن أقابل الرئيس في صباح اليوم التالي . وأنا خارج من الفندق صباح اليوم التالي كان يدخل من بابه هنري كيسنجر ، قادم من عند السادات في إحدى رحلاته المكوكية الشهيرة ، وقد علا البشر وجهه .

بمجرد أن جلست الى الرئيس السادات في حديقة الاستراحة المشمسة ، قلت له انني قابلت كيسنجر عند باب الفندق وأنه كان مهلل الوجه بشكل واضح ، فلا بد أن المباحثات قد نجحت .

وقال لي السادات : فعلا ، إذن اتفقنا على كل شيء ، وهو ذاهب الى القدس الآن ، وسيعلن النتائج من هناك قبل أن يعود الى أمريكا ( الذي حدث أن كيسنجر ذهب الى القدس واجتمع مطولا بمجلس الوزراء الاسرائيلي كله وخرج متحسرا الى المطار مباشرة غاضبا

وامام الصحفيين وعدسات التليفزيون ، اغرورقت عيناه بالدموع ،  
واعلن فشل مهمته بعد كل هذه الرحلات وأنه عائد الى أمريكا ولن  
يرجع الى الشرق الأوسط حتى يتغير الموقف ) .

واستمر السادات في حديثه المتغافل قليلا ، ثم سرح مع خواتمه فترة  
وقال لي : « بس اظن المرة دي ح تدخل في مواجهة مع كل الدول العربية » !  
واستوقفتني هذه الجملة بشدة وقررت أن لا أخضع لأي اغراء بالبقاء .  
وبالفعل ، عندما يتس الرئيس السادات تهانيا من قبولي الاستمرار في  
رئاسة التحرير لم يترك الفرصة بذلك ، وقال لي أنا عارف انت ماتحبش  
تهاجم قرايبك العرب والفلسطينيين .

وضحكت ، وكأنني أخذت تعليقه على أنه مجرد نكتة ومداعبة .  
وسألني عن رأيي فيمن يتولى رئاسة مجلس ادارة ورئاسة تحرير  
الاهرام ، وقلت له ان المرشح الطبيعي هو احسان عبدالقدوس الذي يعمل  
كاتباً بالفعل في « الاهرام » وقال لي أن هذا هو نفس مايدور في ذهنه ، لكن  
هل احسان قادر على تحمل المسئولية وأن « يركن » اهتماماته الروائية  
والسينمائية ؟ ثم قال لي : إن سيد مرعي واسماعيل فهمي « وألف واحد »  
حدثوه عن أمل على الجمال في أن يكون رئيسا لتحرير الاهرام بعد أن ظل  
مايقرب من عشرين عاما مديرا للتحرير وبالتالي فهو يفكر أن يكون احسان  
عبدالقدوس رئيسا لمجلس الادارة وعلى الجمال رئيسا للتحرير ويتعاونان  
معا . وقلت له أن الاثنين على أية حال هنديقان حسيما ويمكن أن يكمل  
أحدهما الآخر .

وحيت الرئيس مودعا وانصرفت .

ولدى وصولي الى الفندق ، أسر لي أحد رجال رئاسة الجمهورية أن  
هناك طائرة خاصة من طائرات الرئاسة ستصل مصر اليوم حامله/السيدة  
جيهان السادات والسيدة ايملا ماركوس التي كانت ضيقة عليها في  
مصر . وأقنى يمكن أن أعود على هذه الطائرة إلى القاهرة في نفس اليوم  
بدلا من المبيت ليلة أخرى في أسوان ، بشرط أن لا اخير أحدا فالراغبون  
في العودة كثيرون ، وهذه هي طائرة الرئيس السادات الخاصة .

وفي الموعد المحدد كنت في المطار واشتركت في تحية السيدة جيهان  
السادات والسيدة ايملا ماركوس بكل ما كانتا تتبديان به من جمال  
وجاذبية وأناقة بالغة ولم يكن معي في الطائرة الا اللواء سعد مأمون قائد  
الجيش الثاني في حرب أكتوبر وعلمت منه أن الرئيس السادات يلغه بقرار  
تعيينه محافظا للصحراء الغربية وكان الحزن الشديد باديا عليه بوضوح  
لهذا القرار .

وأنا في فراشي بالبيت حوالي الساعة العاشرة ليلاً من نفس اليوم ، اتصل بي الدكتور أحمد كمال أبوالمجد وزير الاعلام في ذلك الوقت وقال لي أنه واقع في مشكلة حزبية ويريد أن يعرف مني وجه الحقيقة فيها فقد اتصل به الرئيس السادات تليفونيا وطلب منه كتابة قرار ينشر صباح اليوم التالي بتعيين احسان عبدالقدوس رئيسا لمجلس ادارة الاهرام فوضع اسمي أحمد بهاء الدين وعلى حمدي الجمال كرئيسين للتحريير . ولما اتصل بالأستاذ احسان عبدالقدوس قال له احسان أنه لم يفهم ذلك ، وأنه يشترط لوضع اسمه كرئيس لمجلس ادارة الاهرام أن لا يوضع اسم أحمد بهاء الدين كرئيس للتحريير ، إنما يوضع اسم علي حمدي الجمال وقال له كمال أبوالمجد أنه أسف وأنه لا يستطيع إلا أن يصدر القرار كما قال له السادات شخصيا ، وأنه كتب بخط يده ما أملاه عليه السادات . فقال له احسان عبدالقدوس : إنه مصمم على موقفه وعلى أن يوضع إما اسمه واما اسم أحمد بهاء الدين على الجريدة .

وسألني الدكتور أحمد كمال أبوالمجد ماهي الحكاية قبل ان يتصل بالسادات مرة أخرى ويروى له ما حدث . وقلت للدكتور كمال أبوالمجد : إنتهى لم أفهم من الرئيس مطلقا ان اسمي سيبقى على جريدة « الاهرام » وكل ما دار بيننا كان حول تعيين احسان عبدالقدوس رئيسا لمجلس الادارة وعلى حمدي الجمال رئيسا للتحريير في تقديري أن الامر لا يخرج عن احتمالين :

الاحتمال الأول أن يكون الرئيس السادات تعهد اخفاء الفكرة عنى حتى لا أرفضها ليضعني أمام الامر الواقع وأنا مسافر بعد يوم إلى أمريكا . واما أن هذا الترتيب خطر له بعد أن تركته وأنا مقدر حسن نيته ولكنني لا أريد هذا الترتيب وأنا لا اتوى أن يتصور أحد اننى مسئول عن رئاسة تحرير « الاهرام » وبالتالي لا داعي لأن يوضع اسمي وكأننى أحد المسؤولين . وقال الدكتور كمال أبوالمجد أن المسألة بالنسبة له ليست رغبة احسان أو رغبتي ولكنها مسألة تعليمات رئيس الجمهورية له وقال لي أن أحد اصدقاء احسان عبدالقدوس قال له أن احسان يرى أن وجود اسمي على الاهرام سيجعل الناس يتصورون أنه مجرد « طرطور » وان أحمد بهاء الدين هو المسئول القعلى . وأبدى لي دهشته الشديدة لأنه يعلم اننا صديقان حميمان . وقلت له : هذا صحيح ، وقد بدأت حياتي الصحفية تحت رئاسة احسان عبدالقدوس ولكنني اخذت ألح على الوزير كمال أبوالمجد ان لا يعقد الامور ولا يعاود الاتصال بالرئيس السادات وان ينفذ رغبة احسان عبدالقدوس لأنها رغبتي انا ايضا وحتى لو لم تكن رغبتي فان مجرد ابداءه لهذا الطلب كاف لان لا أفكر في العمل معه او وضع اسمي الى جواره طالما ان هذا يضايقه .



وقد سافرت فى اليوم التالى الى الولايات المتحدة وعدت بعد شهرين ، ولم اسأل ماذا حدث ، ولكن صدر « الأهرام » وعليه اسم احسان عبدالقدوس رئيسا لمجلس الادارة وعلى حمدي الجمال رئيسا للتحريض . ومن المؤسف ان الصراعات بينهما تفاقت لدرجة جعلت السادات بعد مدة يصدر قرارا آخر بتعيين المرحوم يوسف السباعي رئيسا لمجلس ادارة الأهرام وعلى حمدي الجمال رئيسا للتحريض واعادة احسان عبدالقدوس كاتباً بالأهرام .

فى امريكا قال لى الاطباء ان نجاتك هذه المرة كانت معجزة لا تتكرر عليك ان تتجنب تكرارها بكل وسيلة . وقالوا لى لولا انك صغير السن لطلبنا منك ان تتقاعد لان مهنة الصحافة فى منطقتكم من العالم لاشك قاتلة . واقترحوا علىّ وهم يجلسون حولى بملايس الاسطول البحرى هذه المرة ويرأسهم اميرال بحرى ، ان اخذ اجازة لا تقل عن سنتين شرط ان تكون خارج بلدى . وسألتهم كيف ؟ وقالوا : ابحت عن مدينة صغيرة فى سويسرا او النمسا وعش فيها حياة هادئة لمدة سنتين !!

كان واضحا انهم ظنوا اننى احد اثرياء الشرق ولست اعالج فى مستشفاهم على حساب الحكومة المصرية ! وقلت لهم . نعم سأفعل . ووجدت ان الحل الوحيد الذى استطيع تنفيذه ان اعود الى مصر واسكن مدينة الاسكندرية بعيدا عن توتر القاهرة العصبى الهائل ، ولّى فى الاسكندرية شقة معقولة . وفى الاسكندرية مكتب « الأهرام » يمكننى ان اسلمه مقالا اسبوعيا .

وهذا ما عملته بالفعل بمجرد عودتى مبتعدا عن كل شىء . ولكن اسجل ثلاثة وقائع حدثت وانا فى الاسكندرية فى اواخر صيف ١٩٧٠ .

الواقعة الاولى ان الدكتور رفعت المحجوب الذى كان الرئيس السادات قد استعان به مستولا فى الاتحاد الاشتراكى تخلص منه بسرعة عندما هاجم « القطط السمان » اشارة الى اصحاب الثراء غير المشروع ، زارنى وأبلغنى ان اذهب لزيارة السادات ، وان الرئيس سيطلب منى إصدار مجلة اسبوعية جديدة اسمها « ٦ أكتوبر » وقابلت الرئيس الذى قال لى انه يريد مجلة مصرية توزع فى العالم العربى مثل مجلة « الحوادث » الليبانية التى كانت وقتها أقوى المجلات فى المنطقة وأننى أعرف العالم العربى أكثر من سواى من الصحفيين ولّى جمهور خارج مصر . ولم اكنف بالاعتذار عن المهمة ولكننى حاولت اقناع السادات بالعدول عن الفكرة كلها . فالحوادث تتمتع بحرية لا يمكن أن تنفرد بها فى مصر مجلة دون سائر المجلات أما عن استعداده لدعمها بالمال والمطابع والتسهيلات ، فليفعل ذلك مع مجلة قائمة مثل المصور أو آخر ساعة ، فإذا نجحت يكون قد حقق هدفه من

توصيل رأيه الى العالم العربى . واذا فشلت لا يلحق القشل اسم  
« اكتوبر » وقد عرض السادات المشروع بعد ذلك على حمدي الجمال  
فاعتذر فعرض على الاستاذ انيس منصور الذى قبل العرض واصدر  
المجلة .

الواقعة الثانية ان المرحوم على أمين زارنى وقال لى إن الدكتور كمال  
ابوالمجد مختلف مع السادات وأنه قدم استقالة مكتوبة وأن الرئيس قرر  
قبولها وكان « عيب » الدكتور أحمد كمال ابوالمجد هو استقامته ومصارحته  
الشديدة للسادات بما يحب ويكره وأنه استعدى على نفسه كثيرا من  
الصحفيين . وقال لى على أمين ان هناك خلافا شديدا بين ممدوح سالم  
رئيس الوزراء وبين اسماعيل فهمى نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية  
وأحد أقوى الناس صوتا عند السادات فى هذا الوقت فاسماعيل فهمى يرى  
أن مهمة وزير الاعلام حاليا مرتبطة تماما بنشاط وزارة الخارجية ، وبالتالي  
فقد رشح المرحوم محمد رياض وكيل الخارجية ومنها وزيرا للاعلام وأن  
ممدوح سالم رئيس الوزراء يرفض فكرة وجود وزير آخر تابع لوزير  
الخارجية . وأن الرئيس نيتت لديه فكرة تعيين وزيرا للاعلام ، وأن هذا  
الاقتراح يلقى قبولا عام . وأخذ المرحوم على أمين يشدد الضغط على  
بضرورة قبول المنصب مهما كان الأمر ، والاح ييجي ضابط آخر : « قلت  
لعلى أمين : إنك تعرف أننى اعتذرت عن هذا المنصب فى ظروف أحسن  
وأنا فى كامل صحتى مرة من قبل ( وتلك قصة أخرى لامجال لها هنا ) ،  
وبالتالى فأرجوك أن تبلغ الرئيس السادات بلباقة اعتذارى عن ذلك . وبعد  
حوار طويل ، قال لى على أمين أنه سيعود فوراً الى حجرته فى فندق  
فلسطين ويتصل بالرئيس ويشرح له الأمر دون أن يترك فى نفسه أثرا  
سيئاً .

الواقعة الثالثة والأخيرة أن الاستاذ عبدالعزيز حسين وزير الدولة  
الكويتى اتصل بى من القاهرة وكرر على دعوة الكويت للذهاب اليها وتولى  
رئاسة تحرير مجلة العربى . قال لى ان رئاسة تحرير مجلة ثقافية شهرية  
فى بلد يعرفه كالكويت هو أقرب تلبية لطلب الأطباء من البعد عن التوتر  
النفسى والعصبى لمدة سنتين .

وكان الاستاذ عبدالعزيز حسين سبق وأن حمل لى خطابا من الشيخ  
صباح الأحمد وزير الاعلام سنة ١٩٧٢ عندما فصلنا الرئيس السادات من  
العمل الصحفى ، يعرض على هذا العرض . واعتذرت يومها بما قررناه نحن  
المفصولين من الا يقبل أحدا أى عمل قبل حل مشكلة المفصولين .  
واستشرت أطبائى الذين جندوا هذه الفكرة . فتوكلت على الله وقررت  
قبول رئاسة تحرير مجلة العربى فى الكويت ، وتسلمت العمل أول يناير  
١٩٧٦ . بعد أن استأذنت فى ذلك الرئيس السادات .

## قهور عثمان أحمد عثمان وأحاديث عن عبد الناصر

لم يكن ذكر جمال عبد الناصر يرد كثيرا في الاحاديث بين الرئيس السادات وبينى ، اقصى ان نذكره كان يتردد في مجال وقائع أو مواقف تاريخية سابقة يرويها السادات ويأتى فيها ذكر عبد الناصر . وهى كثيرة بالطبع ولكنى لا اذكر مناسبات كثيرة تناول فيها السادات « شخص » عبد الناصر بالتعليق .

وأول مناسبة اذكرها الآن جاء فيها على لسان السادات ذكر عبد الناصر فى واقعة تتصل بعلاقتهما . كانت فى زمن سابق بكثير . كانت سنة ١٩٦٠ فيما اذكر . وكنت قد سافرت ضمن وفد مع السادات ، رئيس مجلس الأمة ، الى « كوناكرى » عاصمة غينيا لتهنئة الرئيس « سيكوتورى » بالاستقلال وحضور أول مؤتمر لحزبه بعد ذلك الاستقلال . وفى طريق العودة ، لم تكن هناك أية طائرات الى كوناكرى إلا عن طريق باريس ، حيث كان الفرنسيون يعاملون المصريين معاملة الاعداء . فذكرى تأميم القناة وحرب السويس قريبتان وثورة الجزائر - وهو الأهم - على أشدها ، ومصر فى مصدر السلاح والمال والتدريب والدعاية للثورة ، فكانوا يعتبرون كل مصرى شرا مستطيلا . لدرجة أنهم أغلقوا على الوفد المصرى غرفة فى مطار أورلى ليس فيها الا بضعة مقاعد ، حيث قضينا الوقت بين الطائرة الآتية من القاهرة وبين الطائرة المتجهة من باريس الى كوناكرى . وقالوا لنا انه ليس مسموحا للمصريين بالتجول فى المطار ، رغم انه كان معنا رجل يحتل منصب رئيس مجلس الأمة ويحمل بالطبع جواز سفر دبلوماسيا .

واذكر اننا فى العودة ركبتا طائرة لشركة « بان امريكان » وكان ذلك فى عصر المحركات وليس التفاعلات . وكانت الرحلة تبدأ من كوناكرى فتدور حول الشاطئ الأفريقى الغربى كله ، تتوقف فى « دكار » ثم « باريس » وتستغرق الرحلة حوالى ١٢ ساعة . ودعائى الرئيس السادات الى الجلوس بجواره فى رحلة العودة وكانت تلك أول مرة تدور بيتنا - بحكم الوقت - أحاديث طويلة . وكانت أغلب أحاديثه عن ذكريات قيام الثورة وما بعدها وما

يتصل بها من أحداث وأشخاص مما لا أذكره الآن . ولكنني أذكر بوضوح أنه تحدث بأسباب عن جو مجلس قيادة الثورة بعد استتاب الأمر له . ومشاكل المجلس مع محمد نجيب ومشاكله هو شخصيا معه والكراهية المتبادلة بينهما .

وأخذ يروي كيف كان أصغر قرار لابد أن يناقش في المجلس . وبالتالي فكل جلسة من المجلس لابد أن تستمر من الغروب الى الصباح . وأحيانا كان المجلس - كما قال لي - يجتمع ١٦ ساعة متوالية . وقال لي : - لم يعد الوضع محتملا بالنسبة لي . وذات يوم صحت فيهم قائلاً إنه لم يسمع في حياته عن ثورة يقودها مجلس ويتناقش بهذا الشكل وتدار بأخذ الاصوات ! وانتم لا تجمع بينكم لا فكر واحد ولا خلفية واحدة . إنما الذي أعرفه أن أي ثورة لابد أن يكون لها قائد حتى ولو كان يعملونه عشرة مجالس . وقائد هذه الثورة هو جمال عبد الناصر . هو قائد هذه الثورة من الالف الى الياء . ومناقشتكم له بهذه الطريقة سوف تؤدي الى الشلل واضاعة الوقت . وإذا كنتم لا تقبلون حل المجلس من الآن واعطاء عبد الناصر سلطة كاملة ، على أن يجمعنا ويستشيرنا هو عندما يشاء فانا شخصيا زهقت من هذا الجدل اللبزنجلي المستمر . ولن احضر جلسات المجلس بعد الآن . أما صوتي فأنني ساكتب الآن توكيلا أعطيه لجمال عبد الناصر ، فيحسب صوتي اتوماتيكيا معه عند اخذ الاصوات على أي موضوع . وفعلًا - استمر السادات قائلاً لي - انه امسك ورقة وكتب عليها هذا التوكيل واعطاها لعبد الناصر وقال له : ضع هذا التوكيل دائما في جيبك .

وخلال الرحلة الطويلة سألته الى أين هو ذاهب بعد باريس . وقلت له : انني شخصياً جعلت أحد القادة الجدد في غيتا يحضر لي تأشيرة بدخول باريس والبقاء فيها اسبوعا . وقال لي السادات : انني أريد أن أقضى اسبوعا في مكان لا أسمع فيه بعد أيامنا في كوناكري كلمة واحدة من كلمات "استعمار" و"امبريالية" و"سود وبيض" و"تفرقة عنصرية" وأنا ذاهب الى النمسا ، إن النمسا أجمل مكان في نظري . وريف النمسا والطبيعة الغنية الخضراء هناك كأنها علاج بالنسبة لي !

والطريف ، انه بعد خمسة عشر عاما من هذا الحديث ، عندما ظهر "كرايسكي" على مسرح قضية الشرق الأوسط في السبعينيات ، وتعددت رحلات السادات بكثرة الى النمسا على اعتبار ان كرايسكي يهودي معاد للصهيونية ويتوسط بيننا وبين اسرائيل ، كنت أروي لاصدقائي تلك القصة واسألهم متفكها : يا ترى هل يسافر السادات حقا لأنه يعتقد في فائدة "كرايسكي" أم أن حب السادات للنمسا هو الذي وضع كرايسكي على خريطة الشرق الأوسط ؟



أعود من هذا الاستطراد الى ما كنت قد بدأت فيه من اسلوب السادات في الحديث معي عن عبد الناصر . اتحدث الآن عن سنتي ٧٥ ، ٧٦ . كانت الحملة المنظمة ضد عبد الناصر والثورة قد بدأت . ولكنها لم تكن قد وصلت الى ما وصلت اليه بعد ذلك من انحدار . وكان السادات يتحدث معي عن عبد الناصر بتحفظ ، فهو يعرف رأبي في هذه القضية ، كنت أحيانا انتقد عبد الناصر ، فيقول لي : لماذا إذن لا تكتب ذلك ؟ ، وكنت أقول له : سأكتبه فيه بعد ، أما لو كتبت الآن فسيبدو جزءا من حملة التشويه ! ولكنه كان أحيانا قليلة - فيما أتذكر - يحب أن يقارن بين نفسه وبين عبد الناصر .

كنا في حديقة بيت الجيزة تحت الشجرة المعتادة وإمامه مائدة عليها جهاز راديو وكان قد ادلى قبل ذلك بيثام بحديث الى الصحفي اللبناني المرحوم سليم اللوزي صاحب مجلة "الحوادث" وكانت الصحف اللبنانية أيامها تشن حملات عنيفة على السادات ، ونشر سليم اللوزي في حديث السادات قوله له : انا لم أقرأ الصحف اللبنانية منذ ستة اشهر . وجاء ذكر هذه الجملة ، وقلت له ضاحكا : لابد ان سليم اللوزي قد اغتاط جدا .

وقال لي السادات : انا لم اقصد ان اغيظه او اغيظ الصحافة اللبنانية ! ولكني فعلا لم أقرأ صحيفة لبنانية واحدة منذ ستة اشهر ولا أعرف ماذا تقول . وبدت علي وجهي الدهشة ، ففي ذلك الوقت كانت الصحافة اللبنانية قد أحرزت لنفسها مكانة مرموقة ومؤثرة في العالم العربي كله . ورأى السادات الدهشة المرتسمة علي وجهي ، فاستطرد قائلا :

- امال ايه اللي موّت عبد الناصر ؟ كلن بعد ما يشتغل ١٨ ساعة في اليوم ويجي ينام ، مش يسمع موسيقى ، او يأخذ حاجة مهدئة ، كلن منبه اتهم يحطوا له جنب السرير كل الجرائد العربية المليانة شتيمة فيه ، كان يقرأ السم الهاري ده قبل ما ينام ؛ وطبعاً ده موش نوم . وتاني حاجة موته "المدعوق ده" وأشار بيده الى جهاز الراديو . ثم استطرد قائلا : كان حافظ مواعيد نشرات الاخبار بتاعة العالم كله . سواء كلن لوحده او قاعد معنا ، كل شوية يفتح الراديو ويقول : لما نسمع اخبار لندن ! لما نسمع اخبار دمشق ! لما نسمع بغداد ! لما نسمع موسكو ! لما نسمع صوت امريكا ! انا بقة على عكسه تماما . لما يقولولي ان جرائد بيروت بتهاجمك اقول لهم مش عايز اتنوقها ! طيب ما انا عارف انا بعمل ايه وهم يقولوا عليّ ايه ! ايه الفائدة بقي اني اضيع وقتي واحرق دمي واقرأ الكلام الغارغ اللي بيقولوه .

ويذكرني ذلك بمقارنة مشابهة . كانت تلك المرة في استراحتي في مدينة الاسماعيلية سنة ١٩٧٦ وبالعادة ، ايلغنى السفير المصري في الكويت

اننى مطلوب فوراً من الرئيس فى القاهرة . وفى القاهرة قال لى مكتب الرئيس انه ينتظرنى فى الاسماعيلية وانه يقترح على ان ارتب نفسى على قضاء يومين أو ثلاثة هناك ، وقد رتبوا لى مكاناً فى استراحة هيئة قناة السويس ، وبالتالي على أن أخذ حقيبة صغيرة فيها بعض الملابس . كان عيد العمال فى أول مايو قد اقترب . وكنت اعرف أن الرئيس السادات قد استدعانى لكى اكتب له الخطاب الذى سوف يلقيه فى هذه المناسبة . وخلال اليوم السابق على سفرى ، علمت من زملائى بالصحف ان هناك حركة قلق بين العمال وهناك اضطرابات صغيرة ، ولكن ثمة حادثين كانا هامين : اضطراب عمال مصنع فى دمياط واحراقهم المصنع وتوجههم الى بيت رئيس مجلس الادارة وهجومهم على البيت والقاء مافيه غى الشارع . والحادث الثانى كان صداماً كبيراً بين الشرطة والعمال فى احد المواقع فى الاسكندرية . وكنت قد اهتممت بذلك لأن مناسبة الخطاب الذى سأكتبه للرئيس هو عيد العمال .

وصلت الى استراحة شركة قناة السويس بالاسماعيلية ومع الغروب صحبوني الى بيت الرئيس للحديث معه قبل تناول العشاء بوقت كاف ، وقابلنى السادات بالبيجامة والروب وهو فى حالة راحة وهدوء بال ، وبعد الاحاديث العادية ، ذكر انه استدعانى لكى اكتب له خطاب عيد العمال وهى فرصة لكى استريح يومين فى الاسماعيلية واتعرف على هدوئها وخضرتها وجمالها .

وسألت الرئيس كالعادة هل لديه اشياء محددة يريد أن يقولها فى خطاب أول مايو . وكان السادات كثيراً ما يقول لى حتى بصدد الخطابات : تصرف انت ! وسأقرأ الخطاب بعد ذلك . وقلت له اننى سمعت قولاً عن قلائد عمالية ، وإننى افضل ان نجد طريقة للإشارة اليها ولو تلميحا بطريقة تجعل العمال يشعرون ان الرئيس مدرك ومتابع لمشاكلهم ، يصرف النظر عن أى وعود ليست فى حسابات الحكومة . اذ ليس مفيداً ان يشعر العمال ان أصواتهم لا تصل الى مسامع رئيس الدولة أو لا يهتم بها . وقال لى السادات : طبعاً ! أنت قاعد فى الكويت وتسمع الاذاعات التى ينتشروها علينا بره . القاعدة العمالية سليمة وليست هناك اى مشكلة ! وكبرت على الرئيس اننى سمعت من القاهرة لا من الخارج عن اضطرابات ومشاكل عمالية لا يجوز تجاهلها ، وقال لى السادات :

- أنت قصدك على حكاية دمياط وحكاية اسكندرية ؟ دى مش مشاكل -  
اللى حصل فى دمياط سببه ان رئيس مجلس الادارة ( .... ) ميعرفش يتصرف ، واللى حصل فى الاسكندرية شغب شوية عيال . وعلشان تعرف انها حاجات تافهة انا بقولك انى ولا سمعت عنها إلا بعد اسبوع تقريبا .  
ومرة أخرى ظهرت الدهشة على وجهى ، واستطرد السادات قائلاً :  
- انا لما قلت مرة ان عبد الناصر كان رى الوتر المشدود ، متوتراً دائماً وينشر التوتر حوله ، افتكرونى يهاجم عبد الناصر . لكن هو كان كده

صحيح ! لازم يتابع اهيف حاجة تحصل . اذا قامت حريقه فى كام كيس  
تظن فى شوية بنك التسليف فى قرية كذا ، لازم يصحوه من النوم وسط  
الليل ! وينزل من حجرة نومه الى مكتبه فى الدور اللى تحت ويبتدى يضرب  
تليفونات . تليفون للمحافظ ! وتليفون للمطافى ! وتليفون للعمدة ! وتليفون  
للشرطة ! وبعدين ما يصدقهمش فيضرب تليفون لمصطفى امين فى  
" اخبار اليوم " ولهيكمل فى " الاهرام " علشان يشوف معلومات الجرائد زى  
معلومات الادارة ولا لا ! ويفضل كده كانه بيقتود معركة ستالنجراد لحد وش  
الصبح ! لما يقولوك ان الحريقه انطفت ! هو ده شغل رئيس جمهورية  
ورئيس دولة عنده مسئوليات محلية وعربية وعالمية ؟ انا طريقتى غير كده ،  
انا عامل مؤسسات . وكل واحد يشيل مسئولياته . وفيه رئيس وزارة وفيه  
وزراء ومحافظون . وفى يوم محدد لكل اسبوع يچى لى ممدوح سالم -  
كان وقتها رئيسا للوزراء - ويدينى تقرير عن الحالة العامة فى البلد . وانا  
ماسمعتش حكاية دمياط وحكاية الاسكندرية إلا لما جالى ممدوح فى  
مبعاده الاسبوعى وحكى لى ضمن التقرير عن البلد ، لأنها حوادث مش  
مهمة وتدخل فى اختصاصه .

كانت مقارئة صريحة للغاية . ولا اقارن هنا بين طريقة الرئيسين . ولكن  
المؤكد فى تقديري ان المبالغة فى كل طريقة خطأ . مبالغة اى رئيس دولة  
فى تتبع التفاصيل بالصورة الكاريكاتيرية التى رسمها السادات ، او  
المبالغة فى عدم متابعة المشاكل الداخلية بالدرجة الكافية .

لكنها كما قلت مقارئة صريحة جدا من الرئيس السادات . فلا اكاد انكر  
اننى رأيته يوما جالسا فى مكتبه . ولا اكاد اذكر اننى رأيته يوما وامامه فى  
الحديقة او فى الصالون اى أوراق أو ملفات انما كان يدير الدولة كلها  
بالتليفون فقط . وكنت ذاهبا اليه ذات مرة فى المعمورة ، واستبقانى مدير  
مكتبه فوزى عبد الحافظ فى غرفته فترة ، اذ كان هناك وزير جديد اتى  
ليحلف اليمين لأنه كان فى الخارج . واظن انه الوزير عبدالفتاح عبدالله .  
وطلب لى فوزى عبد الحافظ ان انبه الرئيس الى كذا وكيت . وكانت اشياء  
هامه تتعلق - ان لم اكن مخطئا - بأحداث عربية تهم مصر . وسألت فوزى  
عبد الحافظ همسا : هل توقفت عن اعداد النشرة اليومية التى تقدم للرئيس  
من ايام عبد الناصر صباح كل يوم وفيها أهم الأنباء ؟ وقال لى فوزى عبد  
الحافظ : إزاي ؟ احنا بنعمل النشرة كل يوم وأحسن من الاول ! وقام  
واخرج لى كمية من هذه النشرات للتدليل على انه وجهازه يقومان  
بواجبهما . ثم استطرد قائلا : لكن انت عارف الرئيس من زمان مالوش  
خلق على القراءة ، ودلوقت بقيت مشاغله كثيرة جدا ، انا باحطله التقرير  
على " الكموديتو " جنب السرير كل يوم . لكن يفضلوا يزيدوا لحد ما يبقوا  
عشرين تقرير والرئيس مافتحهمش فيقول لى : شيلهم بقى ! لازم الحاجات  
اللى فيهم بقيت قديمة . فتأخذ النشرات وابدأ من اليوم التالى فى وضع  
النشرات اليومية الجديدة !

فى تلك الايام التى قضيتها فى الاسماعيلية لم يكن معنا الا المهندس عثمان احمد عثمان . كنا نقضى الصباح فى الحديث ، ونتقضى معاً ثم يذهب كل منا الى مكانه للراحة بعد الغداء وثلثى ثانياً حوالى الساعة السادسة أو السابعة عصراً حيث نستأنف الاحاديث ونتناول العشاء وننصرف . أو انصرف انا على الاقل . مرة واحدة فقط خرجنا عن هذا الروتين ، إذ قال لى الرئيس إنه سيأخذنى صباح غد معه فى جولة بالهليكوبتر سوف تعجبنى بصفة خاصة ، وبالفعل ركبت الهليكوبتر صباح اليوم التالى مع الرئيس والمهندس عثمان احمد عثمان وبعض كبار الموظفين ولما حلقت بنا الهليكوبتر قال لى الرئيس : انت فاكركم مكالمة عن رسم خريطة لمصر ؟ وضرورة التوسع والخروج من الودى والدلتا ؟ فاكركم كلامك عن التعمير وتسكين المنطقة الاستراتيجية بين قناة السويس ومحافظة الشرقية ؟ الكلام ده مباحش كلام جرائد . احنا ابتدأنا فيه فعلاً . وأخذت الهليكوبتر تقترب بنا من الارض وتحلق فوق منطقة قالوا لى ان اسمها الصالحية . وان أول عملية استصلاح واستزراع واقامة مجتمع جديد ستكون هنا ، وكان المهندس عثمان احمد عثمان وكبار الموظفين يشرحون لنا بالتفصيل أفكارهم المقبلة عن هذا المشروع .

إن من أهم ما خرجت به من هذه الايام فى الاسماعيلية ، هى العلاقة الجديدة بين السادات والمهندس عثمان احمد عثمان . كانت هذه العلاقة قد بدأت تنتشر ويتحدث عنها الناس ، وان كانت لم تكن قد تثبتت بعد ، فقد لاحظت انه مازالت هناك درجة من "التكليف" بينهما . ولكن اتضح لى بسرعة ان السادات قد اصبح شديد الانجذاب الى شخص عثمان احمد عثمان . كان اذا تأخر دقائق عن موعدنا فى اللقاء صباحاً أو مساءً ، اخذ السادات يسأل ويتسائل اين عثمان وما الذى اخره فى لهفة ملحوظة . كمن يسأل عن شخص صار لا غنى له عنه . وقدريت ان السادات قد نما فى نفسه تعلق شديد بشخص عثمان . وهذا امر معروف فى العلاقات الانسانية حين يشعر واحد منا بهذه الجاذبية نحو شخص من اصدقائه وكأنه توأم له ويجس اذا غاب ان شيئاً ما ينقصه واقتنعت بأن المهندس عثمان احمد عثمان سيكون له شأن كبير فى حياة السادات .

وانكر اننى ذات ليلة بعد ذلك بفترة كنت مدعوا الى العشاء بين عدد قليل لدى الدكتور محمد عبدالوهاب وزوجته الفنانة السيدة فائق حمامة ، وكالعادة انتحى الرجال جانباً بعض الوقت وكان فيهم وزراء سابقون ولاحقون ومهندسون مرموقون ، وجاء ذكر علاقة عثمان احمد عثمان بالسادات وما يتردد حولها من شائعات . فبعض الناس يقولون انها علاقة مليوتير برئيس يحب المال ، وبعض الناس يتحدثون عن انباء تتردد حول مصاهرة مقبلة بين ابنة الرئيس وابن عثمان احمد عثمان ، و آخر يقول إن هذا المشروع قد فشل ولا بد ان تفتت العلاقة بين الاثنين بسبب ذلك ..



وقلت لهم : اسمعوا ! لقد انفردت بالاقنن بضعة ايام منذ فترة واحب أن أقول لكم إن هذه العلاقة أكثر كثيرا من علاقة فلوس أو علاقة تسب . لقد لاحظت بوضوح أن السادات ينظر الى عثمان كأنه قد عثر على ثوأمه وشقيق روحه . اننا أمام شخصين تربطهما علاقة كأنها تابعة من اعماق نفسية متشابهة تماما أو متكاملة الى اقصى حد . وبالتالي فهما حدث فالسادات لن يستغنى عن وجود عثمان معه بعد الآن ، لأنه وجد فيه شيئا يكمله وأكملوا حسابكم على كده !

ولم يلق التحليل النفسى والوجدانى الذى شرحته قبولا لدى الحاضرين ، لكن تطور علاقة الرجلين بعد ذلك بالشكل الذى صار معروفا ، حتى صار الاسم الشعبى للدولة هو « الدولة العثمانية » قد أثبت فيما أعتقد ما توقعته ، ومهما قيل بعد ذلك عن تطورات هذه العلاقة ونشعبها ، فأننى أعتقد ان مالمحتة بقى هو المفتاح الحقيقى فى تفسير هذه العلاقة .

تبقى واقعة صغيرة من وقتئذ تلك الايام فى الاسماعيلية . اكدت لى وقتها هذا المعنى السابق ، فالسادات كلن سيلقى خطاب عيد العمال فى السويس . ولما لم يكن لدى الدولة شىء سياسى أو عمالى جديد يقال . فقد ركزت الخطاب على الاشادة بدور عمال مصر منذ هزيمة ١٩٦٧ حتى حرب ١٩٧٣ . من صمودهم فى المصانع والموانئ تحت القصف الاسرائيلى المستمر ، إلى استمرارهم فى العمل ببسالة لاطفاء حريق خزانات البترول فى ( الزيتية فى السويس ) تحت ضرب المدفعية الاسرائيلية ، انتقاما لاغراقنا البارجة الاسرائيلية « إيلات » بعد الهزيمة بإسابيع ، وهم يهجمون ببسالة على خزانات البترول المشتعلة بتياران رهيبه ( وقد كنت هناك ذلك الفجر ورأيت هذا المنظر ) ، انتهاء بدور جميع عمال مصر فى بناء حائط الصواريخ المشهور تحت غارات الطائرات الاسرائيلية ٢٤ ساعة فى اليوم . وهو جهد اشتركت فيه - كما ذكرت فى مشروع الخطاب - كل شركات المقاولات العامة والخاصة وكل العمال من أنحاء القطر المصرى .

وبعد أن عدت من الاسماعيلية . استمعت الى الرئيس السادات وهو يلقي هذا الخطاب - لم يغير حرفا واحدا فيه ، لم يقدم كلمة ولم يؤخر أخرى - ولكنه غير شيئا واحدا فقط : ففى الحديث عن مشاركة كل العمال من خلال كل شركات المقاولات فى بناء حائط الصواريخ ، غير الرئيس هذه الجملة وقصر الفضل فيها على نكر شركة المقاولين العرب وعمال المقاولين العرب ( عثمان احمد عثمان ) وساعتها اكدت لى هذه الملاحظة العابرة المكانة غير العادية التى صارت لعثمان احمد عثمان لدى السادات .

رواية السادات عن دخول سوريا إلى لبنان :

كنت في إحدى زيارتي للقاهرة ، وقابلت الرئيس السادات ..  
كانت الحرب الأهلية في لبنان [ ١٩٧٦ ] قد بدأت تأخذ شكلا رهيبا  
مروعا . وقلت للرئيس السادات أن على الدول العربية أن تفعل شيئا .  
وناقشنا أوضاع البلاد العربية بهذا الخصوص . وقلت له أن مصر عليها  
على أية حال واجب أدبي يجب القيام به .

وبادرني قائلا : ماذا تستطيع أن تفعل في لبنان ؟ هل أفعل مثل  
عبدالناصر ، أرسل رجال مخابرات واجند ميشيليات وادفع أموالا ؟  
قلت له : بالطبع لا .. فالظروف تغيرت تماما ...

قال : إذن ؟ أصدر بيانًا باستنكار ما يحدث وادعو إلى وقف القتال ؟  
اتفضل اكتب أي بيان وسوف أوقع عليه فوراً ! الكل يصدر بيانات :  
قلت له : حتى ولو توقف الأمر عند إصدار بيان فقط فلا بأس بذلك .  
لأن مصر هي الدولة الوحيدة التي لا مصلح لها ولا وكلاء في لبنان .  
وليست متهمه بمؤامرة فريقي دون فريقي . ولكن عندي اقتراح آخر : ان  
تقف وتدعو إلى عقد مؤتمر قمة مصغر ، تحضره مصر وسوريا  
والسعودية والعراق والأردن والكويت .. فوراً « في دمشق » ! ..

قال لي : .. رغم الحملات التي تشنها على صحافة دمشق ؟  
- نعم فانت حين تدعو إلى الاجتماع في دمشق بالذات ، فانت  
تضرب بذلك مثلاً على تجاوزك عن حقل في سبيل المصلحة القومية  
فيخجل غيرك من عدم تلبية الدعوة ، ستنبو انت كبيراً . ثانياً فان  
وضع سوريا إزاء لبنان وضع خاص بلا جدال . في دمشق تكونون على  
مقربة من الاقتتال الدائر . وإذا اردتم استدعاء أحد الأطراف ولا بد من  
ذلك ، فالدعوة سهلة : رئيس الجمهورية سليمان فرنجية ، أبو عمار ،  
كمال جنبلاط ، كميل شمعون .. إلى آخره ..

كان تقني يرى ان هذه الدول المقترحة لديها قوة ضغط كافية على  
الفئات المتحاربة في لبنان . وقلت له ان فلسطين ضاعت واحشني ان  
تستفيد اسرائيل من الموقف وتضيق لبنان . وكيف يمكن للرأي العام  
العربي ان يصدق ان زعماء قادرون على إعادة الأراضي المحتلة اذا  
كانوا غير قادرين على منع ضياع لبنان ؟ وان الضغط على كميل  
شمعون او كمال جنبلاط اصعب من الضغط على جولدا مائير ...  
وظل السادات يحاورني طويلاً في هذا الأمر ، وأنا ألح عليه  
بمداومة الجدل بشكل غير مألوف حتى قال لي كأنه ضاق ذرعاً :  
- طيب .. مادام بقلح كده .. احب اقولك ان الموضوع جسم !

- انا، ياريس ؟

- الجيش السوري سيدخل لبنان خلال ٤٨ ساعة !

- مستحيل ياريس ! والوضع الداخلي ؟ .. ورد فعل اسرائيل ؟  
- جيرالد فورد (الرئيس الامريكى فى ذلك الوقت وكان وزير خارجيته هو كيسنجر ايضا) طلب من حافظ الاسد ان يدخل الجيش السوري لبنان لانقاذ الموقف ، لانه لا يوجد حل آخر ، وحتى لا يحدث رد فعل اسرائيلى يلخبط الدنيا ...

- وعلى اى اساس سيتم هذا الدخول ؟  
- رتبت امريكا مع سليمان فرنجية انه كرئيس للدولة يطلب القوات السورية .. وامريكا ابلغت اسرائيل وابلغت الأردن بها سوف يحدث حتى لايقهم احد دخول الجيش السوري على غير حقيقته !  
وعندما كررت دهشتى وارتيالى ، قال لى : انت قاعد معانا فى مصر لحد امتى ؟

- لآخر الاسبوع .

- طيب اذا لم يدخل الجيش السوري لبنان بعد ٤٨ ساعة ، تعالى الى هنا فى البيت بدون موعد وحاسبنى على هذا الكلام ..  
وبعد ٤٨ ساعة ، دخل الجيش السوري لبنان ...  
إعلان قيام الاحزاب :

بهاء على الاستدعاء التقليدى عن طريق السفير المصرى فى الكويت السفير عزالعرى امين ، ذهبت الى القاهرة .  
كان موعدى مع السادات وقت الغروب فى استراحة القناطر وكانت الانتخابات التى اجرتها وزارة ممدوح سالم وخاضتها « المنابر » لأول مرة قد انتهت بشكل مقبول عموما من الراى العام .  
ويوم موعدى مع السادات كان اليوم الذى جرت فيه صباحا انتخابات الاعادة فى الدوائر التى لم يفز فيها احد اول مرة بالاغلبية المطلقة .  
وحين ذهبت الى السادات قال لى انه طلبنى لكى اكتب له الخطاب الذى سوف يلقيه فى جلسة افتتاح البرلمان الجديد .

ولم يكن هناك مجال لمناقشات طويلة عما سوف يرد فى الخطاب بوجه عام . الا نقطة واحدة ادت الى نشوب الجدل والنقاش بيننا الى ما بعد منتصف الليل . قال لى السادات :  
انه سعيد عموما بالانتخابات . وانه يعتقد ان تجربة المنابر الثلاثة [ اليمين والوسط واليسار ] قد نجحت . وانه يريد ان يعلن فى جلسة افتتاح البرلمان قراره بان تتحول المنابر الثلاثة الى احزاب . وقال فى تبرير ذلك ان المنابر الثلاثة قد خاضت الانتخابات على انها احزاب بالفعل وقدمت للناخبين برامج مختلفة وتصارعت على هذا الاساس فلم يبق الا اعلان تغيير اسمها لتكون عندنا حياة برلمانية حزبية .

وقلت للرئيس : ان هذه خطوة عظيمة . ولكن هناك مشكلة بسيطة وهي ان الدستور لا ينص على وجود احزاب . والحل البسيط هو ان يعلن الرئيس في خطاب الافتتاح هذا الرأي وان يطلب في الوقت نفسه ان تجتمع اللجنة التشريعية في البرلمان على الفور لاعداد مشروع التعديل الدستوري اللازم لقيام الاحزاب .

ولم يوافق السادات على هذا الرأي تصورت اول الامر انه يريد ان يكون له تاريخيا فضل اعادة الحياة الحزبية . ولذلك قلت له بلباقة ان اعلانه ذلك سيحفظ له هذا الفضل وانه هو الذي سيطلب هذا الاجراء الدستوري الذي لا بد منه . ولكنني شعرت بعد ذلك من شدة مقاومة السادات لهذا الرأي المنطقي بأنه لا يريد ان يفتح باب التعديل في الدستور ولو ه ليلة واحدة ولمادة واحدة ، كما قلت له خلال المناقشة الطويلة .

والغريب ان السادات اخذ يؤكد لي ان الدستور ليس خاليا فقط من اي مادة تحول دون قيام الاحزاب ، بل ان فيه نصا ينطوي على معنى السماح بقيام احزاب . ولما اكررت ذلك صفق بيديه مستدعيا احد العاملين وطلب منه ان يصعد الى غرفة النوم ويأني منها بنسخة الدستور الموجودة فيها . وجاءت نسخة الدستور وقرأ لي السادات مادة لا اذكرها الان ولكنها في مكان ما من الدستور ولم اجد لها اي علاقة بالاحزاب ولا حتى تنظيم السلطة التشريعية . ولذلك كان طبيعيا ان لاوافق السادات على ماذهب اليه في هذا الشأن .

وبعد مناقشات مضمينة كان محور حججي فيها هو : لماذا الاعتراض على ان يطلب الرئيس في خطابه ان تنعقد اللجنة التشريعية فورا وتعد في نفس اليوم المادة المطلوبة والتي لن يعترض عليها احد بالتأكيد بل سوف تقابل بالترحيب .

وانكر انني قلت فيما قلت للسادات : ان خطايا للرئيس ولو تحت قبة البرلمان لا يقيم حقا دستوريا غير موجود . وان ممدوح سالم رئيس الوزراء ورئيس « منبر مصر » لو اعلن تحويله الى « حزب مصر » فان من حق اي مواطن ان يقوده الى النيابة العامة ! وان ممدوح سالم لا يستطيع ان يدافع عن نفسه وحزبه مستندا الى خطاب رئيس الدولة ولو القاه تحت قبة البرلمان وصفق له النواب حتى الصباح !!

وفي مرحلة اخرى من الجدل ، قلت للسادات : سوف افترض انني على خطأ ، وان الدستور يسمح بقيام احزاب ، فأتى ياريس النصر في هذا الدستور على تحديد عدد الاحزاب بثلاثة فقط ؟ واين النص الذي يسمح لي بتكوين حزب رابع او يمنعني من ذلك ؟ انني متمسك ياريس فاته لا بد من تعديل دستوري ينص على كل ذلك ، او بتعديل اسرع وايسر ينص فقط

على حق تكوين الاحزاب ، وقانون ينظم القواعد الخاصة بذلك .  
وانتهى الرئيس السادات الحوار الطويل بعد منتصف الليل بان قال لى :  
يا احمد ، لازم تكون عرفت طريقتي ! طريقتي ان اعلن قرارى وبعد كده  
تشوف اذا كان هايز تعديل ، نعمل تعديل ، واذا كان عايز قانون نعمل  
قانون ، لانى لو قعدت ادرس فى كل قرار علشان يطلع مايخوش الميه ،  
يبقى عمرى ما حاطع قرارات !!  
وقال : كفاية اعلن فى الخطاب قيام الاحزاب ، وبعد كده تشوف ايه اللى  
يحتاجه الموقف .

وقد ثبت فى يقينى وقتها ان السادات لا يريد ان يلعب خكاية « الثلاثة  
احزاب فقط » وان اى نص دستورى سوف يفتح الباب امام احزاب اخرى  
وتيارات لا يريدوها . وتجددت مناقشة قديمة بيتنا عن رايى فى ان تحديد  
التنظيمات السياسية بثلاثة - يمين ويسار ووسط - هو تحديد تعسفى ،  
لا يتم بقانون ولكن يتم عبر تضيق الحركة السياسية ... الخ  
واذكر من تلك الجلسة اننا ونحن فى حمى النقاش ، وقد نزل الليل ، ان  
المهندس سيد مرعى رئيس مجلس الشعب ، وصل هو وزوجته يدور سابق  
موعد . وجلس معنا بضع دقائق ثم استأذن سيد مرعى فى الصعود هو  
وزوجته الى الطابق الاعلى للجلوس مع حفيدهما الجديد ، وهو السبب الذى  
جاء من اجله ، واذكر ان السيدة جيهان السادات كانت متغيبه عن القطر  
فى رحلة الى اسيا .

وبعد ساعتين تقريبا نزل المهندس سيد مرعى وزوجته ، وابدئ دهشته  
من اننا مازلنا نتناقش . ودعاه السادات الى البقاء اذا اراد . وقعلا  
انصرفت السيدة حرم المهندس سيد مرعى وبقي هو .  
كان السادات يجلس على مقعده « الهزاز » مواجه لى ، وسحب سيد  
مرعى مقعدا الى يسار السادات . ورغم ان المناقشة كانت تدور حول  
صميم الدستور ، فان المهندس سيد مرعى لم يشترك فى المناقشة بكلمة  
واحدة . ولكنه كان يهز رأسه من حين الى آخر بما يعنى انه يؤيدنى فيما  
اقول .

وكان المفروض ان تكون نتائج انتخابات الاعادة قد بدأت فى الظهور  
وكان السادات كل نصف ساعة يطلب من سيد مرعى ان يسأل بالتليفون  
عن نتيجة سيدة مرشحة فى احدى دوائر الاسكندرية - لا اذكر اسمها  
الآن - الآن وهل نجحت ام لا . وتكرر هذا عدة مرات .. ودهشت من اهتمام  
السادات بهذه المرشحة . وفى صباح اليوم التالى اسرعت الى الصحف  
لاجد انها كانت مرشحة ضد مرشح من الاخوان هو الاستاذ عادل عيد !  
وقرب منتصف الليل ، نهض سيد مرعى واقفا ، وقال : انا بقى حاروح ،  
الظاهر انكما ستتناقشان حتى الصباح .



## مناقشة في الكويت : من هو ديفيد ؟

كان ذلك على الأغلب في سنة ١٩٧٦ . كنت أقيم في الكويت حيث توليت رئاسة تحرير مجلة العربي ، بعد استقالتى من رئاسة تحرير الأهرام ، وبناء على نصيحة الأطباء لى بالبعد عن جو التوتر النفسى والضغط العصبي سنة أو سنتين . وكان السادات قد اشترط علىّ قبل قبولى هذا العرض أن أستمرفى كتابة مقالى الأسبوعى فى جريدة "الأهرام" بعنوان "حديث الأحد" . وقال السادات فى تقرير ذلك أن خروج محمد حسنين هيكل من الأهرام أحدث ضجة وانه لا يريد ان يحدث خروجى وانقطاعى عن الكتابة فى الأهرام ضجة أخرى والضجة الأولى لم تهدأ بعد . وان استمرارى فى الكتابة سوف يعنى اننى لست مهاجرا ولا ممنوعا من الكتابة . ويومها رحبت بذلك قائلا للرئيس : ان "حديث الأحد" ينشر منذ سنوات فى الأهرام وفى الكويت وفى غيرهما من البلاد العربية وان هذا الوضع سوف يستمر واقعيا دون تغيير .

وكان الرئيس السادات يطلبنى من الكويت فى مناسبات معينة اما لكتابة خطاب هام له أو للتشاور فى بعض الأمور كما جاء أو سيجىء فى هذه الأحاديث .

وفى تلك السنة كانت علاقات السادات بدول البترول حميمة جدا . يزور حكامها ويزورونه باستمرار . ويلبون طلباته لمساعدات مالية بشكل أو بآخر . وأعلن عن زيارة للسادات فى الكويت ، أظن انها كانت آخر زيارة ، ضمن جولة فى بعض دول شبه الجزيرة . وقبل قدومه كانت الهمهمات قد بدأت ترتفع فى دول الخليج عن طلبات مصر المالية التى تاتى فى أوقانا مفاجئة غير معروفة مقدما . وهمهمات أخرى عن سوء استخدام هذه المساعدات فى مصر ، بين ضياعها فى تسديد نفقات استهلاكية ، وبين احاديث متصاعدة عن قصص من الفساد بدأت تطلق على السطح . وبالتالي فقد شعرت أن الجر ليس سهلا لزيارة ناجحة .

وعلمت من بعض الأصدقاء من الخبراء الاقتصاديين أن ثمة اقتراحا ،  
مصدره الكويت بالذات ، بأن تتفق دول الخليج على تكوين نوع من  
"الصندوق" لمساعدة مصر ، تكون الالتزامات فيه واضحة ومحددة  
والانفاق منه تحكمه درجة من الانضباط .

ودعاني السفير كما يدعو عادة بعض البارزين من أبناء الجالية المصرية  
في الكويت الى حضور استقبال الرئيس السادات في المطار . وهناك وقفت  
في صف أبناء الجالية المصرية فترة وصافحتي الرئيس عندما وصل الى  
وقال لي انه يريد أن يرانى الليلة بعد العشاء الرسمي ، قبل أن يسافر في  
اليوم التالي .

كان السادات قد جاء مع وفد كبير من شتى الوزراء البارزين اذكر منهم  
المهندس عثمان احمد عثمان والدكتور اسماعيل فهمي والدكتور ابراهيم  
حلمي عبدالرحمن ولم يكن الاستقبال الرسمي يتم حتى جريت من الصف  
الذى كنت واقفا فيه الى أن عثرت على أول مسئول كبير . وكان الدكتور  
ابراهيم حلمي عبدالرحمن بالذات .

وقلت له في ايجاز لا مفر منه والناس تتركب سياراتهم للانصراف : لا  
يوجد "كاش" هذه المرة ! انما يوجد "صندوق" سوف تطرح فكرته  
عليكم . فرد على الدكتور ابراهيم حلمي عبدالرحمن وهو يركب السيارة :  
لقد سمعنا اقتراح الصندوق لأول مرة في الرياض . فالأمر إذن متفق عليه .  
وكان السادات قد سجل حديثا تليفزيونيا مع الصحفي الكويتي  
المعروف الأستاذ أحمد الجار الله صاحب جريدة "السياسة" لكي يذاع  
يوم وصوله ، بقصد شرح موقف مصر الاقتصادي . وكان حديثا غاية في  
عدم التوقيف . فقد كان السادات وقتها يكرر في أحاديثه وخطبه جمل من  
نوع : أن اقتصاد مصر تحت الصفر ! أن مصر ليس في عروقتها نقطة دم  
واحدة ياقية ! بل قال في هذا الحديث وفي غيره : أن مصر حاربت لأنها  
أقلست ولم يعد في جيوبها قرش واحد !!

ومما زاد في سوء الظروف في تلك الزيارة أن الحملة الشرسة ضد ثورة  
٢٢ يوليو وضد جمال عبدالناصر كانت قد وصلت في مصر الى اقصاها .  
وكان هذا يلقي اشمئزازا شديدا من الرأي العام والصحافة في البلاد  
العربية بوجه عام . وكان الاعتقاد الشائع - وهو في تقديرى صحيح تماما -  
أن السادات هو مخطط وموجه هذه الحملة . وأنه يسخر صقحات الاعلام  
المصري لحزب الانتقام من الثورة ومن جمال عبدالناصر . وكان كلما  
اشتدت الحملة وبدأت تحدث رد فعل مضاد ، انهز مناسبة في إحدى  
خطبه ليعلن انه أمين على اسم عيد الناصر وسمعته وعائلته ولكن بطريقة لا  
يخفى على أحد أنها تمثيلية على طريقة خطبة انطونيو المشهورة "ولكن



بروتس رجل نبيل" وقد صارت عبارة "الله يرحمه" كلما ذكر جمال عبدالناصر نكتة شائعة إذ كان كل من يسمعها يفهمها على أنها تعنى العكس تماما .

وكانت إحدى قمم تلك الحملة هي اتهام جمال عبدالناصر بأنه اختلس عشرة ملايين دولار ! كانت قرصا عن الملك سعود لمصر . وقد كتبت مقالا في الاهرام تعليقا على الكتاب الذي احتوى على هذا الاتهام والذي نشر في الصحف على اوسع نطاق ولكن المقال منع من النشر ، اذ صدر من أجله قرار من النائب العام بعدم نشر أي شيء عن الموضوع ، وقد كان المقال حول الموضوع ويعنوان "بعيدا عن تحقيق النية" ، وليس في صميم الموضوع الذي تحقق فيه النية . واستطردا حول هذا الموضوع ، أمر السادات بتشكيل لجنة لبحث الموضوع تحت ضغط الرأي العام ، وحين تم التقرير الذي أكد براعة عبدالناصر من هذا الاتهام السخيف الرخيص ، كان السادات يلقي خطابا في البرلمان ، فأعلن ان التقرير يبرئ عبد الناصر وانه يودع التقرير امانة مجلس الشعب (١) ولم ينشر التقرير على الناس . فتلك كانت طريقته في بقاء الشبهة تحوم في الفضاء .!

لذلك - وتلك مصادفة أخرى - كان مجلس الامة الكويتي سوف يصدق يومها على آخر اتفاقية تكمل انسحاب الشركة الانجليزية التي كانت تحتكر يتروك الكويت وتسليمها آخر مابقى من نصيب لها الى حكومة الكويت . وانتهز نواب البرلمان الكويتي من كل الاجتماعات الفرصة ، ليردد كل منهم في تعليقه على نجاح الكويت في المفاوضات وفي املاك بترونها كله ، انه لايد في هذه المناسبة من ذكر جمال عبدالناصر الذي كان اول من قال "بتروك العرب للعرب !" في وقت كان يبدو فيه هذا الكلام حديث خرافة وفي كفاحه الطويل لتكسير أتياب الأسد البريطاني مما جعل انجلترا تغير سياستها وتسلم على مائدة المفاوضات مالم يكن احد يستطيع ان يحدثها فيه . وكان جزء من هذه الخطابات مقصود به ان يسمع عنه أنور السادات .

وفي الليل اقيمت للسادات مأدبة عشاء رسمية ، كنت مدعوا اليها مع مئات من الشخصيات الكويتية والمصرية . وعندما صافحني السادات مرة أخرى بين الحاضرين قال لي : انا في انتظارك في الاستراحة بعد العشاء مباشرة .

وحدث حادث غريب مفاجيء . اذ تقدم الى السادات أحد كبار القوم من الكويتيين وقال له على مسمع من الموجودين المحيطين . يا سيادة الرئيس ، نحن لا نقبل ان يقال في مصر ان جمال عبدالناصر قد اختلس عشرة ملايين جنيه وانا شخصا ، ويشهد كل الاخوان الواقفين ، كنت ضد

جمال عبدالناصر ، وكانت ضد حرب اليمن بالذات . ولكن أن يقال أن جمال عبدالناصر الذي كانت خزائن مصر كلها في يديه ، وخزائن العرب إذا شاء ، قد اختلس عشرة ملايين دولار فهذا عار على الأمة العربية كلها ، التي كان جمال عبدالناصر - شئنا أم أبينا - رمزاً لها في العالم كله . وأبنتى أطلب من سيادتك أن تقول لنا أي مبلغ ترون أنه في ذمة جمال عبدالناصر للخزانة المصرية ، وسوف ندمو الشعب الكويتي للتبرع به وتسديده عنه . وسيجمع الشعب الكويتي أي مبلغ في أقل من ٢٤ ساعة .

واستلزاماً أخير حول حكاية العشرة ملايين دولار ، فقد كان رئيس اللجنة الذي اختير لفحص الموضوع وتقديم التقرير هو المرحوم الدكتور على الجريتي أحد أتبع خبراء وزراء مصر الاقتصاديين وأكثرهم نزاهة وسمعة دولية . وقد استقال من منصب وزير الاقتصاد من حكومة الثورة في موعد مبكر هو سنة ١٩٥٧ ولم يقبل من وقتها رغم تكرار المناسبات أي عرض للعودة إلى السلطة . وأكتفى بعالم الاقتصاد الخاص والبنوك الدولية .

وقد قابلت الصديق الكبير الدكتور على الجريتي مرة بعد حكاية التقرير "وايداعه مجلس الشعب" فسلاته عن التقرير وقال لي الدكتور الجريتي : انني لم أسمح لأحد في اللجنة أن يشاركني في العمل وقد قمت شخصياً بمطابقة كل الموضوع حتى الذهاب بنفسى إلى مكتب أصغر موظف في وزارة الخزانة والاقتصاد لفحص كل ملف بنفسى . وقد كانت هذه أول مهمة أقبلها من الدولة الرسمية منذ سنة ١٩٥٧ . وقد قبلتها لاننى كنت واثقاً من النتيجة Too Proud Tobe Corrupted " فقد كان عبد الناصر أكثر كبرياء من أن يقبل بأى افساد له . "

ثم استطراد الدكتور على الجريتي قائلاً : بعد موت عبدالناصر بسنة تقريباً كنت في مقابلة مع رئيس البنوك السويسرية وإذا به يقول لى أن المخابرات الأمريكية والمخابرات الإسرائيلية قد "هككتنا" شهوراً طويلة . وسألته لماذا ؟ فقال لى الرجل السويسرى : لقد حاولوا بأى طريقة العثور على أى حساب باسم جمال عبدالناصر فلم يجدوا . " المهم ، أننى لم أكد أشعر بحركة الضيوف المؤذنة بانتهاء العشاء الرسمى ، حتى أسرع خارجاً وانطلقت بالسيارة إلى استراحة قصر "دسمان" الصغيرة التي كان ينزل فيها السادات .

صعدت إلى الطابق الثانى وادخلنى فوزى عبدالحافظ إلى غرفة نوم السادات ووجدت أنه قد عاد ميكراً وليس البيجاما والروب ، وكان جالسا على مقعد وثير يحاول تشغيل التليفزيون بالموجه الصغير فى يده . وبعد أن تصافحنا وجلسنا وكرر السادات سروره بأنه يجدنى فى صحة

جيدة ، بادرت قائلاً : أرايت ياريس رد فعل حكاية العشرة ملايين دولار بتاعة عبدالناصر ؟.

وقال السادات : نعم رأيت ، هنا وفى الرياض ، بل اننى رأيت وأنا فى القاهرة . فالشيخ جابر الأحمد مثلاً ( ولى العهد ورئيس الوزراء فى ذلك الوقت وأمير الكويت حالياً ) صديق قديم لى . وهو أيضاً لم يكن يحب جمال عبدالناصر ويعترض على سياساته الاقتصادية بالذات . ولكنه ما ان قرأ هذه الحكاية حتى أرسل لى خطاباً يقول لى فيه ان عبدالناصر كان رمزاً للعرب جميعاً ، وقد عرفنا العالم عن طريق عبدالناصر ، ولا يجوز أن يقال عنه اليوم ومن مصر هذا الكلام الغير قابل للتصديق . ولكن ، ماذا أفعل وقد أصدر "فلان" كتاباً فيه هذه القصة . صدقنى أننى لم أعرف عن الكتاب الا بعد أن نشرته أخيراً اليوم بمنشئيات ضخمة على صفحات كاملة .

وقلت له : ولكن ، لو سمح بنشر مقالى رداً على ذلك فى الأهرام ، لكان أسهل على الناس أن يصدقوا أن الدولة ليس لها يد فى الموضوع وأنها محايدة حقاً .

وقال لى : أصل "فلان" ده قلبه أسود ! أنا لم أكن أتصور أن قلبه أسود بالشكل ده ! أنا ناوى لعا أروح مصر فى أول خطية حايدله وأمسح به الأرض .

وصدقت السادات ، وجزعت . وأخذت أقول له أنه من الخطأ الكبير أن يفعل ذلك بل أنه ليس من حقه كرئيس دولة أن يخل بثقله وسلطانه على مواطن بذاته "أحنا ياريس فى بلد اذا الناس فيه عرفوا أن فلان مفضوب عليه من رئيس الدولة ، ما حدش يكلمه " لو العسكرى الراقف فى الشارع سمع أن محمد أفندى مفضوب عليه من الدولة ، وشافه قدامه ، يضربه على قفاه ! فاذا سأل الناس : ليه ضربيت الراجل ده ؟ يقول : مش ده محمد أفندى المفضوب عليه من الحكومة ؟ وضحك السادات ضحكة عريضة ، وقال لى أنه طبعاً سيتكلم عن الموضوع ليس بالشكل الذى أتصوره .

وانتقلت قورا ، متخذاً موقف الهجوم من الرئيس ، فقلت له أن القاموس الذى يستخدمه فى خطباته وخصوصاً قبل جولاته العربية لن يأتى لمصر بمليم ! فاذا قال رئيس الدولة أن بلده مفلس واقتصاده تحت الصفر وليس فى عروقه قطرة دم واحدة بل أنه حارب لهذا السبب ، فإن أحدا لن يساعد بلدا بهذا الشكل ! يعنى ياريس لو رحت لممول كبير مهما كان صاحبى وقلت له أنا عدمان وصدمان ومفلس قهولن يعطينى مساعدة يعتد بها ، ولكنه سيعطينى صدقة على الأكثر ولا يقابلنى بعد ذلك . فى حين أننى لو

قلت له مثلاً أن عندي قطعة أرض في مكان كويس ونفسي ألقني شريك  
يساعدني بإقامة عمارة استثمارية فوق الأرض ففي هذه الحالة سوف  
يساعدني على الفور .

واستطردت أقول للرئيس أن مصر رغم كل شيء اقتصادها له قاعدة  
متينة ومتكاملة ( كان ذلك قبل ماحدث بعد ذلك سنوات من تراكم الديون  
وشلل الصناعة والانتاج .. الخ ) وأنه أسلم اقتصاد في المنطقة لا يعتمد  
على مورد واحد بل أن فيه كل عناصر النهوض السريع : زراعة ، قاعدة  
صناعية لا مثيل لها في بلد مثلنا في العالم الثالث ، وطبقة جديدة كاملة من  
الخبراء والفنيين والعمال المهرة وسوق استهلاكية كبيرة .. الخ ولا ينقصنا  
الا حسن التدبير والإدارة .

ورد على السادات :

كلامك ده سمعته بالضبط من دافيد . أصل أنا جيت دافيد مرة من  
أمريكا . وطلبت منه أن يبقى في مصر مدة وينكش في كل الاقتصاد  
المصري ويقول لي رأيه وأمرت كل الجهات في مصر أنها تضع تحت يده  
أي بيانات يطلبها . وفعل ، وبعد اسبوعين تقريباً ، جاني دافيد وقال لي :  
”ياريس اقتصادك سليم . وفيه امكانيات هائلة . بس الغريال بقا معك فيه  
خبروم واسعة لازم تتسدد “ . أصل دافيد ده صاحبي وأنا اعرفه واثق فيه .  
انا قصدي دافيد روكفلر صاحب بنك تشيزمانهاتن ولما باروخ أمريكا  
باروخ العزبة بتاعته وبخلط بيه هو وعائلته روكفلر أصل الامريكان دول  
”ولاد بلد زينا“ ماعندهممش شكليات ويزيلوا التكليف مع الواحد بسرعة .  
مش زى الاوربيين اللي لسه معتقدين بالرسميات والشكليات .

والطريف اننى سمعت بعد ذلك من أحد أعضاء الوفد المصري أن  
الرئيس السادات في جلسة المباحثات مع الوفد الكويتي ، أكثر من  
الاستشهاد بما يقوله ”دافيد“ ومن ذكر اسم دافيد . وفهم الجميع انه  
يقصد دافيد روكفلر . وإذا بأصير الكويت السابق المرحوم الشيخ صباح  
السالم يرد عليه قائلاً : ياريس ! احنا برضه عندنا عشرين دافيد ! بس  
اسمهم حسن وعلى وعبدالله !!

وبعد أن كنت أحدث السادات عن التأثير السليم لخطبه والتي قلت له  
بصراحة أنها تصور مصر على أنها قد أصبحت خرابة ، سألني السادات  
عن فيلم مصري كان يعرض وقتها في الكويت ويبدو أنه سمع من غيري أنه

يسمى الى سمعة مصر وهو فيلم "الكرنك" وأنه يظهر مصر كلها فاسدة  
ومعحلة رجالا ونساء وقلت له اننى لم ار الفيلم ولم أسمع شيئا من ذلك .

وكان المفاجئة الكبرى بالنسبة لى ، يعد أن عاد السادات الى القاهرة  
أن ألقى خطابا عنيفا هاجم فيه الصحف تمهيدا لحركة تغيير أجهزها يعد  
ذلك فى قيادتها ، وإذا به يقول فى خطابه المذاع الذى سمعته وأنا فى  
الكويت أنه عندما كان فى الكويت قال له "صحفى مصرى معروف : أن  
الصحافة المصرية تظهر مصر على أنها خرابة !! وأنه لذلك يجب إجراء  
تعديلات واسعة فيها أو شيء من هذا القبيل" .

أى أن ماوصفت به خطباته بالذات ، أخذه ونسبه الى على أننى نسبته  
الى الصحافة وهو الأمر غير الصحيح على الإطلاق !!

وفهم بعض الكتاب بالطبع أننى المقصود وكتبوا يهاجموننى بدون ذكر  
الاسم . ولم اغضب منهم . فقد وجدت أنه من الطبيعى أن يصدقوا كلام  
رئيس الدولة . ولهم العذر . ومن يومها هؤلاء الكتاب يهاجموننى بمناسبة  
ويدون مناسبة ، ولا أحد يبرر لتحميلهم على إلا أنهم صدقوا كلام رئيس  
الدولة الذى لم أعرف وقتها كيف أكذبه .



## قصة معمر القذافي

كنت في الكويت ، عندما استدعاني الرئيس السادات للمضور الى القاهرة فوراً . لسبب كان من اعجب الاسباب حين لقيت الرئيس وعرفته ، وكان هذا هو معمر القذافي .

وكما هو معروف ، فقد كان الاتفاق الثلاثي بين مصر وسوريا وليبيا مناورة سياسية لا غير ، وسرعان ما اصبحت الاتفاق وكأن ليس له وجود . واسجل هنا انه كان هناك في الدوائر الرسمية المصرية والدوائر المحيطة بها على الدوام ، تيار يعادى القذافي ويشك في نواياه ويدعو الى معاملته بحفاة وعدم الاستماع الى اية رغبة يبديها او الى اى وعد يعد به لأنه في رأيه سيء النية . . وتيار آخر يرى ان القذافي يخلق بالفعل كثيراً من المشاكل وان العلاقات معه معرضة دائماً للتقلبات المزاجية غير المفهومة ، ولكنه رغم كل شيء شاب حسن القصد وامكانيات مساهمته في العمل العربي تنطوى على مزايا اقتصادية وجغرافية واستراتيجية هائلة . وكنت شخصياً من هذا التيار الثاني .

وكان من اكثر ما جعل القذافي يذخر في الدوائر المصرية وأزاء الرأي العام المصري هجومه الاذاعي العنيف على حرب اكتوبر ، ومن اليوم الاول للحرب والقوات المصرية في اوج القتال العنيف ضد الجيش الاسرائيلي . ومن امثلة هذا الاثر ، ان الاستاذ عبدالعزیز حسين وزير الدولة الكويتي المعروف في ذلك الوقت كان من اول من جاءوا الى مصر بعد الحرب وطلب زيارة الجبهة والقناة وخط بارليف الذي اقتحمته واستولت عليه القوات المصرية في سيناء . ولأن الاستاذ عبدالعزیز حسين صديق كبير وعزیز ، فقد رافقته في هذه الزيارة التي نظمها القوات المسلحة كما كان معنا المهندس عثمان احمد عثمان ، وبعد الزيارة جلسنا في استراحة الضباط لتناول الغداء في ضيافتها وكان المضيف هو المرحوم اللواء احمد بدوي الذي كان مازال قائداً للجيش الثالث الميداني . وبين الاحاديث عن ايام الحرب وذكرياتها ، تكلم اللواء احمد بدوي فجأة مهاجماً الاذاعة العربية التي كانت تتهم حرب اكتوبر بأنها تمثيلية وبأنها خيانة . وتحدث بحرارة وعنف عن شعوره وشعور ضباطه وهم في غمرة القتال بعد العبور الى سيناء ان تلتقط اجهزتهم هذه الاذاعات ، حتى اغرورقت عينا الضابط الشديد الصرامة احمد بدوي بالدموع . وشعرنا ان ثمة سوء تفاهم ما . ثم تبين ان اللواء احمد بدوي لم يلتقط اسم ولقب الوزير الكويتي عبدالعزیز حسين جيداً وفهم انه وزير ليبي ، فأيدى اعتذاره في الحال وقال انه يقصد

الاذاعة الليبية بالذات وانه لم يقصد أحدا آخر من الاخوة العرب .  
وكما هو معروف ، عندما اعلن السادات بعد نهاية الحرب عن عقد جلسة  
في البرلمان لتقديم الاوسمة لقادة الجيوش ارسل القذافي يطلب حضور  
الجلسة والمساهمة فيها والشاركة في تكريم أبطال القوات المسلحة  
المصرية .

في تلك الليلة دار جدل عنيف في الدوائر المصرية بين من  
يرى قبول هذا الطلب لان فيه اعتذارا كلفياً من العقيد  
القذافي وفرصة لجمع الصفوف مرة اخرى فوق انه دليل على  
حسن النية ، وفريق اخر يرى ضرورة رفض هذا الطلب ومنع  
القذافي من حضور الجلسة لانه لا يمكن ان يؤتمن ولا بد ان له  
من وراء ذلك اغراضا اخرى . ويجب ان اسجل انني في تلك  
الليلة شعرت لأول مرة ان هناك تياراً في مصر لا يحاسب  
القذافي على تصرفاته فحسب بل يريد من حيث المبدأ  
والهدف الخلفى قطع كل صلين مصر والقذافي نهائياً .  
وانتهى الاخذ والرد عند منتصف الليل بقبول الطلب  
والترحيب بحضور القذافي جلسة البرلمان .

هكذا مضت الايام فيما بعد بين السادات والقذافي في صعود وهبوط .  
ولما وصلت الى القاهرة وذهبت للقاء السادات في استراحة الهرم هذه  
المرة كان عنده اللواء احمد عبدالسلام توفيق مدير المخابرات العامة في  
ذلك الوقت والملحق العسكري المصري في ليبيا الذي كان قادماً لتوه من  
طرابلس .

واخذ الاثنان يعرضان اخر ما لديهم من اخبار عن ليبيا وكلها تشير في  
اتجاه المشاكل التي يثيرها القذافي لمصر والمؤامرات التي يديرها . وبعد  
ان قال الرجلان كل ما لديهم من معلومات جديدة ، انصرفا ، واستبقاني  
الرئيس السادات .

ولما صرنا بمفردين قال لي الرئيس السادات انه قد ضاق ذرعاً بتقلبات  
القذافي ، وانه قد تأكد له انه يبطن غير ما يظهر ، وانه قد وصل معه الى  
نقطة اللا عودة وانه قرر ان يعلن ذلك بشن حملة صحفية شاملة عليه . وهو  
لا يريد لها حملة غوغائية مما تقوم به الصحف المصرية احياناً ، وانه  
استدعاني من الكويت ، لكي يضع تحت يده كل المعلومات والاوراق  
الخاصة بالعلاقات المصرية - الليبية ، وهو يريدني ان اقوم أنا بكتابة  
سلسلة من المقالات التي تتطوى على هذا الهجوم الشامل خصوصاً وانني  
لست متهماً بمعاداة القذافي مقدماً .

ولما ايديت دهشتي من استدعائي من الكويت لهذا  
السبب ، اراد السادات فيما اظن اغرائي بأيلام عبدالناصر  
عندما كان محمد حسنين هيكل يتولى كتابة حملة ما في  
مقالات تنشر في الاهرام وتذيعها موجات الاذاعة المصرية  
وتنقلها عشرات الصحف القومية !!

وكالعادة عندما يثار بيتنا موضوع القذافي ، بدأت احاول اقناع  
السادات ببذل كل الجهود لتجاوز الازمة وعدم اتخاذ قرار القطيعة النهائية  
التي يدفعه اليها البعض ، متهماً في ذلك اجنحة ذات ميل أمريكي  
معروفة ، وأن مصر بصفتها الدولة الاكبر والاتصاف عليها احياناً ان تتحمل  
الآخرين .

وكان السادات يروى لي احياناً بعض ازعاجات القذافي له . مثل يوم  
كان فيه مريضاً في فراشه في قريته " ميت ابو الكوم" وهبط عليه  
عبدالسلام جلود دون استئذان قائلاً له : ان القذافي سيلقى غداً خطابه في  
ذكرى الفاتح من سبتمبر وانه يريد ان يعلن في خطابه قيام الوحدة  
الاندماجية بين مصر وليبيا ، وانه - اي عبدالسلام جلود - جاء فحاشاً  
ليحصل على موافقة السادات والعودة بها فوراً الى طرابلس !

او يوم كان رؤساء الدول العربية والاسلامية ذاهبين الى المؤتمر  
الاسلامي في باكستان . وكانت هناك قطيعة بين القذافي والملك فيصل .  
واقترح السادات على القذافي ان يمر عليه في القاهرة ثم يذهبان معاً الى  
جدة ، ويقومان بإداء العمرة معاً في مكة ، قبل التوجه الى باكستان .  
وكان قصده من ذلك ان يخلق مناسبة يلتقي فيها القذافي بالملك فيصل  
ويزيل ما بينهما من جفاء قبل اللقاء في القمة الاسلامية . وتحمس القذافي  
للفكرة . ولكن - يقول السادات - انهما اذا كانا داخل الكعبة المشرفة في  
الخلالام للدامس والتي لا يفتح بابها الا لأكبر الزوار ، والكل يرفع كفيه  
بالدعاء . اذا بالقذافي يمسك باحدى يدي السادات ويجذبه بشدة ويضع  
القذافي يد السادات في يده ويد شخص ثالث لا يتبينه السادات في  
الظلام ، ويقول القذافي للسادات : لننتاعد هنا على تحرير فلسطين !  
لنقسم بالله العظيم ان نفعل كذا وكيت ! وكلام كثير من هذا النوع يؤمن  
عليه السادات والشخص الثالث .

قال لي السادات : فلما خرجنا من الكعبة المشرفة سألت  
القذافي : "ايه اللي عملته ده يلمعصر ؟ مين الراجل الثالث  
اللي حطيت ايدي في ايده ؟" فقال لي القذافي : "ده ياريس  
ممثل فتح في السعودية" . فقلت له : "طيب مش كنت تقول  
لي ؟ افرضي كلن طلح ممثل الجبهة الشعبية !!"

كانت حكايات السادات عن القذافي من هذا النوع كثيرة . اما هذه



المرة ، القصة التي جعلته يقرر القطيعة النهائية مع القذافي فقد كانت من النوع الجاد الخطير : كانت ليبيا قد أرسلت الى مصر طائرات ميراج تكون تحت تصرف القوات المسلحة المصرية اذا قامت الحرب . ولم تستخدم هذه الطائرات في الحرب . ولكن اسرائيل كانت لاتزال في سيناء بعد وقف إطلاق النار وفك الاشتباك ، وهي تماطل بشكل سافر في الاتسحاب ومصر تتصرف وتتسلح على أساس أن مواجهة ثانية أو حركة غادرة من اسرائيل امر وارد . والقذافي ارسل فجأة يطلب سحب طائرات الميراج من مكانها . في مصر ، ويلج في ذلك بشكل متواصل ، رغم كل المحاولات المصرية لاقناعه بتأجيل هذا الطلب .

وتناقشت السادات طويلا في ان مصر يجب ان تكون اكثر صبرا . وأئنا لم نستنفد الوسائل لاقناع القذافي او لاجراجه حتى لا يصير على سحب هذه الطائرات . وكنت في نفس الوقت غير مستعد للقيام بهذه المهمة وهي شن الحملة الشاملة على القذافي ، حتى لو كان مخططا في هذه الحالة ، فقد كنت أشعر أن ثمة ايد اجنبية تعمل على تدهور الموقف نهائيا بين مصر وليبيا . وإذا كنت ارى هذا في مصر فلا بد ان هناك مثله في ليبيا . والمره يستطيع ان يؤلف مجلدات عن نشاطات الاجهزة الاجنبية واصدقائها وعملائها المحليين في التأثير على قرارات الحكام العرب دون ان يشعروا بذلك .

وفي نهاية المناقشة التي طالت ، قال لى السادات : طيب ، انا حاقول لممدوح سالم ( كان لا يزال وزيرا للداخلية ) بيعث لك كل الاوراق الخاصة بعلاقتنا مع ليبيا ، سياسية ودبلوماسية وعسكرية ، وكل المراسلات التي بيننا وبينهم . وانت اقعد افحص كل الاوراق في البيت وزى مانت عاوز ، وشوف بعد كده اذا كنت حاتوافق على رأى ولا عندك رأى ثانى . وهذا ماكان . ارسل لى السيد ممدوح سالم كمية ضخمة من الاوراق الخاصة بليبيا فيها التقارير الخاصة وفيها جلسات مباحثات ، وفيها رسائل متبادلة بين الرئيسين او بين جهات مختلفة في الحكومتين . وقد لفت نظري ان يكون هذا الموضوع الهام بهذا قدره عند السيد ممدوح سالم وهو مازال نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للداخلية . وكان هذا مؤشرا قويا على تزايد نفوذ ممدوح سالم وتزايد اعتماده السادات عليه .

وقد عكفت بالفعل على قراءة كل هذه الاوراق . وكان فيها كل عجيب وغريب . وكانت هذه اول مرة اجد فيها بين يدي هذه الكمية من المراسلات الرسمية بين دولتين على اعلى مستوى . وعلى اكبر درجة من السرية . وقد كان اول رد فعل لى هو الدهشة الشديدة من تفاهة تلك المراسلات العليا !!

وسألت نفسي : هل يمكن أن يكون ما يدور وراء الكواليس بين الدول على هذا القدر من عدم الدقة وعدم التحديد والعبارات الانشائية والتهافت اللهم الا في حالات قليلة جداً ، مثل المراسلات الخاصة بالطائرات الثمانية والاربعة ؟ ان ماتنشره الصحف العلنية من اخبار ومعلومات وتعليقات وتصريحات اهم وادق من هذا كله ! وهل هذا هو شأن كل الدول ام شأن بلادنا العربية وحدها ؟

وذهبت الى السادات بهذا الانطباع . وقلت له بصراحة ان من يقرأ هذه الاوراق لا يجد فيها اكثر ممن يقرأ البيانات العلنية وخطب المناسبات . فلم اجد في كل هذه الاوراق ما يحدد العلاقات بين الدولتين تجديداً واضحاً في اى مجال من المجالات سياسياً او عسكرياً أو اقتصادياً . وقد كنت اظن ان ما يدور بين المسؤولين بعيداً عن العلنية تكون فيه درجة أعلى من الواقعية والمصارحة وما يريد حفاً كل طرف ، وما يستطيعه ، بعيداً عن لغة الامنيات والشعارات غير المصدرة .

وكنيت أحمل - بناء على هذه المقدمة - إقتراحاً مجدداً : ان يعث الرئيس السادات الى الرئيس القذافي رسالة مفصلة شاملة ، تنسخ كل ما سبقها ، وتحاول ان تواجه الاسئلة الحقيقية والجوهرية المتعلقة بعلاقات البلدين . وان تحدد فيها مصر موافقتها تجديداً قاطعاً ، وتعلق على المواقف الليبية تعليقاً واضحاً وقاطعاً ايضاً . فيكون هناك اساس جدى لأول مرة للمناقشة المحددة ، بين دولتين كل دولة لها تصور وسياسات ومصالح ، وبعيداً عن عبارات "الاخوة" و "الاشقاء" و "التضامن" و "التضحية" وما الى ذلك من العبارات التى تصلح للخطب والبيانات فحسب ، ومن الهزل ان تملأ المراسلات "السرية" بين الدول .

وقلت للسادات : سنعرض على القذافي بشكل واقعى جداً كل ما لدينا . وستنتهى الى تخييره في علاقته مع مصر بين كافة انواع العلاقات ، ابتداء من الوحدة ، الى الكونفدرالية ، الى التحالف ، الى المشروعات الاقتصادية المشتركة الى مجرد علاقات حسن الجوار . هذا مع تحديد ما تقبله مصر وما لا تقبله بالنسبة لكل وضع من هذه الاوضاع .

وابديت بالطبع استعدادى ، اذا وافق الرئيس ، لكتابة مشروع هذه الرسالة ، وكنيت اعتقد ان هذا الاقتراح يؤدى ، من ناحية ، الى تأجيل انفجار الخلاف والقطيعة العلنية ، ومن ناحية اخرى ربما يؤدى الى بداية اخذ ورد بين البلدين يقوم على اساس الواقع والنوايا الحقيقية لا على اساس الشعارات والامنيات .

ووافق الرئيس السادات . وعكفت اياماً على كتابة هذه الرسالة التي تعرضت لكل قضايا الماضي والحاضر والمستقبل بين مصر وليبيا بشكل موضوعي تماماً . ووافق الرئيس السادات عليها . وامر بطباعتها وارسالها بسرعة .

وقبل ان اترك القاهرة علمت ان السادات بدلاً من ان يرسلها مع من يسلمها للعقيد القذافي ، ارسلها مع من يسلم نسخة منها الى كل عضو من اعضاء مجلس الثورة الليبي . وبعد ان كلن مطلع الرسالة موجهاً الى "الاخ الرئيس معمر القذافي" ، ثم تغيير هذا المطلع الى "الاخوة اعضاء مجلس قيادة الثورة" ، وقد اثار هذا غضب القذافي وهيلجه الى آخر الحدود . وعندما سالت السادات بعد ذلك لماذا فعل هذا وهو يعرف انه سوف يثير القذافي ، قال لى : ان القذافي لا يروى لأعضاء مجلس الثورة الحقيقة . وانه يبلغهم مايناسبه ابلاغهم فقط ، وانه اراد ان يعرف زملاء القذافي لأول مرة الحقائق كاملة .

وانذكر ان السادات كان يضطك من اعماقه وهو يروى كيف ان القذافي ارسل رجاله بسرعة يجتمعون هذه الوثيقة من اعضاء مجلس الثورة . قبل ان تنسرب الى غيرهم بل حتى قبل ان يقرأها بعضهم . وقد انقطعت علاقتى بالموضوع الليبي بعد ذلك تماماً . وبعد شهر ، اذ كنت خارج مصر ، قرأت الرسالة منشورة بكاملها وبإبراز شديد فى كل الصحف المصرية فى يوم واحد ، وكانت الهيئة العامة للاستعلامات قد طبعتها فى كراسة صغيرة لتوزيعها فى ليبيا بالذات . واستنتجت من ذلك ان الامور لابد انها تدهورت مرة أخرى بين السادات والقذافي ، بشكل نهائى واخير .





## « تروية قوانين » لعلاج « انتفاضة الخرامية »

كنت وقتها في الكويت .. يناير ١٩٧٧ . وانفجرت في الصحف والإذاعات الكويتية والعالمية أنباء المظاهرات العنيفة التي اجتاحت مصر ، والتي صكت لها الصحافة العالمية بعد ذلك الاسم الذي مازالت تعرف به حتى الآن وهو : «The FOOD RIOTS» اي «مظاهرات لنخبز» . كان الرئيس السادات بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ مباشرة قد بدأ يعزف معزوفتين كان لهما اثر كبير في التمهيد لمرحلة السلام المقبلة مع اسرائيل ، التي بدأت بمباحثات الكيلو ١٠١ الشهيرة وفك الاشتباك الأول مع اسرائيل ثم فك الاشتباك الثاني .

المعزوفة الاولى : ان عصر الصروب قد انتهى وأن حرب ١٩٧٣ هي آخر الحروب .

والمعزوفة الثانية : أنه مع بزوغ عصر السلام فان الرخاء ات عن قريب . وما كانت تنفقه مصر على السلاح والجيش سوف تنفقه لتحقيق عصر الرخاء والرفاهية .

وكان لهاتين التغميتين البارعتين - ولا أشك في أن السادات كان يصدقهما فعلا - كان لهما أثر كبير في تهيق الناس إلى تقبل عملية السلام والاسراع نحوها . وكان ذلك ايضا - للتاريخ - شعور معظم الحكام العرب . كل النظم التي تصورت ان حرب ١٩٧٣ كما ادارها السادات اي بقصد الوصول الى السلام لا إلى الانتصار هي الطريق الذي سيخلصهم به السادات اخيرا من صدام وآلام وتضحيات القضية الفلسطينية .

وانتشرت اليعثات الاقتصادية المصرية في انحاء العالم تحصل على القروض السخية بعد ان اعطتها امريكا الضوء الأخضر . وانهالت التبرعات العربية لاعادة تعمير مدن قناة السويس ومساعدة مصر اقتصاديا بوجه عام .

ولكن مجيء اسرائيل الى مائدة الصلح لم يأت بسرعة كما توقع البعض .. ومرت اكثر من ثلاث سنوات بلا تقدم حتى كاد الناس ينسون نصر أكتوبر .

كانت مانشيتات الصحف المصرية تصدر كل صباح بأضخم حجم تعلن عن تبرعات بالآلاف ومئات ملايين الدولارات أو بتسهيلات وقروض من هذه الدولة الغربية أو تلك أيضا بالآلاف أو مئات ملايين الدولارات . كل هذا تبشير للناس بأن الرخاء على الأبواب . بل وراح الرئيس السادات يحدد أعواماً لهذا الرخاء .

فى تلك الفترة ، وكنت فيها رئيساً لتحرير جريدة «الاهرام» كنت أرى الرئيس السادات كثيراً فى مختلف الأماكن والاستراحات . كنا نتناقش كثيراً حول هذه الحالة النفسية التى يذورها الاعلام وسياسة الدولة بين الناس والتى لم اكن مستريحاً الى عواقيها .

كانت خلاصة حججى التى تتكرر فى مناقشات طويلة مفصلة مع الرئيس السادات هى ان هذه الأموال والدعايات عن الاف الملايين تعلق الجماهير بأمال لن تتحقق فى وقت قريب ، فالتناس تظن ان هذه الأموال ستتحول الى من وسلوى فى شهر . فى حين ان اقامة أى مشروع واحد للتنمية يستغرق سنوات .. واذكر اننى فى إحدى المرات كنت ذاهباً الىه بالسيارة من القاهرة الى الاسكندرية وفى يدى نسخة من مجلة «تايم» الامريكية المعروفة اسلى تفسى بقراءة ابوابها المتنوعة .. وبالصدفة وجدت فيها موضوعاً عن الفنادق ووقفت عند جملة تقول : ان معدل الوقت الذى يستغرقه بناء فندق فى ألمانيا الغربية هو ثلاثون شهراً .. وعندما وصلت الى الرئيس وسألتى عما بيدى قلت له : المجلة يا ريس تقول ان بناء فندق فى ألمانيا الغربية يستغرق سنتين ونصف السنة ، أى انه فى مصر يستغرق خمس سنوات !

وهذا الكلام عن فندق لا عن مصنع او استصلاح اراضى .. ومصر بلد كبير وبناء فندق فيه من ناحية أثره الاقتصادى يساوى افتتاح مطعم فول فى لبنان مثلاً ! .

وانطلقت اشرح له وجهة نظرى المفصلة فى ذلك الوقت : إن الشعب المصرى فخور بنفسه وبجيئته بعد حرب ١٩٧٣ ويعد مثل هذه الحرب تكون الشعوب فى اقصى حالاتها استعداداً للتضحية وربط الأحزمة على البطون . هكذا فعلت كل دولة اوروبية بعد الحرب العالمية ، منقصة كانت أو مهزومة .. البدء بعد الحرب للبناء والتعشيف . ثم يأتى الرخاء القائم على اساس مئين . وهذه الأموال والمساعدات والقروض والتسهيلات خير لنا ان نقول للشعب اننا سنوجهها للانتاج خلال السنوات الثلاث الاولى بعد الحرب ثم يبدأ الانفراج .

ولكن السادات لم يقبل منى هذا المنطق مرة واحدة . رغم اننا تنافشنا فيه مراراً وتكراراً .. كنت أرى وقتها ان ردود السادات على تعنى ببساطة انه شديد التكلؤل ، وان المشاكل ستحل بسهولة أكثر . وان دول الغرب ودول النفط ستغرقنا دائماً بمزيد

من المال - وانه متسرع في اقتناع الناس بحقيقة الرخاء الذي بدأ  
يهطل بعد معاناة الحرب والفتره التي سبقتها .

ولكنني الآن حين استرجع مناقشات أخرى جرت بعد ذلك ، خصوصا  
مع الانفتاح ، أقول لنفسى لعل الرئيس السادات كان يفكر في نوع آخر  
سريع من الرخاء ، يقوم على تحويل مصر من دولة انتاج الي دولة  
خدمات .

ولم يكن الرئيس السادات على معرفة كبيرة بالمسائل الاقتصادية  
ولا أقصد بذلك ان كل رئيس يجب ان يكون رجل اقتصاد ، ولكنه كان اميل  
الى اخذ المسائل الاقتصادية ببساطة مبالغ فيها والى عقد مقارنات  
مظهرية لا أساس لها على الاطلاق . ولا أنسى رد الرئيس السادات على  
يوم ذلك النقاش حول اقامة المناطق الحرة الثلاث قال لي بالحرف الواحد :  
يا أحمد أنا برضه بأحسن ساعات انك مش راضى تقهمنى !  
اننى انتظر الوقت المناسب لأعلن مصر كلها متطقة حرة ! ألم تسمع عن  
سنغافورة . وهونج كونج ؟ وذهلت طبعاً .

المهم .. ان أحداث مظاهرات الخبز في مصر كانت زلزالاً عنيلاً قى كل  
العالم وفى العالم العربى بالطبع ، الذى قلق على مسيرة السلام والذى لم  
يفهم ان معاناة الشعب المصرى الاقتصادية زادت بعد الحرب ولم تنقص ،  
وان الأموال التى هطلت على مصر لم تأخذ طريقها الطبيعى .. وان الناس  
بدأت تنسجر من انفجار الفوارق الاجتماعية والثروات السريعة ، رغم انها  
كانت في بدايتها .

وتوقعت ان يستدعنى الرئيس السادات الى القاهرة .. وبعد اسبوع  
تقريباً اتصل بى السفير المصرى فى الكويت عن العرب امين وطلب إلي ان  
اتوجه الى القاهرة فى اليوم التالى باستدعاء من الرئيس .  
وصلت الى القاهرة .. وتعمدت ألا أبلغ مباشرة عن وصولى كالعادة ،  
حتى اكسب يومين أو ثلاثة أيام ، ألم خلالها بحقيقة ما حدث فى مصر ..  
وأدركت انها كانت انتفاضة شعبية حقيقية . وليست انتفاضة حرامية كما  
حاول السادات ان يسميها .

وعرفت ان المظاهرات اندلعت بطول القطر كله من  
الاسكندرية الى أسوان ، حيث كان الرئيس السادات هناك بعد  
ان ودع الرئيس تيتو ، وبقي ينتظر وصول جلالة الملك حسين  
وانه رأى من استراحته على الضفة الأخرى من النيل اسوان  
كلها وكأنها تحترق ، فقد اشعل الناس النيران فى اقواس النصر  
التي كانت تغطي كورنيش اسوان .. وجاعوا بمكبرات الصوت  
يهتفون بها بأقذع العبارات .

وعلمت ان الموقف فى القطر بوجه عام كان خطيراً ، حيث  
عجزت الشرطة عن مواجهته . كذلك لم تكف أجهزة إطفاء  
الحرائق .. وبالتالي انسحبت الدولة واقعياً من الشارع

المصري . هوجمت اقسام الشرطة في القاهرة وفي الاقاليم  
باعداد اكبر من قدرتها . واحترقت بيوت بعض المحافظين .  
وقالت القاهرة لكل اقليم : اعتمدوا على انفسكم .. ليس لدينا  
جندي شرطة ولا عربة اطفاء تسعفكم بها ! وسمعت ان السيد  
ممدوح سالم رئيس الوزراء اتصل بالمشير عبد الغنى الجمسى  
نائب رئيس الوزراء والقائد العلم للقوات المسلحة وطلب اليه  
انزال الجيش وقال المشير الجمسى للسيد ممدوح سالم ..  
صفقتي هنا اتنى قائد عام للقوات المسلحة ولا بد ان اتلقى الامر  
بذلك من القائد الاعلى وهو رئيس الجمهورية .

واستقر الراى : على ان يصدر الرئيس بياناً فوراً فى الاذاعة  
بسحب قرارات رفع الاسعار التى اشعلت الانتفاضة لان الناس  
فى حالة هياج وتوتر شديد .. وانه بعد ذلك مباشرة يمكن  
انزال قوات الجيش بدون تخيرة لاسترداد هيبة الدولة وتهدئة  
الجماهير وتصحيح الانصراف فى سلام .. وهذا ما حدث : اعلن  
قرار رئيس الجمهورية بسحب قرارات رفع الاسعار التى اتخذتها  
الوزارة وهلل الناس فى الشوارع ونزلت القوات المسلحة - وقد  
هبط الليل على البلاد - تنصيح الناس بالتفرق بهدوء والناس  
يهللون ويرحبون بالجنود والديابلات .

ابلغت مكتب الرئيس بوجودى .. وحددوا لى موعداً مع الساعة الحادية  
عشرة صباح اليوم التالى فى استراحة القناطر .

كنت طلول الطريق لا اعرف كيف سواجه هذا الموقف مع الرئيس ..  
وكنت من معرفتى بشخصيته استطع ان اتصور مدى ثورته وآلمه لطعنة  
أصابته فى كبريائه بهذا الشكل بعد ان وضع على رأسه اكاليل غار حرب  
١٩٧٣ .

وفى الساعة الحادية عشرة بالضبط كنت اصافحه على مدخل استراحة  
القناطر كان يوم شتاء شديد البرودة ودخل بى الرئيس السادات وأنا أسير  
خلفه ، وهو يتجول فى الاستراحة الواسعة ياحثاً عن حجرة مشمسة دافئة  
لأننا سنتحدث طويلاً .. وبعد ان جلسنا شرح لى جانباً من قصة  
وانتفاضة الحرامية .

وحاولت معه محاولة غريبة فى أول الامر .. حاولت قيل ان نخوض فى  
النقاش ان اكسر حدة غضبه وجيشان عواطفه بالفكاهة وبإثارة موقف  
كوميدي .

وقلت بلهجة دهشة و «استعجاب» شديد : غريبة ! انتى  
مندهش جداً ان ارى سيادتك غاضباً من المظاهرات بهذا  
الشكل .

- وماذا كنت تتصور ؟

- ان المظاهرات يا ريس لا تحدث إلا فى البلاد المتقدمة ! هل



سمعنا عن مظاهرة قامت في اوغندا عند عيدى أمين ؟ أو في بلاد مثلها ؟ هذه المظاهرات تحدث في فرنسا ضد بيجول أو في ألمانيا أو في إيطاليا .. فالأمر حقيقة لا يستدعى كل هذا الغضب !

ولم يعجب الرئيس بكلامى ولم يرتح له .. وقال لى : انك لا تعرف كل ما حدث !! لقد حاولوا مهاجمة بيتى في الجزيرة وكانوا يصلون اليه ! .. لقد كانت زوجات الوزراء والكبراء يصرخن فى بيوتهن فرعا ويحاولن الاستغاثه بأى مخلوق ، خوفا من اقتحام الغوغاء البيوت على العائلات .. ان ما كانت تهتف به الغوغاء فى الشوارع كان غاية فى البذاءة !!

وحاولت تكرار الحيلة مع الرئيس مرة أخرى .. حيلة اطفاء الغضب وتغيير مزاجه .. تمهيدا لامكان نقاش هادىء .. فقاطعته قائلا : سيادتك تقول دائما ان شعب مصر اعرق شعب منذ سبعة آلاف سنة .. وبيننا وبين بعض ، أليس هو ايضا من ابدأ شعوب العالم ؟ أيمكن ان يمشى واحد منا عشر خطوات فى أى شارع دون ان يسمع ابدأ الألفاظ على السنة الناس ؟ اننا حين نريد ان نمدح شخصا نقول عنه .. ده ابن كلب شاطر ! .. كنت أقول ذلك ضاحكا وسحاولا المرح .. ولكننى مرة أخرى اصطدمت بجدار صخرى من الرفض لأى تخفيف فى مثل هذا الموقف .

وكان لا مفر من المواجهة بالرئيس ، وهو كما توقعت يطلب إلى ان اكتب خطابا له يوجهه الى الجماهير .. وأنا اختلف كل ما يريد ان يقوله على خط مستقيم ، ولا اريد ان اشارك فى ذلك .

وبدأت المناقشات الصاخبة حيناً والهادئة حيناً آخر .. حتى منتصف الليل لم يتخللها إلا شرب القهوة .. لم يتخللها أى غداء لأن الرئيس السادات فى روتينه اليومى لا يتناول وجبة الغداء فى كثير من الحالات . كان موقفه ببساطة انه يريد انتهاج سياسة بالغة العنف من الردع والشدّة وكان يقول إن الشيوعيين هم الذين افتعلوا المظاهرات ضده .. ويريدون ان يسموها انتفاضة شعبية . ولما قلت له اننى فهمت ان احدا من الشيوعيين لم يقبض عليه فى المظاهرات ، وإنما أخذت الشرطة بعضهم من منازلهم .. قال لى : ماهى دى شطارتهم .. يولعوا بالحريقة ويجروا على بيوتهم ويسيبوا الباقي للحرامية والأوباش .. قلت له : يبقوا شطار .. قائلقضاء لن يتمكن من اثبات التهمة عليهم .. وشطارة البوليس ان يقبض عليهم فى المظاهرات .. المحاكم يا ريس ستبرىء كل الذين ترى انهم متهمون .. وأنا اقول ذلك كمحقق سابق ..

وقال السادات : إن المسألة على أى حال صارت اكبر من معرفة من الفاعل او توفر الأدلة القضائية ضده ، ان ما حدث لا يمكن ان اسمح بتكراره مهما حدث .. ولو لجأت الى الحديد والنار ، وأنا اريد ان اتحدث بذلك ويصراحة للناس على شائبة

التليفزيون وان أصدر قوانين رادعة حتى ولو لم يسبق لها  
مثيل .

كانت وجهة نظري والنصيحة التي قدمتها له في تفصيل  
طويل جدا مختلفة تماما .

قلت له : اننى ارى الناس مبسوطة بعد كل ما حدث ! ملحدت  
كان مؤسقا ولكن المواطنين العلابين - كما رأيتهم - مسرورون  
لإلغاء رفع الأسعار .. وشاعرون بأنهم قد كسبوا مطلباً شعبياً .  
وهم بمقاطعتى .. عند هذه النقطة فقلت له : اسمح لى  
سيادتك لحظة واحدة .. أنا أعرف كمراقب عن بعد ان تفكير  
الدولة منذ بدء الثورة يرفض الاستجابة لضغط جماهيرى ..  
ويعتبر ذلك هزيمة له ..

وانه لو تركت الجماهير تفرح بنجاح ضغطها فسوف تعاد على ذلك  
ويغيرها هذا بالضغط كلما أرادت شيئاً - اعرف هذا يا ريس ، ولكن اسمح  
لى أن أقول ان الثورة مر عليها خمس وعشرون سنة وان الظروف تسمح  
بأن تستجيب الحكومة ولو مرة لضغط الجماهير .. ان الناس فرحانة لهذا  
المعنى قبل كل شيء .. فيها ايه لو تركنا لهم فرصتهم ؟ .. ثم ان سيادتك  
لم يمدد عنك فى كل هذه الأزمات إلا قرار إلغاء رفع الأسعار .. وحقيقة ارى  
ان الناس نسوا ذلك .. ولكن اسمح لى أن أقول ان قيادتك لا تفكر دائماً  
تفكيراً سياسياً صحيحاً .. فقد قرأت فى الصحف من يومين ان بعض نواب  
المعارضة قدموا استجواباً لمناقشة احداث ١٨ و ١٩ يناير .. صحيح ان  
من حق الحكومة طلب التأجيل لمدة تصل إلى اربعة اسابيع .. لكن  
الحكومة والشاطرة احياناً تفاجئ المعارضة باستعدادها للمناقشة فوراً .  
ولو حدث هذا لانتهى الأمر ونسى الناس آلام «الخناق» ، كلها ولكن  
الدكتور فؤاد محبى الدين ممثل الحكومة فى مجلس الشعب طلب تأجيل  
المناقشة ثلاثة أو اربعة اسابيع ؛ ان معنى هذا ان تنكأ الجروح وتعود  
المشاجرات والذكريات الاليمة الى أذهان الناس بعد اربعة اسابيع ! وبعد  
ان نسوها وفرحوا بالاستجابة لهم وإلغاء رفع الأسعار .. هل هذه مثلاً  
سياسة ذكية .. ؟ اليس الأحسن ان نتصرف وكأن الاحداث قد أصبحت  
وراءنا ؟

وقاطعتنى السادات قائلاً : هل هذا حدث ؟ قلت له .. هذا هو المنشور فى  
الصحف .

ورفع سماعة التليفون وطلب المهندس سيد مرعى رئيس مجلس الشعب  
فى ذلك الوقت ومهاجم بشدة تصرف فؤاد محبى الدين وطلب إلى سيد  
مرعى ان يتصرف بحيث «لا يرى هذا الاستجواب النور ابداً مهما حدث» !

وقلت للرئيس السادات : لنعترف هنا بأن القرارات الاقتصادية ،  
والطريقة التي أعلنت بها ، كانت خطأ اقتصادياً هائلاً .. اسمح لى يا

سيادة الرئيس ان اقول لك ان بعض وزراءك «خوارج» وكأنهم لا يعيشون في مصر !.. انهم في بيوتهم في الزمالك يقررون رفع سعر البوتاجاز وكأنهم يتصورون ان الشعب المصري مازال يستخدم البابور «البريموس» « وجاز أبو خروف» .. متصورين ان البوتاجاز مازال مقصورا على اهل الزمالك .. انهم فعلا خوارج لأنهم لا يعرفون ان كل قدرة فول وكل قرص طعمية يأكله الناس ينضج الآن على البوتاجاز ! وان رفع سعر البوتاجاز يؤدي إلى رفع سعر سندوتش الطعمية في اللحظة نفسها الى الضعف .. انهم لا يعرفون بعض اهم ما قامت به الثورة .. المصانع الحربية ياريس انتجت في يوم من الأيام جهاز بوتاجاز له شعلتان ويباع للناس بمشوة جنيهات وعلى عشرة اقساط ! جنيه واحد كل شهر ! ان الشغالة التي في بيتنا ترفض العريس - اذا لم يشتري لها ثلاجة وبوتاجازا وسخانا كهربائيا من انتاج المصانع الحربية ! اطلب الآن يا ريس من كل مباحث الدولة ان تعثر في القاهرة كلها على «بابور» «بريموس» واحد .

وهنا دخل السفريجي حاملا لي فنجان قهوة .. وكان الرئيس السادات يطلب لي فنجان قهوة ويطلب لنفسه شاي او ينسونا او ما إليه ..

وسألت السفريجي : على اى شيء تطبخ يا أسطى في بيتك ؟

فرد قلثلا : على فرن بوتاجاز صغير ..

قلت له : وجيرانك .. واقاربك ؟

فرد قلثلا : نفس الشيء ..

قلت له : ودكان الفول والطعمية في جارتكم .. ماذا يستعمل ؟

فرد قلثلا : البوتاجاز برضه .

أنني لا استطيع ان أتذكر بأمانة كل ما دار بيننا من احاديث استغرقت اكثر من اثنتى عشرة ساعة . ولكن الرئيس السادات كان احيانا يثور خصوصا اذا تذكر المظاهرات . واحيانا يستمع الي في صبر عجيب .. وكنت قد وصلت الى اقتناع داخلي : ان السادات لن يرى وجهي بعد هذا اليوم العاصف ، وتصرفت على هذا الأساس .

قلت له مثلا : ما حكيمة «المجموعة الاقتصادية» التي تهزى

اليها القرارات ؟ هل هي حزب مستقل عن الدولة ؟ هل هم خبراء

اجانب ؟ هناك شيء اسمه مسئولية وزارية ! وما حدث لم يكن

يستدعى قمع الناس بل استقالة الوزارة كلها !

ولكن ألا تذكر يا سيادة الرئيس ما فعله ديجول بعد ثورة

باريس عليه سنة ١٩٦٨ ؟

وسألني ماذا تقصد ؟!

قلت له : في كل دستور في العالم ، حتى في النظام الرئاسي مثل

دستورنا ودستور فرنسا - الذي اعرف ان سيادتك تأثرت به ، هناك حيلة

دستورية سواء كانت مكتوبة أو غير مكتوبة : هذه الحيلة تقول ان الرئيس ليس مسئولاً والناس كلها تعرف ان الرئيس مثلك او مثل دييجول هو المسئول عن كل كبيرة وصغيرة .. بل ان دييجول وهو رئيس الدولة يرأس مجلس الوزراء بانتظام .. هذه الحيلة الدستورية لها حكمة ! انه لا يجوز كلما تازم موقف سياسى فى البلد ان يهتز رأس الدولة . فحيلة انه غير مسئول تجيز له ان يكون المخرج من المأزق هو استقالة رئيس الوزراء ومجلس الوزراء ، بهذا المعنى استقال جورج بومبيدو بعد أحداث باريس الدامية رغم انها حدثت بسبب سياسات دييجول . وعين دييجول كوف دى مورفيل رئيسا للوزارة الجديدة لتنفيذ الأزمة وإراحة الرأى العام .. ولم يلق بومبيدو للكلاب . بل احتفظ به قريبا عنه . وكان يرسله فى مهمات شرفية مرموقة بحيث انه حين استقال دييجول كان بومبيدو نفسه هو مرشح الديجولين الذى خلف دييجول فى رئاسة الجمهورية .

كنا وحدنا طيلة اليوم دون أى مقاطعة . مرة واحدة جاء السفرجى وهمس فى اذن الرئيس بأن الضيوف وصلوا . وحاولت أن انتهز الفرصة واستأذن فى الانصراف ، هاربا بجلدى فى الواقع من يوم عاصف شمل فى اتساعه كل الآراء والاتجاهات السياسية والاقتصادية وكل المشاكل الداخلية والخارجية .. وكان الشقاق بينى وبين الرئيس عظيما وقال لى الرئيس : كلا ، خمس دقائق وأعود اليك .. ابقى انت هنا فى هذه الحجرة التى دخلتها الشمس ..

وخرج الرئيس واغلق باب الحجرة وراءه . ولم أقاوم فضولى ونظرت من النافذة فوجدت طائرة هليكوبتر نزل منها اثنان .. هما السيد ممدوح سالم رئيس الوزراء ، والسيد اسماعيل فهمى نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية الذى كان له وقتها نفوذ اكبر بكثير من منصبه .. ووقف السادات يتحدث اليهما حوالى عشر دقائق ثم عادوا الى الهليكوبتر التى انطلقت عائدة وعاد السادات الى الحجرة التى كنت انتظره فيها .

كانت خلاصة الرأى السياسى الذى يتجه اليه فكر السادات ومستشاريه هو : انه لابد من الضرب بشدة وبلا هوادة .

وكانت خلاصة فكرتى التى قضيت الساعات اشرحها وادافع عنها انه شخصيا لم يمسه من الأزمة شئ مباشر اذا تغاضينا عن المظاهرات والتهافتات التى صاحبا قراره الشخصى بالغاء قرار رفع الاسعار . وانه بالرغم من مساوية ماحدث . فإن الطريق الأسلم هو ان يتصرف على ان العاصفة قد مرت واصبحت وراءه ، وأنه يجب ان يحشد عددا اكبر من الطاقات لوضع سياسة اقتصادية اكثر تماسكا وواقعية واقتربا من مشاعر الناس . ثم يتقدم بهذه السياسة الجديدة الى الشعب ، مهما كان فيها من قرارات ضرورية قاسية وسوف نقف جميعا معه ضد مقومات الانهيار الاقتصادى وسوف يتقبل الشعب هذا الاسلوب إذا رأى فى السياسة

الجديدة ملائح العدل ، ولكنه بالتالي كما نصحتة .. لايجوز له ان يظهر على التليفزيون ويخاطب الناس قبل ان يتم كل هذا ، فيكون حديثه منصبا على الحاضر والمستقبل لا على ما حدث وانتهى ، ومن غير ان ينسى لأنه اذا أصر على ان يتحدث الى الناس هذا الاسرع فإنه لن يتحدث بالطبيعة الا مدافعا عن اجراءات خاطئة ، وإلا مذكرا الناس بوقائع مريعة .. الأمر الذى سيجدد النزاع على الماضى ، وإن ينتج عن ذلك أى خير للوضع السياسى فى البلاد . واضغت الى ذلك بالطبع ان الدخول فى طريق قرارات القمع (ولم يكن الرئيس السادات قد اشار الى ما فى ذهنه فى هذا المجال من قرارات محددة) .. لن يؤدى إلا الى المزيد من القمع والانقسام السياسى والوطنى ، فى لحظة حرجية من مواجهتنا لاسرائيل .. تريد فيها ان تتعلل بأى علة تفوت بها علينا قطف أى ثمار لحرب أكتوبر وما تلاها من جهود سياسية .

حول منتصف الليل كان التعب قد بلغ بى وبالرئيس حدا هائلا ، وقد اختلفنا واقعيا حول كل شىء .. حتى أنه كان أحيانا يقول لى : ساترك تتمدد وتستريح فى الحجرة نصف ساعة وأعود اليك . وكان الرئيس السادات قد أدرك بوضوح اننى لن أشارك بكتابة مشروع خطاب فيما تصورت أنهم مقدمون عليه . وسكت طويلا ثم قال لى فى لهجة رقيقة ومجاملة : طيب يا أحمد ، تقدر تروح تستريح واعتبر انك لاصلة لك بهذا الموضوع كله ! .

وودعنى - لدهشتى - فى مجاملة شديدة . وإن كنت أيضا قد حملتها على محمل الوداع الذى لا لقاء بعده . قبل مرور اسبوع ، ظهر الرئيس السادات على التليفزيون .. أخذنا بالنصيحة الأخرى ، فهاجم «انتفاضة الحرامية» بشدة بالغة وأعلن عن القوانين الاستثنائية العجيبة التى أجرى عليها استفتاء ، أعجب وأغرب . وفى الصباح التالى اتصل بى المهندس سيد مرعى وطلب إنى الذهاب فورا إلى منزله .. وذهبت إليه فقل لى : ما هذا الذى فعلته ؟ ما هذه القوانين التى ما أنزل الله بها من سلطان ؟ هل هذا معقول ؟

كان غاضبا ومنزعجا .. وقلت له اننى سمعت الخطاب من التليفزيون مثله .

فقال لى : نحن ياسيدى نعرف انك استدعيت من الكويت وانك قضيت مع الرئيس يوما كاملا ، وانك لابد صاحب هذا الكلام او مشترك فيه .. وقد كنت أنا ومصطفى خليل نتحدث فى ذلك بعد الخطاب مستخربين !

وشرحت للمهندس سيد مرعى بإيجاز اننى قاومت كل هذا الاتجاه بأقصى ما أستطيع .

وقال لى سيد مرعى : إذن من فضلك كتب هذه القوانين  
والاستفتاءات ؟  
قلت له : لا اعرف على الاطلاق وأنا أشد منك دهشة .. قال  
لى : ألم تسمع انها جاءت من مكتب اسماعيل فهمى ؟

وقلت للمهندس سيد مرعى قطعاً لا أرجو أن تصدق ما سأقوله لك . أنك  
إذا رأيت قطعة من الاثاث تستطيع ان تعرف اذا كان من صنعها نجاراً او  
أحد الذين لا صلة لهم بالتجارة .. هذه القوانين لا يمكن ان يكون قد كتبها  
أحد دارسى القانون . اللهم الا اذا كان الرئيس قد عثر على «تورى قوانين»  
مستعد لتفصيل أى شئ .

وأخذت أشرح له ما فى مشروعات القوانين ومشروع الاستفتاء من  
مخالفات دستورية لا يقبلها عقل تلميذ فى السنة الأولى فى كلية الحقوق .

واستمع المهندس سيد مرعى الى ما قلته له من شروح قانونية  
مذهولا .. واكتفى بأن ضرب بكف بكف ، بعد ان قلت له اننى مسافر غدا  
الى الكويت .. وارجو ألا يظلمنى أحد بعد ذلك . فأنا غير متقاتل على  
الاطلاق ..



## المذبذبة السياسية التي لهم قسم

إلى آخر يوم رأيت فيه السادات ، كان لايزعجه ويثير أعصابه ذكر أي شيء كذكر مظاهرات الخبز ، التي كان يشعر وكأن شعبيته التي تبدى بها على العالم بعد حرب أكتوبر قد مسحتها هذه العظاهرات وكأنها نوع من سبب الثقة الشعبية به أمام هذا العالم . وفي تقديري أن هذه المظاهرات قد تركت أكبر الأثر في حياة السادات ابتداء من انتهاجه سياسة القمع بشدة ، إلى قراره بالذهاب إلى القدس والحصول على أي صلح بأي ثمن ، إلى وضعه « ٩٩٪ من أوراق اللعب في يد أمريكا » كما كان يقول بعد ذلك في عبارته الشهيرة ، وأخيراً في انحيازه في الداخل كلياً ونهائياً ضد الفئات الشعبية ، بل لقد أصبح من يومها يكره مدينة القاهرة ، مدينة الذين كان يسميهم بـ « الأفنديات » و « الاراذل » قاصداً بذلك المدينة التي تعج بالمتقنين والطلبة والعمال والموظفين وكل المتحذلقين وطوال الألسنة ! . فصار يقضى حياته متنقلاً بين الاستراحات المختلفة خارج القاهرة ، حتى بيته في الجيزة لم يعد يتردد عليه الا لماماً .

وكان قد مر على مظاهرات الخبز بضعة أشهر فيما أظن ، وكنت في القاهرة في إحدى زياراتي قادمة من الكويت ، ورأيت على شاشة التليفزيون اجتماعاً يحضره أنور السادات ويشهده - لا أذكر - إن كان الاتحاد الاشتراكي أو أي جمهور آخر وكان الاجتماع على ما أتذكر في قاعة الاتحاد الاشتراكي . وتمثل توتر السادات في الجلسة من اللحظات الأولى ، واشتياكاته مع بعض الأعضاء ، خصوصاً مع عضو يساري ، ربما كان المرحوم قيارى عبدالله نائب قصر النيل - إن لم أكن مخطئاً - أعطاه السادات الكلمة . وقبل أن يفتح العضو فمه ، سأله السادات : قل لي أولاً ، وقبل أن تتكلم ، هل كانت مظاهرات الطعام انتفاضة شعبية أو انتفاضة حرامية ؟ ، وأخرج العضو وحاول أن يقول شيئاً من نوع أن الأمر يحتاج

الى شرح ، والسادات يقاطعه كل لحظة قائلا له : لالف ولا دوران ، قل لى  
أولا هل كانت انتفاضة شعبية - كما يقول البعض - أم انتفاضة حرامية ؟ .  
وطال الموقف على هذا المتوال العجيب ، وانتهى بعدم تمكن العضو من  
الكلام ! .

وكان السادات كما ذكرت سابقا ، يلقى مسئولية الأحداث على  
الشيوعيين وهو فى الواقع يقصد كل الماركسيين واليساريين والناصريين  
والافنديه والمتعذلقين والأراذل من غير ، سكان القرية « الذين بدأ تغزله  
بهم يتزايد ، حتى تمنى يوما - فى أحد خطباته - أن تصبح القاهرة « قرية  
كبيرة » ! وقد تحولت بعد ذلك بالفعل ، على هذا النحو الرهيب الذى نراه  
الآن ! .

وتحدث السادات بعد ذلك فى هذا الاجتماع حديثا طويلا بالغ الخطورة  
فقد جمع كل خصومه السابقين تحت عنوان خطير هو أنهم كفرية وملحدون  
ويدعون إلى المبادئ الهدامة إلى آخر المعروفة المعروفة . ثم قال ما  
معناه إن هؤلاء لا يجوز أن يكون لهم مكان فى المجتمع ، خصوصا فى  
الاماكن التى تؤثر على الشباب ، مثل الصحافة والاعلام والتدريس فى  
الجامعات والمدارس إلى آخره ! . وقال إنه يجب أن تصدر القواتى التى  
تخرج هؤلاء من هذه المواقع ومن غيرها ، وأعلن أنه سيرسل خطابا بهذا  
المعنى إلى ممدوح سالم رئيس الوزراء وخطابا مماثلا إلى سيد مرعى  
رئيس مجلس الشعب ، لتعاون السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية على  
إصدار هذه القوانين بسرعة .

ارتعدت فرائصى لما تصورت أننا مقبلون عليه . فهذه هى المكارثية  
المخيفة التى عرفتها أمريكا فى الخمسينيات ، وهذه هى محاكم التفتيش  
التي كانت تحكم على من تشاء بالكفر والهرطقة فى القرون الوسطى ، دك  
من هذا الرقض الرسمى لكل مايسمى حرية فكر ، أو عقيدة ، أو حتى حرية  
ضمير ! - ولكننى قلت لنفسى ماكنت أقوله أحيانا لأصدقائى من أن  
السادات كثيرا مايقوم « بفرقة » الكرياج دون اقدام على استعماله  
استعمالا حقيقيا .

وبعد أيام ، اتصل بى موظف من رئاسة الجمهورية ، وقال لى إن  
الرئيس فى الاسكندرية ، وأنه أرسل اوراقا لتوصيلها لى إذا كنت فى  
القاهرة .

وبعد قليل ، جاءنى خروف ، مخلق من مكتب السادات ، وفتحته واذا بى أجد  
فيه مشروع خطاب صادر من السادات إلى المهندس سيد مرعى بوصفه  
رئيسا لمجلس الشعب ، وكان الخطاب مكتوبا على الآلة الكاتبة . على  
الورق الخاص برئيس الجمهورية ، وعليه تعديلات وتأشيرات وتوجيهات  
عرفت على الفور أنها بخط أنور السادات نفسه ، ولعله عرف بوجودى فى



القاهرة ، فكتب على ورقة مرفقة مامعناه : يحول إلى مشروع الخطاب  
لابدء الراى .

وقرات الخطاب ، وبالهول ما قرأت ! إنه مشروع الخطاب الذى تحدث  
عنه الرئيس فى التليفزيون ! والذى يطلب فيه إصدار قانون بالمعنى  
السابق . ومع أنى لم اعتد على الاحتفاظ بأى أوراق طيلة حياتى ، إلا أن  
هذا الخطاب بالذات وجدته فى حوزتى منذ شهور قليلة ، ونصه كالآتى :

السيد المهندس سيد مرعى

رئيس مجلس الشعب

تحية طيبة وبعد

فقد كان فى مقدمة الاهداف التى وضعتها تصبب عيني منذ شرفنى  
الشعب بتجئلى المسئولية ، إعادة بناء المجتمع المصرى ، على أسس  
أهمها تنشئة الفرد فى مناخ صحى قويم ، لتكون دعامة الأولى التمسك  
بالقيم الروحية التى جعلت مجتمعنا العظيم نموذجاً فريداً فى التماسك  
والتضامن الاجتماعى والتكافل ، والتعلى بالاخلاقيات المصرية ، التى  
أصبحت تشكل حجر الزاوية فى البنيان الاجتماعى عبر القرون ، ولم تزدها  
السفون إلا رسوخا واستقرارا فى ضمير شعبنا العريق .

وكانت حرب العاشر من رمضان المجيدة قمة شامخة على طريق إعادة  
بناء الانسان العربى ، فقد كانت حرباً تحريرية بكل معنى الكلمة . إذ إن  
مداها لم يقتصر على تحرير الأرض ، وإنما تعداه إلى جانب أهم سن ذلك  
واخطر ، وهو تحرير الانسان من الخوف ومن المفاهيم الخاطئة والتمزق  
الذى يعصف به من الداخل .

ومن الطبيعى أن تكون تلك العملية مستمرة متصلة ، لأن التطور  
الاجتماعى لا يقف عند حد ، كما أن التغيير السريع أصبح من السمات  
البارزة لهذا العصر بحيث أصبح متعيّناً أن تتحقق دائماً من أن عملنا فى  
هذا الاتجاه قادر على الوفاء بالهدف .

كل هذا يتطلب - أول مايتطلب - أن تكون عملية تنشئة الفرد قائمة على  
أسس سليمة ، سواء من حيث الأشخاص القائمون بها الممسكون بخيوط  
التأثير عليها ، أو من ناحية محتواها ومضمونها ، أى القيم والمبادئ التى  
تغرس فى النفوس فى شتى مراحل العمر ، لأنها هى التى تشكل رؤية  
الانسان للكون ولموقعه منه ورسائله فى الحياة .

وقد انعقد إجماع هذه الأمة - التى لايمكن أن تجتمع على ضلال - على  
أن العلم والايمان هما الركيزة الأساسية للمجتمع المصرى ، لأنه بغير هذا  
الايمان الواعى ، القائم على تبين الوجهة التى يأخذها ، أو الهدف الذى  
يسعى اليه ، ودروس التاريخ وعبره تثبتنا بأن الحضارات التى يادت

وطواها النسيان هي تلك التي خلت من القيم الروحية وقنعت بالتطور المادى وحده .

( هنا أضاف السادات فى الهامش بخط يده : دولة العلم والايمان وخلورة العلم بلا إيمان مما نراه فى حضارة الغرب من حولنا ، وأن الايمان بلا علم تخلف عن منجزات العصر .. إلخ ، والقيم الروحية والقيم المادية ) .

ولذلك فقد عنى الدستور المصرى بالنص فى وثيقة اعلانه على أن شعب مصر مؤمن بترائه الروحي الخالد ، مطمئن الى إيمانه العميق ، معتز بشرف الانسان واثباته ، ولم يكن ايراد هذا النص لمجرد تحصيل الحاصل ، وإنما جاء نتيجة طبيعية ومنطقية لحرص الانسان المصرى على ترسيخ هذا المفهوم واستقراره فى الأذهان .

وإزاء هذا كله ، يكون ضروريا ألا تفسح الدولة مجالات التأثير على تشيئة الفرد وتربيته علميا وسياسيا وثقافيا إلا لعناصر تتحلى بتلك الصفات التى تؤمن بأنها العمود الفقرى للمجتمع ، وفى مقدمتها الايمان بالله وبالقيم الروحية والاخلاقية المصرية ، والاقتناع الاصيل بأن « صيغة تحالف قوى الشعب العاملة ليست سبيلا للصراع الاجتماعى نحو التطور الاجتماعى » حسبا جاء فى وثيقة إعلان الدستور .

كل هذا يجعل من المتعين على وقد عهد الى الشعب بمسؤولية الحفاظ على مقدساته وتراثه الحضارى ، أن أحمى شعبنا ، وبالأذات شبابنا الذى لا يزال يمر بمرحلة الانصهار والتكوين ، من تسلط العناصر التى تريد أن تفرض عليه مفاهيم وأساليب غير تلك التى ارتضيها فىصلا بين الحق والباطل ومعيارا للتمييز بين الصواب والخطأ ، لأننا اذا اعطينا هذه العناصر الفرصة لاستغلال الامكانيات المتاحة امامها للتأثير فى النفس على هذا النحو المخرب ، فإننا نكون مقصرين فى أداء الامانة التى عهد بها الشعب الينا ، وهو أمر لا أقبله ، خاصة بعد التجارب المريرة التى ساءلت ماثلة فى أذهاننا .

( بجوار الفقرة الأخيرة ، كتب السادات فى الهامش بخط يده : إعادة صياغة يذكر فيها اليسار المادى واليمين المتحجر الذى لا يتورع عن استغلال الدين ، ويذكر فى هذا أحداث ١٨ و ١٩ يناير عن اليسار وجماعة التكفير عن اليمين ) .

لكل هذا ، فقد طلبت إلى رئيس مجلس الوزراء ان تتقدم الحكومة بمشروع قانون ينظره المجلس فى إطاره الدستورى السليم ، بحيث ينتهى من نظره فى دورة الانعقاد الحالية ، بهدف تنقية مناخ الوظائف المتصلة بالاعلام والثقافة والتعليم ، والتأثير الجماهيرى الرسمى وغير الرسمى من العناصر التى تروج لمعتقدات أو مفاهيم تتعارض مع إيماننا بالله وقيمتنا

الروحية وتراثنا التاريخي أو تثير فتنة الصراع الطبقي أو استغلال الدين أو تحريض على المساس بالوحدة الوطنية ، بحيث لا يتولى هذه الوظائف إلا من يدعو - عن إيمان - إلى ترسيخ هذه القيم والمعتقدات والمبادئ التي حفظت لشعبنا شخصيته ومقوماته عبر آلاف السنين ، حتى تستقر في النفوس والأذهان ، ولا يبقى هناك مجال لتشر القلق أو الشك أو التعرق ، أو الذيل من الانتصار الكبير الذي حققه أبناؤنا البواسل في تلك الأيام المجيدة من أكتوبر ، يوم أن عبروا بالامة كلها من الهزيمة إلى النصر بالايمن بالله ، فكان اسم الله على ألسنتهم ، وكان الايمان به يملأ قلوبهم العامرة ، فلا يعقل بعد كل هذا أن نأتمن عناصر تقف من هذا الايمان موقف العداء على عقول أبناؤنا وأفئدتهم وأخلاقياتهم ، وإلا كان معنى هذا أننا نتقاضى عن تخريب الضمير الجماعي للامة ، وذلك موقف لا يمكن أن نأخذه ، وفاء لحق الله والوطن . ( وكتب السادات في الهامش هنا : إعادة صياغة تذكر كل هذه المعاني على أن يصدر في التشريع أيضا الضمانات اللازمة لتحقيق هذا الهدف ) .  
والله الموفق والمستعان .

محمد أنور السادات

وقع هذا الخطاب على نفسي وقور الصناعة ! فالأمر إذن جد خطير ، ونحن مقبلون على مواجهة رهيبة ورجعة هائلة إلى الوراء في حياة مصر السياسية . إنها فعلا محاكم التفتيش ، ستقام لادانة كل من يعارض السادات في أي شيء وإدائته ، بماذا ؟ بالكفر والإلحاد ! ، سواء كان هذا الكفر « يساريا » أو « يمينيا » ... لقد أصبحت مدركا تماما أن فكرتي الأولى عن السادات قبل أن أعرفه هي الصحيحة . وهي أنه في تكوينه الحقيقي وخلفيته منذ مطلع الشباب « فاشستي كامل » . وأن ما يدفعه إلى الأخذ ببعض صور ليبرالية شكلية هو الحاجة إلى التقرب إلى الغرب ، ومن الرئيس الأمريكي كارتر بالذات ، الذي نصحه بذلك لكي يقطع الطريق على خصوم السادات في الصحافة الأمريكية ، ويسهل بذلك مهمة كارتر في الضغط على إسرائيل . فانا الآن مسوق إلى مواجهة أخرى عنيفة معه ، ليس إزاء التصرف في موقف سياسي عابر ، ولكن إزاء ماصرت متأكدا من أنه اقتناعاته الشخصية العميقة .

وكان من كلمتي من رئاسة الجمهورية قد أبلغني أن الرئيس سوف يتصل بي بعد يوم أو يومين تليفونيا من الاسكندرية . وقضيت يومين « كالدانخ » الذي وقعت على رأسه صخرة هائلة . ماذا أفعل ؟ هل اتغافل وأسافر قبل أن يتصل بي السادات ؟ ، هل يمكن تجنب مواجهة شخصية أخرى معه ، ستكون عنيفة هذه المرة ، استنتاجا من

العنف الذى رأيته عليه على شاشة التليفزيون ؟  
وأخيراً وجدت انه لأمفر من مواجهة الموقف بكل صراحة . واذكر اننى  
قلت لنفسى : إن السادات فى حالة الراهنة أشبه باللورى الضخم المتدفع  
بسرعة هائلة . ولا مجال لوقف هذا اللورى إلا ان أنام بعرض الطريق على  
الأرض ، وبعد ذلك اما ان يتوقف اللورى وينزل السائق ويكون ثمة مجال  
للتفاهم ، وإما ان يندفع اللورى ويدوس النائم على الأرض . وينتهى  
الامر .

وبعد يومين فعلاً ، كنت أفتح باب البيت وقت الغروب فى طريقى الى  
الخروج ، حين دق جرس التليفون وقال لى المتكلم ان الرئيس سوف يتصل  
بى خلال ساعة ، وإن على أن انتظر بجوار التليفون حتى يخرج من عنده  
من ضيوف .

وانتظرت هذه الساعة بجوار التليفون ، أحاول أن ارتب افكارى ،  
وأحاول أن أجد الحجج التى قد تكون أكثر اقناعاً للسادات من غيرها..  
وكان من الأساليب التى اتبعها مع السادات كثيراً لاعطى نفسى حرية  
أكثر فى الحديث مع رئيس الدولة ، أن أبدا معارضتى له فى شىء  
سيصدمه قائلًا : من أشار عليك ياريس بهذا الرأى ؟ ثم اندفع مهاجماً  
« الشخص المزعوم » الذى افترضت انه قال له هذا الرأى أو ذاك .  
ودق التليفون ، وجاء صوت السادات من الاسكندرية قويا واضحا ،  
وبعد السؤال عن الصحة ، سألنى اذا ماكنت قد قرأت الأوراق التى أرسلها  
الى ، فقلت له : قرأتها ياريس ، ومن ساعتها وأنا كالدائح ، غير قادر على  
ان افيق من الذهول ، وسألنى لماذا ؟

إننى لا أذكر كل ماقلته ، فقد اندفعت بلا وعى فى حديث متدفق عنيف  
يملا صفحات طويلة لو حاولت ان أتذكره كله . وكان السادات يسمعنى  
صاعتا تماماً ، حتى كنت اتخيل أحيانا أن الخط قد انقطع ، فأسأل :  
سامعتى ياريس ؟ فيرد فى اقتضاب : ايوه ، معاك يا أحمد .

من الذى أشار عليك ياريس بهذه الحكاية ؟ لقد سمعتك تشير اليها فى  
التليفزيون ، ولكننى حملتها على محمل التهديد والتخويف فقط ! ان  
الاسلام منذ ألف وأربعمائة سنة - حسب معلوماتى - لم تحكم فيه أى  
سلطة مدنية أو قضائية على إنسان واحد بأنه كافر وملحد إلا فى حالات  
نادرة وفى مراحل شديدة الظلام ! ويجب أن تصدقنى أنه مهما حدث فلن  
يصدر قانون بهذا المعنى . وإذا صدر قانون يعطى محكمة أو لجنة حق  
الحكم بأن فلاناً ماحد وغير مسلم ، فلن يوجد شخص واحد يتطرق بهذا  
الحكم !

ثم لو افترضنا مثلاً ان هناك كاتباً كتب ونشر عشرة مؤلفات يقول فيها

إنه ملحد ، فإنه سوف يجيء الى المحكمة أو لجنة التطهير ، حاملا في جيبه مصحفا صغيرا ، اذا أخرجه من جيبه وقال لمن يحاكمونه : نعم ، كنت ملحدا ، ولكنى الآن أمنت ، ووضع يده على المصحف وقال : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله » فإنه لم يوجد - منذ أول الاسلام ولن يوجد حتى آخر الدهر - من يستطيع أن يقول لهذا الرجل : نحن لانصدقك ، ونحكم بك كافر ! . ان الذين أشاروا عليك بهذه القوانين ليست لديهم أية فكرة عن الاسلام ولا روحه ولا تعاليمه ولا سوابقه ! وبصراحة ، اسمح لى أن أقول لك إننى أعتقد أن من أشاروا عليك بذلك « خواجات » لا يعرفون ديننا ويخرجونك أنت شخصا عن الاسلام بجهل هائل منهم ! إن هذه قوانين « سالا دار » وعن اليهم ، لأن الكاثوليكية عرفت هذه الاشياء التى لم يعرفها الاسلام قط . ثم إننى لا أعرف رد الفعل الرهيب الذى سيكون لحركة التطهير التى ستشمل الآلاف بهذا الشكل . ومن المثقفين والصحفيين واساتذة الجامعات بالذات ! لا أعرف رد فعل هذا فى الصحف الأمريكية بالذات ، يكفى أن يذكر كاتب صهيونى كلمة « المكارثية » حتى تفقد تماما الصبر التى كسبتها امام الرأى العام الأمريكى . وجميى كارتر بصقة خاصة ، يحاول أن يجعل رأس ماله استخدام ورقة « حقوق الانسان » وانه بهذا سوف تخرجه تماما وسوق تجعله غير قادر على الدفاع عنك بأى طريقة ! . ان هذا الخطاب يجب ألا يصل إلى مجلس الشعب ولا إلى مجلس الوزراء ، بل ويجب ألا يتسرب إلى يد مخلوق !

اندفعت بحماسة وعنف فى كلام كثير حول هذه المعانى ، حتى شعرت بالاجهاد الشديد وبانتهاء طاقتى على مواصلة الكلام . ولم أسمع ردا ولا تعقيا للحظات قصيرة . فقلت : أنا أسف باريس ، أنا أشعر اننى كنت مندفعاً ولا أذكر كل ماقلت ، وأشعر اننى استعملت عبارات غير لائقة . ولكن أؤكد لك ان هذا هو اجتهادى الصميم .

وفوجئت بالرئيس السادات يرد على قائلأ بعد صمت غير طويل : بالعكس يا احمد ، أنا متشكر على الكلام الذى قلته لى ، وانت ماغلطتش فى حقى . امال انا بأبعت لك الحاجات دى ليه ؟ . أنا متشكر تانى يا احمد . وأسى الموضوع تماما وانا ح انساه . واعتبر الورق الذى عندك كأنه ماچالكش .

وشعرت ان موجة سوداء قد انقضت ، واننى أستطيع ان اتنفس . ومن اللافت للتأمل أن السادات اضيف بخط يده « جماعات التكفير والهجرة » الى الآخرين لبيدوا متوازنا .

ولو صدر هذا القانون وطبق ، فانه ماكان لى يصبح مجرد « تطهير »

مادى بل هو PURGE بالمعنى الهتلري ، يزيح من فوق مسرح الحياة المصرية العامة ، وإلى الأبد ، شريعة بأكملها من المجتمع المصري بعشرات الآلاف .. الأمر الذي كان سيعد أخطر ما أقدم عليه السادات . وقد تعمدت أن أضغط بشدة على رد فعل مثل هذا القانون في الصحافة الأمريكية ، التي كانت تهم السادات في الدرجة الأولى ، وبالتسوية لموقف كارتير شخصيا ، الذي كان ينصح السادات دائما بضرورة الاحتفاظ بدرجة من الليبرالية في مصر . وقد شعرت أن تذكيره بخكاية « المكارثية » ووقعها في أمريكا قد أزعجه بصفة خاصة .

وكانت في مصر وقتها صحفية أمريكية صديقة للسادات وأُسوته ، وكانت ذاهية لعمل حديث صحفي معه ، وحرصتها على أن تسأله عن تمسحياته في التليفزيون ، وعما إذا كانت نوعا من المكارثية إذ لم تكن واثقا من أن السادات قد عدل حقا عن مشروعه ، و... و... وعادت الصحفية الأمريكية الصديقة واسمعتني « شريط التسجيل » للحديث ، لاسمع ثورة السادات الهائلة عليها عندما سألته هذا السؤال ، وبعد ذلك أصدر السادات أمرا بالآي بيري ولا تزي زوجه هذه الصحفية ، صديقة الأسرة » نهائيا .

اننى اعتقد ، دون مبالغة ، اننى حلت بين السادات وبين ارتكاب غلطة قاتلة وإن كان قد عاد الى بعضها حين أصدر قوانين « العيب » وما إليها .. وحقيقة ، لست أدري من كان يشير عليه أحيانا بهذه « المهالك » ان هذه المرافعة تذكرنى بواقعة سابقة ، وقعت قبلها بسنوات . فقد استدعانى مرة الى الاسكندرية ، وقال لى : انه قرر التصديق على الحكم الذى أصدرته المحكمة ، بالاعدام على المتهمين في قضية « الفنية العسكرية » ، أى « صالح سرية وجماعته » الذين حاولوا الاستيلاء بالقوة على الكلية تمهيدا لمحاولة انقلاب ساذجة ، سقط فيها ١٧ قتيلا .. ثم قال لى انه يريد أن يقوم بعمل جديد ! انه يريد أن يظهر على شاشة التليفزيون ويلقى خطابا يشرح فيه للناس لماذا قرر التصديق على حكم الاعدام ..

ويومها أيضا قلت له فزعاً : من اشار عليك ياريس بذلك ؟ هذه مشورة سيئة النية إلى آخر الحدود !

وكان منطقى كما قلته له : لقد تمت المحاكمة .. وأصدرت المحكمة الحكم بالاعدام ، وأحيلت الأوراق الى المفتى الذى صدق على الحكم ، وأنت قررت أن تمارس اختصاصك وتصدق بدورك عليه . فلماذا تريد أن تخرج على الناس وتلقى خطابا تشرح فيه « حيثياتك » لتنفيذ الاعدام ؟ انتهى ياريس لست مستعدا لأن اكتب حرفاً واحداً من هذا الخطاب !! وانصح بكل شدة ألا تفعل ذلك ! إن مثل هذا التصرف من شأنه أن يجعل

بينك .. شخصيا .. وبينهم « دما » ! وكأنك صاحب قرار الاعدام في البداية ، وقبل أى محاكمة ! من ينصحك نصائح تحقر بينك وبين فئات من الناس حفرة واسعة !؟ متى كان الحاكم يقف ويدافع عن قرار اليم حزين ، مهما كانت الظروف .. يكفي ان تمارس اختصاصك وكفى .  
وكان متطه : ان الناس تنسى ! لقد نسي الناس ان مافعله هؤلاء أدى إلى قتل سبعة عشر شابا بريئا !

وقلت له ان الصحف ستتشرب نبتة الاعدام ، وتتشرب بالضرورة اصل الحكاية وعدد ضحايا المحاولة وأجزاء من متعلق حكم المحكمة التي تشير إلى ذلك .. وهذا كاف ! أما ان تظهر بشخصك على الشاشة فتشرح أسبابك لتوقيع عقوبة الاعدام فإنك بذلك تعطى الامر طابعا « شخصيا » ، وان لديك سببا فوق أسباب القانون ، ودورا فوق دور النيابة والقضاء والعفتى ..

وبومها أيضا .. شعر السادات وكأنه كان سيقدم على غلطة ضخمة .. فعدل عن قراره الذي أحضرني من القاهرة إلى الاسكندرية بسببه ، وشكرني على هذا الرأي .

كالعادة ، اتصل بي السفير المصري في الكويت ، وأخطرتني بأن الرئيس السادات يطلبني في القاهرة .

وبعد أيام كنت لديه ذات صباح في استراحة العمورية ، وقال لي : ان ٢٣ يوليو هذه السنة (١٩٧٧) سيصادف مرور ربع قرن على ثورة ١٩٥٢ . وقال أيضا إنها ستكون بهذه المناسبة آخر مرة نحتفل فيها بذكرى الثورة على نطاق واسع ، ولذلك طلبت إليك الحضور لكي تكتب خطابا خاصا بهذه المناسبة التي لن تتكرر بعد ذلك .

قلت له : في هذه الحالة فأننى اعتقد ان خطاب ٢٣ يوليو لا يجوز أن يكون تكرارا للخطاب السنوى التقليدى الذى ينصب أساسا على استعراض أحداث الثورة واسترجاعا لها . فهل ياترى هناك فى الجو السياسى شىء جديد نبرزه فى هذه المناسبة ؟

كان قد مر على حرب ٧٣ سنوات بلا نتيجة من النتائج المتوقعة ، وقد حدثت حوادث ١٨ ، ١٩ يناير بأثارها القاتمة التي بددت أسطورة الرخاء الذى سيهبط بعد الحرب بسرعة ، وانقضت الجوارح تنهش خيرات الانفتاح ..

قال : لا توجد ا خيار هامة لافتة للنظر وأقترح ان تقضى الليلة هنا ( أى فى الاسكندرية ) فى فندق فلسطين ربما يخطر لك بين اليوم والغد فكرة ما .

قلت له : سيكون هناك بالتأكيد جزء عن تاريخ الثورة وأدى ان يكون

هناك تركيز على فكرة الانتقال من « الشرعية الثورية » الى « الشرعية الدستورية » ، وكنت أنا الذى شرح له قبل سنوات أهمية هذه الفكرة ، ووضعت هذه الصيغة فى خطابه ردا على الذين يتجادلون عبثا فى حكاية « الثورة » أو « الانقلاب » والذين يتجادلون أن « الثورة » حدث استثنائي ولكنه يحدث فى حياة أى شعب من الشعوب ، حين يستجیل التقدم بغير ذلك . وإن الانتقال إلى حياة دستورية تعددية ليس حكما ضد الثورة ، ولكنه استئناف للحياة الطبيعية بعد مرحلة استثنائية كان لابد منها ، وإن للثورات « شرعية » وقوانين داخلية ...

ثم قلت له : ولكن حبذا لو فكرنا فى شيء آخر يكون جديدا ويكون مناسباً لاتقضاء ربع قرن على الثورة والانتقال الى مرحلة جديدة . وحبذا لو كان هذا الشيء الجديد متصلاً بالمستقبل حيث أننا فنقل الى مرحلة جديدة .

واخذت أسأله وأحاول إثارة سذيلته عن أى تصورات للمرحلة الجديدة . وكان يقول مامعناه إن المرحلة الجديدة قد بدأت بالفعل بالبرلمان والاحزاب .

وخطر لى فكرة ، وتوقعت ألا تلقى لديه قبولا ، ولكنى قلت له : ما رأى سيادتك لو أعلنت بمناسبة مرور ربع قرن وبدء الانتقال تدريجيا إلى « الشرعية الدستورية » عفوا شاملا ؟! ونظر إلى فى دهشة من بوعت بشيء غير متوقع ، ثم سألنى : ماذا تقصد بحكاية « العفو الشامل » ؟ قلت له : أى أن تقول للناس جميعا على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم « اذهبوا فانتم الطلقاء » !

- يعنى ايه ؟

- يعنى ياريس احداث الثورات فى كل زمان ومكان تغطى بالمعارك والصراعات والاجتهادات ، وتقع فيها مصادمات عنيفة من وحى اجتهاد اللحظة وعدم وضوح الرؤية فى الغيار الكثيف الذى يقترب بآى ثورة من قدم وبناء ، ويدخل الناس السجون ويخرجون منها ، وتتهارب المقاعد ، وتتبدل الأدوار ، وتسقط ابنىة اجتماعية بأكملها ويقوم غيرها ، الى آخره . والساحة المصرية حاليا - كآى ساحة بعد أى ثورة - مليئة بالضحايا والجراح وتاريخ الصدامات والتقلبات التى كان لأمير منها . ومرور ربع قرن فرصة مناسبة ، لأن نمحو أثر هذا كله ، ونعلن أننا جميعا - أصينا أو أخطانا - يجب أن نبدأ من جديد ، ومن النقطة التى وصلنا إليها ، وفى مواجهة الموقف العصيب الذى نحن فيه ، فحرب ١٩٧٣ مضت عليها أربع سنوات ولم تتحرك إسرائيل خطوة واحدة الى الوراء منذ فك الاشتباك . ومظاهرات يناير ليدت الجو بالغيوم ، وأرضنا مازالت محتلة و « العفو الشامل » هنا معناه إنهاء كل أثر لآى قرار عزل أو سجن ، أو أى عمل آخر



وقع في الساحة السياسية من يوليو ١٩٥٢ إلى يوليو ١٩٧٧ .  
وشعرت ان السادات يستمع الى ملأى وقى اهتمام شديد . ومضيت  
ادافع عن هذه الفكرة بحرارة . فالثورة قد أنجزت أهم إنجازاتها السياسية  
والاجتماعية والاقتصادية . واحسن تصرف بعد ان اعلنا الانتقال من  
« الشرعية الثورية » الى « الشرعية الدستورية » ان نعطي المصريين  
جميعا فرصة البدء من جديد على قدم المساواة . كلنا اجتهدنا واصبنا  
واخطانا بحكم تكويناتنا وخلفياتنا ومواقفنا . وانتظت لحظة الصراع ،  
وجيوش اسرائيل مازالت تحتل سيناء .  
وقال لى السادات . إن الفكرة تستحق البحث . ولكنها « حكاية كبيرة »  
وبعد أن كان المفروض أن أتركه قبل الظهور ، قال لى : ستأتى معنى الى  
« استراحة المنتزه » لنستأنف الحديث وتتغذى معنى هناك .  
ولم اكن قد سمعت عن « استراحة المنتزه » هذه ، وخرجنا لاجدهم وقد  
جاءوا للسادات بسيارة « نصر » طراز جديد صغير ، ركبها جالسا امام  
عجلة القيادة ، وجلست بجواره ، وانطلق بالسيارة عابرا متلطفة المعمورة ثم  
من الباب الجانبى الى حديقة قصر المنتزه حتى وقف وسيارات الحرس  
وراءنا على صخرة مرتفعة من مستوى الأرض ومظلة على البحر مباشرة ،  
ونزلنا من السيارة وليس حولنا شيء .  
حتى اتجه الى فتحة فى الأرض نزلنا منها على سلم الى حيث وجدت  
مكانا غاية فى الجمال : بحيرة طبيعية محفورة فى الصخر فى حجم حمام  
سباحة متوسط ، وحولها ثلاثة مبان أو أجنحة منفصلة ، جلسنا فى أحدها  
وكانت سيدات العائلة يجلسن فى مبنى آخر . كل هذا محفور تحت إحدى  
صخور شاطئ المنتزه .  
وطلب السادات القهوة والشاي ، وعاد ينفث الدخان فى غليون من  
جديد ، وطلب إلى أن أعيد شرح الفكرة عليه . كان واضحا ان الفكرة قد  
اعجبته ، وبدأ يديرها فى ذهنه ، ربما لانها تعطيه فرصة موقف تاريخى من  
المواقف التى كان مغرما بها ، وفاجأنى بأول سؤال عن فكرة « العفو  
الشامل » من ناحية تطبيقه العملى ، فقد كان أول سؤال فاجأنى به هو :  
- معنى كده ان على صبرى يطالع من السجن ؟!  
كنت اتوقع ان يثير فى وجهى قضية المعتقلين على ذمة قضية مظاهرات  
الطعام التى كان يثيره ذكرها . وفوجئت تماما بهذا الاستفسار الأول .  
وقلت له : طبعا ! وفيها إيه ياريس ؟ لاتؤاخذنى إذا رجعنا الى موضوع  
قديم ، فحكاية ١٥ مايو دون تفاصيل لا خيانة عظمى ولا حاجة . كانت  
ضراعا سياسيا وقد كسبته أنت .  
والذين حاكمهم الثورة ، من الضباط بتهمة محاولة الانقلاب ، - وكانت

محاولات حقيقية - كثيرون ، وقد أعفى عنهم وهم اما مطلقا واما يشغلون مناصب هامة ! ثم اننى كنت أتناول طعام العشاء فى القاهرة أول أمس مع بعض الأصدقاء فى مطعم « اليونانيون » فى شارع ٢٦ يوليو فى قلب القاهرة . واذا بى أجد على المائدة المجاورة شعراوي جمعة وعبدالمحسن أبو النور ، اللذين سجننا فى القضية نفسها وأطلق سراحهما ، يتناولان العشاء . وقد تصافحنا وتعانقنا ولم يلتفت إلينا أحد ! .

وسكت السادات قليلا يتفكر ، ثم قال : ويتورع التكفير والهجرة اللئى قتلوا الشيخ الذهبى ؟

قلت له : هذه مسألة فى يد القضاء . وأظن أن من تثبت عليه تهمة ارتكاب القتل لا ينطبق عليه عادة العفو السياسى الشامل .

وعاد الى تفكيره من جديد . ثم سألنى مرة أخرى :  
- والعياذ بالله يتورع ١٨ و ١٩ يناير ؟ الذى كل ما تمسكهم تقولوا لنا أطلقوا سراحهم ، حتى أصبحوا يتصورون أننا نطلق سراحهم عن ضعف ؟  
وقلت للرئيس السادات : بصراحة ، انا لم أتوقع أن تسألنى الا عن هؤلاء ! وسياذك تعرف رأى . انهم جميعا سيحصلون على احكام بالبراءة من القضاء . واثبت حين تسبق ذلك وتطلق سراحهم ضمن « العفو الشامل » ستكون صاحب فضل ، ثم ان المناسبة فى مناسبة مرور ربع قرن على الثورة ، وضمن عفو يشمل كل الفئات والاتجاهات والقضايا القديمة والجديدة . فليس فى ذلك أى مظهر ضعف .

ويعد تفكير عميق من جانبه ، قال لى : ما رأيك لو جعلنا العفو يشمل الفترة بين قرار اعلان سقوط دستور ١٩٧٣ وإعلان قيام الدستور الدائم الحالى ؟

كان واضحا ان السادات موافق من حيث المبدأ على فكرة العفو الشامل ، ولكنه يحاول الا يجعلها شاملة لكل الفترة بين ١٩٥٢ و ١٩٧٧ ، ويحاول أن يجد تاريخين آخرين بحيث يخرج اشخاصا بعينهم أو فئات يعيها من دائرة الذين يشملهم العفو الشامل .

وقلت له إن أهم عنصر فى « العفو الشامل » هو أن يشمل فترة تاريخية كاملة ، وأن يحمل فى شموله معنى فتح صفحة جديدة حقا بالنسبة لكل الفئات . وفى تقديرى ان هذا العفو الشامل اذا اقترون بأى تجديدات تؤدي الى استثناء فئات أو اشخاص ما ، فسوف يفسد وقع هذا العفو الشامل لدى الرأى العام ، ولن يحمل معنى نهاية حقبة تاريخية من الزمن ، وبدء حقبة جديدة حقا . وقلت له فيما اذكر : بعد كل ثورة تأتى مرحلة تحدث فيها « مصالح وطنية » حقة بالمعنى الوطنى والقومى مع بقاء التيارات والاختلافات فى الاتجاهات بالطبع . أى أن تعود المشاركة السياسية حقا

للجميع . وفى تقديرى ان هذا وقت مناسب لان تبدأ فيه هذه المصالحة الوطنية بشكل حقيقى .

ومع الغروب ، كان واجعا لى أن الرئيس السادات قد انشرح صدره للاقتراح بالفعل ، بل وصار متحمسا له ، إذ كرر لى شكره على الاقتراح قائلا : « إن مشوارك من الكويت برضه جه بفائدة » .

وعدت إلى القاهرة ، وأرسلت الخطاب كاملا ومكتوبا على الآلة الكاتبة ، وفى ختام الخطاب بضع فقرات أذكر أنها تحدثت عن أنه « اليوم قد دارت دورة كاملة من دورات الزمن » وكلام حول هذا المعنى ينتهى بالسطور القليلة الحاسمة التى تعلن عن قرار العفو الشامل .

بعد عودتى إلى القاهرة بيوم أو يومين ، اتصل بى المهندس سيد مرعى ، وذهبت إليه فى بيته فى الزمالة . وكانت العلاقة بين السادات وسيد مرعى رغم المصاهرة بينهما تمر بفترات من الاقتراب الشديد وفترات من التباعد والبرود . وكان سيد مرعى فى مثل هذه الفترات يكون فى قلب السلطة ، دون أن يكون على معرفة بما يجرى ، تتناسب مع وضعه . وقال لى سيد مرعى انه يعرف ان الرئيس طلبة من الكويت وأننى كنت لديه بالاسكندرية لاعداد خطاب ٢٣ يوليو المقبل . وسألنى هل هناك أخبار هامة فى هذا الخطاب ؟ . وقلت له : ابدأ ، باستثناء انه سيكون آخر خطاب عن ٢٣ يوليو بمناسبة مرور ربع قرن على الثورة .

ولم يصدق المهندس سيد مرعى قولى فيما يبدو ، إذ راح يضغط بالاستئلة على ماسوف يكون فى الخطاب من أخبار جديدة ، وان المناسبة تستدعى من ياب أولى أن تكون هناك أخبار جديدة هامة . ولم أكن أريد أن أذكر أى شئ عن موضوع العفو الشامل الذى سيعلم فى الخطاب ، لا لسبب معين ، إلا السلوك الطبيعى . وهو انه ليس من حقى ان اذيع أى شئ عن أى خطاب قبل ان يلقيه صاحبه . ولكننى ، تحت احراج لبقافة سيد مرعى ، وجدت نفسى اقول بشكل غير محدد : اظن ان الرئيس يفكر فى نوع من العفو الشامل .

وفوجئت بالمهندس سيد مرعى الذى يتميز بهدوء اعصابه وحنكته وابتسامته الدائمة ، فوجئت به يتجههم وجهه ويسألنى بانفعال شديد لم اعرفه فى المهندس سيد مرعى لا من قبل ولا من بعد . يعنى ايه عفو شامل ؟ وطلب الاتصال بممدوح سالم . ولاشك انه انتبه الى انه من الاضرب ان لايتحدث مع ممدوح سالم فى حضورى . فانصرف .

وفى يوم القاء السادات الخطاب ٢٣ يوليو جلست امام التلفزيون استمع الى الخطاب . واخذ السادات يلقي الخطاب بحذافيره ، حتى وصل الى الجزء الأخير وألقى « مقدمة الختام أيضا بحذافيرها » لقد تمت اليوم دورة كاملة من دورات الزمن .. الخ » ثم انهى خطابه دون ان يقرأ الاسطر

الثلاثة الاخيرة ، التي تعلن عن العفو الشامل ١١ وهكذا ضاعت في تقديري فرصة مواتية « لتدبير الفيوم الثقيلة من التوتر التي تظلل البلاد » منذ حوادث ١٨ / ١٩ يناير كما قلت للسادات في الاسكندرية وانا اقتنعه بقضية اعلان العفو الشامل والمصالحة الوطنية الحقيقية !

وتذكرني حكاية ( آخر احتفال بـ ٢٣ يوليو ) بواقعة حدثت قبل ذلك في السنة نفسها . فقد علمت ان تعليمات سرية ارسلت الى سفرائنا وإلى ملحقينا العسكريين في الخارج تقول انه تقرر تغيير عيد مصر القومي الى ٦ أكتوبر والغاء ٢٣ يوليو . وانه تمهيدا لذلك على السفراء هذه السنة ان يُقيموا احتفالا صغيرا ( كوكتيل محدود بالذهار كما حدث فعلا في بعض السفارات ) وان يقيم الملحق العسكري الاحتفال الكبير يوم ٦ أكتوبر . كما علمت ان هذه التعليمات اثار غضب بعض السفراء ، الذين حسموا على اقامة احتفال ٢٣ يوليو بالحجم المعتاد ، وانها في بعض العواصم اثار مشاكل وخلافات بين السفراء والملحقين العسكريين . ومرت يوم ٢٢ يوليو في حالة ارتباك شديد وقد تصرف كل سفارة بالشكل الذي امله عليها لاجتهادها الخاص .

ونذهيت الى المرحوم المشير احمد اسماعيل القائد العام للقوات المسلحة في ذلك الوقت وكانت علاقتي به حميمة وتتسم بالصراحة الكاملة . وسألته عن هذا الموضوع . وقال لي المرحوم المشير احمد اسماعيل بصراحته ورجولته المعتادة ، نعم هذا صحيح . وقد حدث بعد ان ارسلت التعليمات دون ان اعرف وجاءتني استفسارات من الملحقين العسكريين . ذهبت بعدها الى الرئيس السادات . وقلت له انني اعتقد ان ٢٣ يوليو هو عيد مصر القومي والدول لا تغير عيدها القومي كل بضع سنوات . وان يوم ٦ أكتوبر قد سبق وافقنا على ان يكون هو يوم الجيش المصري ، واحتفلنا به بضع سنوات على هذا الاساس ، وكل جيش في العالم له عيد قومي وهذا افضل تاريخ يجب ان يبقى عيدا قوميا للجيش المصري .

وقال لي المشير احمد اسماعيل : ان الرئيس السادات وافقه على ذلك ، وأمر بالغاء التعليمات السابقة وان ما حدث لن يتكرر مرة اخرى .



## بين رحلة القدس ومباحثات الاسرائيلية

هذه المرة كنت أنا الذي بادرت الى ركوب الطائرة والذهاب من الكويت الى القاهرة بأمل أن أقابل الرئيس السادات ، ولم أكن أدري أنها ستكون آخر مقابلة لى معه .

كان الرئيس السادات قد فاجأ العالم برحلته الى القدس . وكنا لم نفق بعد من هول الصدمة عندما جلسنا فى بيتى فى الكويت كمئات الملايين فى العالم . حول شاشة التليفزيون نرى بالافكار الصناعية المشهد الذى لا ينسى لأول طائرة مصرية تهبط فى مطار بن جوريون فى إسرائيل وينزل منها رئيس جمهورية مصر ويستعرض حرس الشرف حاملا الاعلام الاسرائيلية ثم يأخذ فى مصافحة كل الوجوه الاسرائيلية المعروفة لنا : مناحم بيجين وجولدا مائير ، وابا ايان وموشى ديان ، الى آخره !! كان المشهد كأنه غير حقيقى ! وشعرت أن هذا الحدث غير العادى بكل المعايير لابد أن له خلفيات عميقة وله نتائج بعيدة ، لا يكفى فيها الاعتماد على مصادر الانباء العادية ، خصوصا أن فى امكانى أن أقابل يعال الحدث التاريخى شخصيا وهو الرئيس آنور السادات ..

قد ذكرت فى مقدمة هذا الكتاب اننى لن اتسب الى الرئيس السادات الا ماسمعت منه شخصيا . واننى سأوضح للقارئ الفارق بين ما عرفته منه شخصيا وبين ما عرفته من مصادر أخرى ، انصافا للرجل وللتاريخ ، حتى يزن المحللون والقراء الامور بموازينها المختلفة .

لقد سمعت - وأظن أن ماسمعته يحمل فى رأى صفة اليقين - أن الرئيس السادات قبل هذه الزيارة بسنوات دخل عليه السيد حسن التهامى ذات يوم وقال له : ياسيادة الرئيس لقد رأيت لك حلما غريبا ! رأيتك فى المنام تصلى فى المسجد الاقصى بالقدم ! ونحن جميعا حولك وأنا بالذات بجوارك ! والمسجد كله ملئ بالمشايخ الذين يلبسون العمام !

وللسيد حسن التهامي شخصية غريبة .. كان من أول زملاء عبد الناصر في حركة الضباط الأحرار .. وكان مشهورا باستقامته الشديدة وأمانته المطلقة وحدة شخصيته وتدينه . وهو الرجل الذي ذهب الى رجل المخابرات الأمريكية في المعادي بعد الثورة ليتسلم " الهدية " التي أرسلها الرئيس الأمريكي في ذلك الوقت ايزنهاور ، بعد نجاح إبرام اتفاقية الجلاء مع الانجليز في صورة ثلاثين مليون دولار باسم الرئيس محمد نجيب ، بحجة أن الرئيس الجديد لكل دولة نامية يحتاج الى مصروفات سرية خارج الميزانية الرسمية يستخدمها في تدعيم وتأمين نظامه .

ورأى جمال عبد الناصر في ذلك شبهة أن أمريكا تظن أن ضباط الثورة في مصر من نوع جنرالات الانقلابات العسكرية في أمريكا اللاتينية .. ففكر أولا في رفض الهدية باسم مجلس قيادة الثورة .. ثم قرر تسليم الهدية واستخدامها في اقامة شيء ظاهر للعيان . يعلم أمريكا الدرس ، وكان اختيار حسن التهامي لتسلم هذه الكمية من المال .. واشتهر أنه تشاجر مع الأمريكي في بيته في المعادي لأنه بعد عد الاموال وجد أن الثلاثين مليون دولار ناقصة خمسة عشر دولارا .

وكلف بعد ذلك بتنفيذ اقتراح بناء برج القاهرة بهذا المبلغ . وقد سمعت هذه القصة منه في المرة الوحيدة التي قابلته فيها في فيينا حيث كان أول متدوب لمصر في اللجنة الدولية للطاقة الذرية !! وكان ذلك بعد هذا الحادث بسنوات طويلة .. وكان إرساله الى فيينا نوعا من الإبعاد له في منفى مريح .

اشتهر عن حسن التهامي أن تدينه انقلب الى "دروشة" شديدة وانه أصبح يعتقد أنه رجل "مكتشف عنه الحجاب" وكان يحدث أن يكون جالسا بين أصدقائه ثم ينهض فجأة ويقول بصوت مرتفع "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته" . أما السبب فهو أن .. سيدنا الخضر ه .. قد مر امام الجالسين وألقى السلام .. ولكن لا يراه ويرد عليه السلام الا من كشف عنه الحجاب . وكنت أسمع من أهلنا كبار السن أن هذه عادة قديمة جدا في الريف المصري يشتهر بها من يعتبرهم أهل القرية من أولياء الله الصالحين المكشوف عنهم الحجاب .

وكان غريبا أن عبد الناصر بعد هذا الإبعاد الطويل والقطيعة الكاملة أعاد حسن التهامي من منفاه في فيينا الى منصب مشرف عام أو مدير عام للقصر الجمهوري بعد هزيمة ١٩٦٧ . وقيل وقتها إنه استقدمه ليستخدمه في حركة تطهير عنيفة وقاسية في كل أجهزة الرئاسة<sup>(١)</sup> .. ومات عبد الناصر وورث أنور السادات أجهزة الرئاسة وعلى رأسها حسن التهامي ، فقربه اليه بشكل ملحوظ .

المهم أن أنور السادات ضحك طويلا عندما سمع حسن التهامي يروي له ما رآه في المنام . ولكن على أية حال ربما كانت تلك أول قطرة ماء غير محسوبة وغير جادة في موج الأحداث الغامضة حتى الآن التي أدت إلى رحلة الرئيس السادات إلى القدس .

ولعل الكثيرين من أصدقاء الرئيس السادات لاحظوا بعد ذلك - دون معرفة السبب - أن السادات نفسه بدأ بالازم حسن التهامي ويقربه أكثر من المعتاد . وأنه بدأ يقول عنه للناس بشكل جدى : إنه فيه شيء لله ومكتشوف عنه الحجاب . ولم تكن نعرف أن الاتصالات المصرية - الاسرائيلية المباشرة قد بدأت في المملكة المغربية سرا .. وأن اسرائيل كانت ترسل "موشى ديان" وزير دفاعها وقائدها العسكرى الشهير ممثلا لها في هذه المباحثات السرية البالغة الدقة والخطورة ، وأن السادات لم يرسل في مقابل "موشى ديان" إلا حسن التهامي !! ومن يدري فربما كان هذا الاختيار الغريب راجعا إلى ذلك الحلم الغريب الذى لاشك أن أنور السادات كان أول من دهش لتحقيقه .

ولكن هذا الحلم لم يكن بالطبع أول الخيط .. وما زالت حقيقة الخطوات التي أدت إلى زيارة القدس وحقيقة اللحظة التي ولدت فيها هذه الفكرة في ذهن السادات بشكل جدى ، ما زالت مجهولة رغم كثرة ما نشر عن ذلك .. ورغم كثرة مقالاته وكتبه السادات نفسه عن ذلك ، وأشهر ما رواه أن الفكرة خطرت له وهو في الطائرة عائدا من بوخارست بعد لقاء مع شاوشيسكو الذى كان قد سبق له اللقاء مع مناحم بيجين .

ولعل الشخص الوحيد فى العالم الذى يمكن أن يعرف حقيقة مولد الفكرة لأول مرة بشكل جدى هو السيدة جيهان السادات ، التي ربما تستطيع إذا أرادت أن تجلى تلك النقطة التاريخية الغامضة .

وقد سمعت من مصدر هام أن أول من ألقى بالفكرة أمام الرئيس السادات هو هنرى كيسنجر . وكان كيسنجر قد ترك مناصبه الرسمية مع بدء ادارة الرئيس جيسى كارتر ، ولكن الرئيس السادات ظل على اتصال وتشاور معه طوال الوقت .

أما ما سمعته من الرئيس السادات شخصيا في ذلك اللقاء الذى أنا بصدد روايته هنا فهو أقل من ذلك : فقد قال لى السادات - وهو يستعرض الجهود الذى خيم على الموقف بعد فك الاشتباك الثانى وما عمده إليه مناحم بيجين رغبة فى تجميد الموقف عند هذا الحد أى بالبقاء على مرمى مدفع من قناة السويس ، وعجز الادارة الأمريكية عن ممارسة أى ضغط جدى - إنه كان يتحدث مرة عبر التليفون مع هنرى كيسنجر حول هذا الموقف ، وما يمكن عمله .. وأنه لا يستطيع أن يترك آثار حرب ١٩٧٣ تتصبع هباء ..

وان هنرى كيسنجر قال له : أمريكا عاجزة ياسيادة الرئيس ! . وليس لديك إلا أن تجد وسيلة لاستخدام قوة ضغط الرأى العام العالمى والأمريكى بالذات بل والإسرائيلى المستعد للسلام ، وتركيز هذا الضغط على بيجين فى مقره فى القدس ! .

هل توحى هذه العبارة بأن كيسنجر كان فعلاً هو أول من اقترح فكرة الذهاب الى القدس بشكل او بآخر ؟ ، وأن الرئيس السادات لم يشأ أن يقول لى ذلك ؟ أم أنها لا تحمل هذا المعنى ولكنها فقط فتحت طريقاً جديداً للتفكير فى ذهن السادات ؟ لا أستطيع أن أجزم بشئ ، ولكننى أضع الأسئلة أمام القارئ والباحث على السواء .

المهم ان الاتصالات السرية كانت غير مباشرة . وأن اتصالات الرئيس السادات بشخصيات دولية أخرى وسيطة ، من كارتير الى كرايسكى الى شاوشيسكو ، كانت أيضاً غير مباشرة . وأن الرئيس السادات بدأ يفكر فعلاً فى نقل الضغط بشكل مباشر على بيجين ، يوضح ذلك ما كتبه ورواه ونشر وتحقق رسمياً من أنه اقترح قبل ذلك عقد قمة رؤساء الدول الخمس الدائمة العضوية فى مجلس الأمن ( أمريكا وروسيا والصين وإنجلترا وفرنسا ) فى القدس . ولكن أمريكا لم توافق على الاقتراح وبالتالي لم يواصل العمل من أجله حتى فرجىء العالم بخطبته قى البرلمان المصرى والتسلسل السريع العجيب عبر التليفزيون الذى أدى الى اقتراحه بأن يدعو بيجين لزيارة القدس والى تقدم بيجين بالدعوة . ثم الرحلة ذاتها .

حدثت هذه المشاهد الأخيرة خلال ايام معدودة بسرعة لا أعتقد أنها عفوية ، ومن السذاجة تصديق أن تليفزيون من المذبة الأمريكية « برابارا والمقرز » ، وآخر من المذيع الأمريكى « والتر كرونكايت » حققا الزيارة ، وأرجح أن ترتيبات كانت وراءها وتفاصيل أسبق وأكثر جدية . كان يوماً لا يمكن أن انساه ...

كان يوم أحد فى شتاء ديسمبر البارد سنة ١٩٧٧ ، وكان مكتب الرئيس السادات بعد أن اتصلت به قد حدد لى موعداً فى الساعة الحادية عشرة صباحاً فى استراحة الهرم ( التى هدمت بعد ذلك بعد أن تولى الرئيس حسنى مبارك رئاسة الجمهورية ) . ولم يكن الوصول اليها فى ذلك اليوم سهلاً ؛ فقد كانت تجرى ما أطلق عليها « مباحثات فندق مينا هاوس » لأول مرة بين وفود أمريكية ومصرية وإسرائيلية .. ووجوار الفندق يقف الى جانب مئات الصحفيين المصريين والعالميين مئات من الصحفيين الاسرائيليين الذين جاءوا الى مصر لأول مرة أيضاً .

كان طريق الهرم مقفلاً قبل الوصول الى الفندق والى منطقة الاهرامات كلها ، والحراسة مشددة بشكل هائل . وكان هناك من ينتظرنى من رجال الأمن ليمر بى عبر المتاريس الى استراحة الرئيس .



وأتذكر بوضوح أنه كان يوم أحد لأن أول وفد برئاسة مناحم بيجين كان  
سيأتي الى مصر للمفاوضة بعد يومين اثنين ، أى يوم الثلاثاء التالى .  
وصلت الى الاستراحة فى الموعد بالضبط ، وفوجئت بأن الرئيس ليس  
وحده كما - قيل لى - ولا مع سكرتاريته المعتادة ، ولكن هناك حوالى مائة  
من الصحفيين الاجانب أكثرهم من حملة الكاميرات .

وقابلنى الرئيس فى ركن من الشرفة المشمسة بحفاوة تنضح بأنه فى  
حالة من السعادة لم أراه فى مثلها قط . ثم علمت منه سر الزحام يعد أن  
يُست لأول وهلة من أن أنفرد به ولو للحظة .

كانت مجلة تايم قد قررت اختياره "رجل عام ١٩٧٧" . ومجلة تايم من  
تقاليدها اختيار رجل العام وتعريفها له ، الرجل الذى ترك أكبر أثر فى حياة  
العالم فى تلك السنة إن خيرا وإن شرا « ولأن رجل العام لابد أن تظهر  
صورته على غلاف مجلة تايم التى تصدر فى أول السنة الجديدة ، مع  
مجموعة من الصور الجديدة الخاصة بها لرجل العام ، فقد أرسلت عددا من  
أكبر مصوريها لالتقاط مجموعة صور للرئيس السادات . وطلبت المجلة أن  
تكون الصور فى منطقة « أبو الهول والاهرامات » رموز مصر العريقة ..  
لتجمع بين الماضى والحاضر .

وعندما سألت الرئيس السادات بعد أن شرح لى ذلك ودعائى إلى  
مصاحبتهم فى رحلة التصوير : وهل يرسلون مائة مصور ١٩٠٠ ؟ رد على  
قائلا : لقد وصل مصورونهم وعلم بذلك باقى الصحفيين والمصورين  
الموجودين لمتابعة مباحثات ميتا هاوس وطلبوا الحضور أيضا فقلت  
ليحضروا جميعا ، وأن كانت الأولوية فى التصوير ستكون لمجلة تايم .  
واعتذرت للرئيس السادات عن عدم مصاحبتهم فى رحلة التصوير ،  
لأنهم كانوا سيسيروا صعودا وهبوطا فى مناطق كثيرة حول « أبو الهول  
والاهرامات » وقلت له اننى سأنتظر فى الشرفة مع سكرتيره ومدير مكتبه  
الدائم الوفاء له .. فوزى عبد الحافظ .

ونزل الرئيس السادات سيرا على الاقدام ووراءه وحوله عشرات  
المصورين من أنحاء العالم وبقيت جالسا مع فوزى عبد الحافظ أمام مائدة  
صغيرة عليها مجموعة من الأوراق أحضرها معه كالعادة لاقتناص فرصة  
لعرضها على الرئيس .

وكان فوزى عبد الحافظ يطلب رأى من حين لآخر فى ورقة مما أمامه لا  
أذكر منها الآن الا موضوعا واحدا .. فقد أعطانى ورقة أنيقة مطبوعا فى  
أعلىها اسم البعثة المصرية الدائمة فى الأمم المتحدة . أما الخطاب نفسه  
فهو شخصى .. مكتوب بخط اليد ويحمل توقيع المرحوم الدكتور رشاد  
رشدى .

كان الدكتور رشاد رشدى يقول للرئيس فى خطابه أنه مازال فى نيويورك

يشرف على اعداد وترجمة وطبع ما أصبح بعد ذلك كتاب السادات بعنوان "البحث عن الذات" ويذكر الدكتور رشاد رشدي للرئيس انه لم يتفق معه على اهداء يتصدر الكتاب كالعادة في مثل هذه الكتب في أوروبا وأمريكا .. وأنه يرفق مع خطابه كشفا من الاهداءات التي يقترحها ليختار الرئيس منها ما يشاء .

واعطاني فوزي عبد الحافظ الورقة المرفقة وقال لي لماذا لا تضع علامة امام أربعة أو خمسة إهداءات يختار منها للرئيس بدلا من أن يقرأ أكثر من عشرين إهداء ؟

وأذكر ان الاهداءات كانت مقسمة الى مجموعات ، كل مجموعة اقتراحات تحت موضوع واحد : اقتراحات باهداءات تتجه الى مصر من نوع : الى مصرنا العزيزة .. الى بلد حضارة ٧ آلاف سنة .. الى القرية التي ولدت فيها ميت أبو الكوم .. الخ

ومجموعة تحت موضوع الاهداءات ذات الطابع الشخصي .. وكلها موجهة الى السيدة جيهان من نوع : الى جيهان .. الى زوجتي وأولادي .. او الى شريكة حياتي وكفاحي .. الخ . ومجموعة ثالثة موضوعها عالمي النزعة يخاطب السلام العالمي أو الأخوة بين الشعوب الى آخره .. ولست أسجل هنا كل المجموعات ولا كل الاهداءات ولا الاهداءات حرفيا ، ولكن أشير فقط الى موضوعاتها بالتقريب وأذكر أنني وضعت علامة امام إهداء من كل مجموعة .

وعاد الرئيس من رحلة التصوير ، وانصرف المصورون . وقال الرئيس ان أمامه مقابلتين قصيرتين ثم يفرغ لي بقية اليوم : كان اللقاء الأول مع الصحفي والكاتب الايطالي المشهور « ديتو فريسكو بالدئ » وكنت اعرفه من قبل .. والثاني كان رساما كاريكاتيريا أمريكيا عالميا . كنت شديد الإعجاب برسومه الكاريكاتيرية في شتى الموضوعات الدولية رغم ظهور نزعة الصهيونية واسمه "لورلي" .

انفض المولد .. وخلا السادات لي تماما في ركن ظليل من شرفة الاستراحة .. لأن الشمس رغم شتاء ديسمبر كانت شاسية .

لم أكن قد رأيت السادات منذ شهور ، وكنت أشعر أن ثمة حواجز قامت بيننا ، وكنت قد رتبت في ذهني أن أكسر هذه الحواجز حتى يتطلق في الكلام على سجيته ، بأن أفهمه أنني لست أتيا لمخاصمته من حيث المبدأ على زيارة لا أعرف مقدماتها ولا نتائجها ولا أي شيء عنها . وكان الرئيس السادات منذ أن ذهب الى القدس يكرر في كل احاديثه وخطاباته أنه تجع في "كسر الحاجز النفسي" بين العرب وبين إسرائيل .. أي بين الطرق القديمة والطرق الجديدة لحل المشكلة .

وكان أول ما افتتحت به الحديث مع الرئيس السادات ان قلت له ضاحكا : اسمع لي يا ريس أن أقول انني حاولت كسر هذا الحاجز قبلك بأكثر من عشر سنوات ! ، وأنتك يومها وبختنى على ذلك توبيخا شديدا !.. ونظر إلى الرئيس بدهشة برهة قصيرة ثم انفجر ضاحكا ! .  
والقصة انني كنت قد أصدرت سنة ١٩٦٥ كتابا اشتهر في وقتها واثار نقاشا حادا في العالم العربي وطبع عدة طبعات متلاحقة بعنوان : "اسرائيليات" كان الكتاب ايامها جديدا على السبق ! فلم يكن العرب يناقشون ابدا اسرائيل من الداخل ، وجاء هذا الكتاب ليشرح الأحزاب المختلفة في اسرائيل والتيارات السياسية المتعددة واصولها وجذورها الى آخره ...

ولكن الجزء الأهم في الكتاب كان هو الخلاصة التي قلت فيها ما معناه : ان الحل لن يكون عسكريا فقط كما يتصور الرأي السائد ، وأنه لن تقوم يوما معركة عسكرية واحدة يهزم فيها العرب والى الأبد ، ويقذف بهم الى الصحراء ، أو تنهزم اسرائيل وتندثر نهائيا ، فتجن العرب لا تحارب اسرائيل الموجودة على الخريطة . ولكننا نحارب أمريكا وأوروبا والحضارة الغربية التي ليست اسرائيل سوى خنجرها المغروس في لحم المنطقة العربية ، وبالتالي فهناك "فجوة حضارية" بيننا وبين الخصم .. وسوف تمر فترات قتال وفترات سكوت لزمان طويل ، أطول مما نتصور ، قبل حسم الصراع ، يسبقها تقدم حضارى لا بد منه في العالم العربي ، حتى يكون على مستوى أية مواجهة هي في النهاية مواجهة حضارية .. وأنه الى ذلك الوقت ، ليس المهم هو غزو اسرائيل عسكريا ، ولكن اقامة نوع من "الوضع المتجمد" نحاول خلاله اقامة الحد الأدنى من التوازن الحضارى والاستراتيجى المشار اليه .

هذا الكلام يبدو الآن عاديا ، يصرف النظر عن وجود من يؤيده أو من يخالفه ، ولكنه حتى ساعة ظهور الكتاب سنة ١٩٦٥ كان يبدو غريب الوقع جداً على الأذان العربية ، فالفعل العربى العام كان معلقا بصيغة واحدة ، هي حرب واحدة تنهزم بعدها اسرائيل ، واعتبر البعض أن هذا الكلام ينطوى على دعوة للمهادنة .. ولولفترة من الوقت ، ولم يعجب البعض القول بأن الصراع ليس عسكريا فحسب وليس صراع جيوش وأسلحة ولكنه صراع عسكري سياسى اقتصادى تعليمى وتنموى الى آخره . وقرعت الأذان لأول مرة عبارات "التحدى الحضارى" و"الفجوة الحضارية" ودخل لها البعض كأنهم يكتشفون حقيقة جديدة رغم أنها محيطة بهم من كل جانب ، ورفضوا البعض على أنها عملية "تيتيس" .

وكان ممن ناقشونى مناقشة عنيفة رافضين هذا المنطق ومستنكرين

له ، أنور السادات رئيس مجلس الشعب فى ذلك الوقت . وعن هنا كانت كلماتى التى افتتحت بها الحديث مع الرئيس السادات ، وكانت قهقهته الضاحكة عندما تذكر القصة . وقال لى : يا أحمد ان الزمن تغير والحفاهيم تغيرت .

وشعرت بأن البداية حققت ما قصدت إليه من إزالة ما قد يكون قد قام من "حاجز نفسى" بينى وبينه .. وكان يومها فى غاية من الانشراح والسرور ، يتحدث ويتحرك ويشير وكأنه محمول على سحابة وردية فى السماء .

وانطلق يحدثنى عن براعة ضربته السياسية ، وذهول أعتى الزعماء العالميين وأن الذين شاهدوه على تليفزيونات العالم يهبط فى القدس أكثر ممن شاهدوا أول رجل ينزل على القمر ، وأن الصحف العالمية نشرت إحصاءات بهذا المعنى .. وكان ذلك صحيحا .. ( علق عازرا وايزمان بعد ذلك فى حديث صبحى حين تازمت المفاوضات قائلا : هذا صحيح ولكن المشكلة الآن هى إعادة أنور السادات من القمر الى الأرض ) .. ودخلنا تدريجيا فى الجد ...

إن ما دار بيننا فى ذلك اليوم محفور فى ذهنى كالنقش على الحجر ، ولكننى لا أستطيع أن أسجله هنا بالترتيب نفسه الذى جرى به الحوار ، فالترتيب مختلف ، ولكن لم أسجل هنا الا ما أنا متأكد تماما وبوضوح من انه جرى بيننا .

روى لى الرئيس أكثر ما عرف بعد ذلك ونشر ، عن مقدمات رحلته الى القدس وتطوير الفكرة ومولدها . لا أذكر انه قال لى فى هذا الموضوع شيئا جديدا مما لم ينشر بعد ذلك ، اللهم الا تلك الفقرة المثيرة للتساؤل عن حديث هنرى كيسنجر معه ، والتى أشرت اليها منذ قليل .

وعندما وصل الحديث إلى يوم رحلته إلى القدس ، شن حملة عنيفة غاضبة على الذين بادروا إلى مهاجمته دون أن يعرفوا أى شىء ، وقلت له : اسمح لى أن أدافع عن كل الغاضبين الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم !.. لقد كانت مفاجأة وصدمة هائلة فى حد ذاتها لقد كنت فى بيتى فى الكويت .. وكان الناس يتصلون ببعضهم البعض ليتجمعوا معا ويشاهدوا معا . فى هذا البيت أو ذاك . مشهد الزيارة على شاشة التليفزيون ، وطلبت إلى زوجتى ألا تقبل الحضور الا من عدد قليل من المصريين والمصريات فقط حتى تكون على حريتنا .. معنى ذلك أولا يا ريس أن كل مصرى كان يشعر أن المسألة أكبر وأقسى من أن يراها بمفرده فى بيته . وفعلًا تجمع لدينا عدد من الأصدقاء الأقربين وزوجاتهم .. وجلسنا وشاهدنا مذهولين المشهد الخارق لكل ما هو مألوف ، وأذكر بعد انتهاء نقل مشاهد الزيارة اننى تلقت حولى فلم أجد زوجة واحدة من الثلاثى كن معنا ، ثم اكتشفت أن كل واحدة

انطلقت إلى غرفة أو إلى حمام وأغلقت الباب على نفسها وأخذت تجهش بالبكاء بكاء غزيراً .. لم يكن هذا يا ريس تعليقاً سياسياً .. أنه رد فعل نفسي طبيعي لشعوب عربية تربت على معان أخرى تماماً .. ومن العدل ألا تأخذ كل شخص برد فعله الأول .. هذا رد فعل وطني عاطفي طبيعي .. والشاذ هو غير ذلك .

وهذه السادات رأسه موافقا ، وغشيت وجهه سحابة داكنة وقال لي : أتظن أن الأمر كان مختلفا بالنسبة لي ؟ إنك تقول إنكم عندما رايتموني واقفا على سلم الطائرة وقعت قلوبكم في أقدامكم . أنا كنت في حالة من شبه التيبوبة والدوار .. ونزلت درجات السلم وكأنتي لا أشعر بالدينيا من حولي ، ولم أسترد أعصابي وانتياهي إلا عندما وجدت نفسي أصفاح الذين كانوا في استقبالتي .

وسكت قليلا ثم استطرد قائلاً : اننى أفهم هذا ومستعد لأن أقبله من الكثيرين جدا ، ولكن ما رأيك في حافظ الأسد مثلاً ؟ .. حافظ الأسد أولا ضئيم علينا شهورا طويلة بعد حرب ١٩٧٢ عندما أخذ يساوم وكأنه يقال يبيع أو يشتري قطعة جبن . ظل شهورا يساوم على متر من هنا وشبر من هناك ، غير فاهم أن الأهم من المتر والشبر هو سرعة التقدم في المفاوضات حول الموضوع الأصلي والحديد لا يزال ساخنا بعد حرب ١٩٧٢ .

حافظ الأسد هذا خذلنا بعد يومين من بدء حرب ١٩٧٣ . لم ينفذ الخطة المشتركة المتفق عليها ، واجتاح الجولان كله في يومين ثم طلب وقف إطلاق النار ، وجيشنا عازل في معصمة عبور القتال .. كان يظن أنه يمكنه أن يخرج باسترداد أرضه كلها ولنذهب نحن إلى الشيطان .. ولكن الاسرائيليين بعد أن نجحوا في تثبيت جبهتهم في سيناء استداروا إليه واستولوا على الجولان كلها واستولوا على أكثر ما كان في أيديهم قبل الحرب .

فقلت له : ولكن سيادتك نقيت ذلك . وقلت علنا إن الروس كذبوا عليك عندما أبلغوك بطلب حافظ الأسد منهم بالتدخل لوقف إطلاق النار . ورد على قائلاً : أنا فعلا "لزقتها" في بريجنيف حتى احتفظ بتحالف حافظ الأسد معنا ، ولكنه فعلا طلب ذلك .

واستطرد السادات قائلاً : ليس هذا هو المهم الآن .. ولكنني ذهبت كما تعرف إلى حافظ الأسد في دمشق وقلت له انتى ذاهب إلى القدس .. وشرحت له ما في ذهني وكل حساباتي ، وقد اختلفنا فعلاً .. ولم يوافقني على ذلك . ولكنني قلت له في النهاية طيب يا حافظ .. أنا ذاهب إلى القدس ، وتستطيع أن تهاجم ذلك .. ولكنني أطلب إليك ألا تذهب بعيدا في الهجوم علينا ، وبلاش حكايات الخيانة والعمالة والكلام ده .. لأننا

سنريدك .. بعد شهر .. لكي نسلمك الأرض .  
وسألت الرئيس ببلاهة حقيقية : أى أرض ياريس سنسلمها لسورية ؟  
ورد عليّ : الجولان طبعاً !! أم أنك تصدق الدعايات التي تقول أنني  
سأعقد صلحاً منفرداً ؟ . ومع ذلك فقد ذهب حافظ الأسد يصدر الكلمات  
المليئة بتهم الخيانة والعمالة وما إلى ذلك .  
كان هذا الكلام بداية مرحلة من الحديث من أعجب ما يكون . لم  
يفارقني خلالها الذهول ، ومازلت أزداد تعجباً كلما تذكرتها ..  
فقد بدأ الرئيس السادات يتحدث عن رحلته إلى القدس وأحاديثه مع  
زعهاء إسرائيل والنتائج المرتقبة .. معتقداً أن إسرائيل سوف تعيد لنا  
سيناء وغزة والضفة الغربية والجولان ! أى كل ما احتلته سنة ١٩٦٧ . ولم  
يكن الرئيس السادات يقول ذلك في شكل "تصريحات" ولم يكن لسابق  
علاقتنا في حاجة إلى أن يكذب عليّ .. ولذلك ما زلت أعتقد أنه كان يصدق  
في كل ما كان يقوله لي .. وكان كلامه هذا يأتي طبيعياً في سياق الكلام ،  
جاءت حكاية الجولان مثلاً في هذا السياق الطبيعي وكأنه أمر مفروغ منه ..  
بالطريقة نفسها أيضاً جاء الحديث عن قطاع غزة .. فقد كان يروي لي لقاءه  
مع وفد جاءه من قطاع غزة وما قاله لهم ! وينفس البلاهة والذهول سألته ..  
وغزة كمان ياريس ؟ .

أمال إليه ؟

لقد سقطت غزة من الأنباء والأحاديث من مدة طويلة .  
كلّا ..! أنني سوف أرفع المعاناة فوراً عن أهالي غزة وأهالي الضفة  
الغربية .:

وأدريت في رأسي بسرعة مناقشة وبحثاً حول استعماله تعبير "رفع  
المعاناة" ماذا تعني ؟ إنه لم يقل تحريرها ، ولكنه أيضاً يستعمل عبارة  
"رفع المعاناة" كثيراً ومنذ سنوات حتى في القضايا الداخلية . ثم إن  
"رفع المعاناة" معناه على أي حال خروج قوات الاحتلال مهما اقترن ذلك  
بشروط وقيود دولية .

المهم أن الرئيس السادات أعطاني انطباعاً لا شبهة فيه عن تقاؤله  
المطلق ، بأن إسرائيل في مقابل السلام مع مصر سوف تعطيه كل  
الأراضي المحتلة .

وحين أثرت له بعض الشكوك المنتشرة في الدوائر العربية ، ضم قبضة  
يده اليمنى ورفعها في الفضاء وقال لي : حين أعلن على العالم ما في يدي  
هذه سوف أضرب هؤلاء الذين يهاجمونني جميعاً بالجزمة القديمة ، ولن  
يقدرُوا عليّ فتح أقوامهم !! .

وضحكت وقلت مخففاً غضبه : لا داعي لذلك يا رئيس .. المهم إذا تحقق

هذا أنك ستكون قد انتصرت ومصالحنا مع الدول العربية ليست مصالح عابرة .

ورد على قائلا : تقصد المساعدات العالية ؟ عندما يعرف الجميع ما حصلت عليه ، لن أطلب إلى أحدهم مساعدات بعد الآن ، إنني سأفرض عليهم " الجزية " وسيدفعونها شاكرين .

وبعد وقت طويل في أخذ ورد حول هذه الأمور استجمعت رأيي ونفسي وقررت كعادتي أن أقول له رأيي الصريح في الموقف .

قلت له : يا ريس سيادتك تعرف أنني مثل عجائز القرح ، كما قلت لي مرة عندما اختلفنا حول الأموال التي ستهدل على مصر سنة ١٩٧٤ .. فاسمح لي أن أقول لك " السيناريو المتشائم " للأحداث ، وهو مع الأسف السيناريو الذي أعتقد فيه .

واستطردت قائلا : لعلك تذكر أنه بعد حرب ١٩٧٣ مباشرة ، كان هناك من قالوا إن الحرب كانت تمثيلية وأن الفصل الأول هو المعركة التي جرت وسيكون الفصل الثاني هو الصلح المتفق عليه مقدما مع أمريكا مؤلفة المسرحية .

- نعم أذكر ..

المهم أنه ظهر العدو والصديق أن هذا غير صحيح .. وأنها كانت حربا لا تعرف بها أمريكا ولا إسرائيل .. وكذا نطن جميعا أن فك الاشتباك مراحل سريعة متلاحقة قبل الجلاء الكامل ! .. ولكنك جريت كما رويت لي مرارا . قصص تعنت إسرائيل ومراوغتها لمدة أربع سنوات كاملة حتى الآن . وهذا طبعي ، فقد كان مستحيلا أن تتحرك إسرائيل تحت الضغط المباشر للحرب ، فتضطرب محليا وعالميا إلى الانسحاب الذي نريده ، إسرائيل المعتمدة على أمريكا لا تفعل هذا أبدا .. إن الشيء نفسه سيحدث مع زياره القدس . بصراحة .. أنا لا أعتقد أن الوفد الإسرائيلي القادم لمباحثاتك في الاسماعيلية بعد غد الثلاثاء سوف يعطيك أي شيء على الإطلاق ! .. إن السيناريو الذي أراه هو أن إسرائيل ستتملص من أي بحث جاد في السلام ، وهي مازالت تحت ضغط زيارتك المدوية في القدس وأثارها العالمية التي لا شك فيها . إسرائيل سوف تراوغ لا أقل من أربع سنوات أخرى حتى يتبدد الأثر العنيف الطاغى لزيارة القدس ويخف الضغط عليها كما فعلت بعد ١٩٧٣ . إنني أخشى بكل صراحة أن تمر تلك السنوات وتصبح زيارتك للقدس قصة تاريخية فريدة وغريبة ومثيرة ، يتباحث فيها الأكاديميون ، قبل أن تعطينا إسرائيل شيئا واحداً من الأرض .

- قلت هذه المعاني بتفصيل وإسهاب ، وتوقع أن يغضب الرئيس وتنتهي المقابلة الطويلة بشكل أو بآخر . ولكنني فوجئت برد فعله وكأنه

سمع نكتة جديدة وقال لى بكل ود ومرح وارتياح : يا أحمد أنت أصلك بعدت عنا ، مش عايز تقعد معنا . يا أحمد الدنيا اتغيرت ، اتغيرت تماما . واسمة طرد قاتلا : أيام فك الاشتباك كان عندى جترالات فى جيشى يفكرون مثل حافظ الأسد . ويضيعون الوقت فى الجدل حول هذا المتر أو هذه " التبة " وكنت أطالبهم بعدم التعطيل لهذه الأمور المتأففة . لم يفهموا أننى لم أكن أفك الاشتباك مع إسرائيل ولكنى كنت أفك الاشتباك مع أمريكا بل إننى عندما حاربت لم أكن أحارب الجيش الإسرائيلي بل كنت أحارب لأهم قناعات المؤسسة الأمريكية كلها : الرئاسة والكونجرس والـ « سى . آى . آيه » والبنجاجون . من يريد أن يفك الاشتباك مع أمريكا لابد أن يفك الاشتباك مع كل هذه المؤسسات ، ومع رجال الأعمال أيضا .. بل ومع اليهود الأمريكيين .. هذه عملية ضخمة وكبرى ومعقدة ولكن لا أحد فى منطقتنا يفهمها .

كان كلام السادات هنا بالغ الأهمية ويدل على قرار بتغيير استراتيجى شامل . وفى هذا السياق روى لى السادات قصة الجسر الجوى الأمريكى الذى كان يصل الى سيناء نفسها خلف خطوط القوات الإسرائيلية مباشرة خلال حرب ١٩٧٣ ليؤكد أن المواجهة مع أمريكا أساسا .

وفى هذا السياق أيضا روى لى الرئيس السادات قصة الثغرة ، أو بمعنى أصح قصة مابعد الثغرة .. قال لى : لقد جاعنى هنرى كيسنجر وقال لى بصراحة مباشرة ياسيادة الرئيس نحن نعرف من التصوير الجوى أن القوات التى حشدتها حول الاسرائيليين غرب القناة كافية لدفعهم جميعا حيث هم .. أنت قادر على ذلك عسكريا ، ولكنى أبلغك أن أمريكا لن تقبل ذلك . البنجاجون يرى أنه لا يمكن السماح للسلاح السوفييتى بالانتصار على إسرائيل مرتين ، مرة فى عبور القناة ، ومرة ثانية فى القضاء على الثغرة .. لو أقدمت على الهجوم على الثغرة فسوف تحاربك أمريكا مباشرة . The Pentagon Will Give You a Good beat . وأؤكد لك أنك لست المقصود من ذلك ، ولكنه الاتحاد السوفييتى . قال السادات مستطردا : لقد تلقيت إذن انذاراً أمريكياً عسكرياً صريحا ، ولكن كيسنجر أعقبه على الفور بحديث آخر اذ قال لى : ثم أنك ماذا تريد فى النهاية ؟ ألا تريد أن تنسحب إسرائيل من غرب القناة ، وأن تبقى قواتك حيث هى شرق القناة كما كانت يوم وقف إطلاق النار .. وفك الحصار عن الجيش الثالث ؟ سنحقق لك كل ذلك بالمفاوضات ، وهذا تعهد أمريكى رسمى ، وقد مررت بموسكو قبل حضورى ، وهم موافقون . وختم السادات هذه الواقعة بقوله : هذا ماحدث وهذا ما يلومنى عليه دعاة الحرب بالميكروفونات والأحاديث .



ولما كان الشيء بالشيء يذكر ، فقد حدث قبل ذلك بسنوات أن استدعاني الرئيس السادات لأكتب له خطابا لا أذكر مناسبة الآن . وكان قد سبق له أنلقى بضعة خطابات مرتجلة هاجم فيها الاتحاد السوفييتي بطريقة توحى بالتحرش . وكانت الحجة عدم تعويض مصر عن السلاح الذي فقدته في حرب أكتوبر بالأنواع والكميات المطلوبة . وعندما أخذنا نتناقش في عناصر الخطاب المطلوب - لعله كان لافتتاح إحدى الدورات البرلمانية - قلت له خلال الحوار أنني أعتقد أن حملته على الاتحاد السوفييتي يجب أن تتوقف بعض الوقت ، بعد ماسبق أن ألقاه من خطابات ...

وقاطعتني قائلا : انت حتملي زي كيسنجر ؟  
وسألت دهشا : ما وجه الشبه بيني وبين كيسنجر ؟  
قال : كل مايسمع أنني حألقى خطاب ، بيعت يقوللى بلاش تهاجم الاتحاد السوفييتي !

وضحكت وقلت له : الحمد لله أنني أشبه كيسنجر في شيء ما !  
كان ذلك في وقت مازالت أمريكا ترى فيه أن ثمة حاجة إلى درجة من تعاون الاتحاد السوفييتي للوصول إلى حل لمشكلة السلام في المنطقة وذلك قبل أن تتدهور علاقة السادات بالروس تماما ويتحول موقف أمريكا بالتالي إلى رفض إشراك الروس في أي حل .

وقلت للرئيس أنني لا أعرف دوافع كيسنجر في هذا الطلب إلا أنه في غمرة سياسته الدولية القائمة على "الوقاق" لا يريد المبالغة في إعصاب الروس . أما رأيي فسببه أنني أرى أن خطابات السادات المتلاحقة ضد الروس تحمل لهم رسالة معينة ، هي الغضب والاحتجاج . وأنه من الطبيعي بعد ذلك أن يعطى الروس بعض الوقت حتى نعرف ردهم ، وعلى ضوء ذلك نتصرف . والا اعتبروا هجوما عليهم شيئا مقصودا لذاته وليس ضغطا من أجل السلاح ..

وقال السادات يوما : أنا باشتمهم بس ! إنما المعاهدة موجودة ، والتسهيلات البحرية موجودة وكل شيء على حاله ...

قلت له : الروس ليسوا مثل الأمريكان ! الأمريكان لا تهجم الشتيمة . أما الروس فقد يكون إلغاء التسهيلات المعطاة لهم أقل وقعا عليهم من الشتيمة والهجوم العلني !

وقال لي أن كيسنجر رجل استراتيجي لا نظير له ، لكنه دهش جدا من "حكاية الوقاق" التي يحاول كيسنجر إقامتها وما يريد من ورائها !

(١) منذ شهر نشر السيد عبد الفتاح أبو الفضل كتابا بعنوان ، كنت نائبا لمدير المخابرات ، روى فيه أن لجنة عليا في المخابرات العامة تجمعت لديها قرائن تدل على أن حسن النهامي كان يعمل لحساب المخابرات الأمريكية . وأنه كان يسجل مكالمات لشخصيات هامة في الدولة ... الخ ، وأنه بناء على ذلك تقرر إقصاؤه من مكانه في مصر .

## كارتر يستعطف

### السادات !!

كما قلت فأنني لا أروى الحديث بتسلسله الذي جرى به ، وإن كنت أحاول تسجيل أهم ما دار فيه بدقة ويأقرب ما يكون الى هذا التسلسل .

كان يتخلل حديث الرئيس السادات معى طوال هذه الساعات ثقة هائلة منه فى الرئيس الأمريكى جيمى كارتر .  
كان واضحا أنه يعتقد اعتقادا جازما ان الرئيس الأمريكى - أى رئيس أمريكى - « إذا » أراد « فعلا » أن يأمر إسرائيل بأى شىء فهو قادر على ذلك ، وأنه قادر « إذا أراد فعلا » أن يفعل الشىء نفسه مع الدول العربية البترولية فهو قادر على ذلك . وقد جادلته فى حدود هذه القدرة ، ولكنه كان يفرق بين أن « يقول » الرئيس الأمريكى لنا أو للعالم شيئا وبين أن « يريد فعلا » أن يفعل هذا الشىء . وكان يعتقد اعتقادا جازما بأن الرئيس جيمى كارتر أصبح « يريد فعلا » أن تنسحب إسرائيل من الأراضي المحتلة كلها ، وأن يحل المشكلة الفلسطينية حلا مقبولا فى تقديرى أن كارتر كان يريد فعلا ولكنه لم يكن قادرا ، وبالتالي فلا مجال للشك فى عدم قدرته على ذلك . وكان يسرف فى مدح الصفات الشخصية « للفلاح » الأمريكى جيمى كارتر .. واتجه بالحديث حول جيمى كارتر اتجاهها آخر .

كان الرئيس الأمريكى قد بدأ يضعف داخليا فى أمريكا ، وهو يواجه الانتخابات النصفية للكونجرس والحكام فى الولايات ، وهى مسألة خطيرة تقرر مدى سلطة الرئيس الأمريكى فى النصف الثانى من رئاسته .. وهنا فاجأنى الرئيس السادات متحدثا بصوت مرتفع وبثيرة فيها مزيج من الغضب والفخر سعا قائلا :

كلامك صحيح . ولكن لاتصدق أن الرئاسة الأمريكية تفقد سيطرتها على سياسة الدولة أبدا .. ان الدستور الأمريكى يجعل الرئيس الأمريكى اقوى حاكم فى العالم . ولكن ، لمعلوماتك أن أهم ورقة تقوى كارتر فى أمريكا الآن هى نجاح الحل السلمى فى الشرق الأوسط ، أفنى أنا الذى اساعده فى وضعه الداخلى الأمريكى وليس هو الذى يساعدنى هنا .

ومد الرئيس السادات يده الى جيب جاكته الداخلى ، وأخرج ورقة مطوية ، وقبل أن يفتحها قال لى : سأروى لك هذه القصة ..

ففى المراحل السابقة من الاتصالات بيننا وبين إسرائيل ، عن طريق الأمريكان ، تمكن الرئيس كارتر من تجاوز كثير من العقبات التى كانوا يقيمونها . وفى إحدى مقابلاتى معه قال لى : ان إسرائيل تكرر حجة ليس لدى أى رد عليها .. أنهم مازالوا غاضبين بشدة لانك ترفض لقاء علنيا مباشرا ورسميا بين

الجانب المصري والجانب الاسرائيلي .. انهم يكررون ان رفض مصر هذا اللقاء المباشر العلني امام العالم كله ، واملم الرأي العام المصري والعربي ، معناه ان مصر ليست جادة في التوصل إلى سلام حقيقي .. وانها تريد ان تسترد ارضها بدون هذا المقابل .. وإلا فما الذي يجعل مصر تصمم على الاتصالات السرية أو على المناقشة عن طريق طرف ثالث ؟ . وأنا ادرك الصعوبات التي تواجهك لكي تقدم على هذه الخطوة ، وحساباتك لردود فعل الرأي العام .

ولكن (مازال الكلام لجيمي كارتر على لسان الرئيس السادات) اذا تغلبنا على كل العقبات واماننت نفسي الى ان اسرائيل مستعدة لأن تستجيب لكل الطلبات التي تراها ضرورية ، فهل انت مستعد في هذه الحالة لأن تقدم على هذه الخطوة التي لامفر منها ، وأن يتم لقاء رسمي وعلني على مستوى سقراء أو وزراء أو رؤساء وزارة مثلا ، وجهها لوجه ؟ واستطرد الرئيس السادات قائلا لي : وقد قلت لجيمي كارتر وقتها : نعم .. وفي هذه الحالة انا مستعد لذلك !!

ملاحظة : ( لايجوز استبعاد هذه النقطة من مجموع الملاحظات التي أدت الى قرار الرئيس السادات بالسفر الى القدس ومواجهة إسرائيل علنيا على أعلى مستوى ) .

وهنا فتح الرئيس السادات الورقة المطوية التي كانت في يده ، وقال لي : هذا خطاب شخصي جدا لم يطلع عليه مخلوق ، بخط جيمي كارتر .. انه يقول لي فيه انه يعتقد ان الجانب الإسرائيلي وصل الى ما نريد ، وانه قد أن الاوان لأن أنفذ وعدى السابق له بأن أقترح طريقة للقاء رسمي مباشر على مستوى عال بين مصر واسرائيل ، وهو يستنجزني تحقيق هذا الوعد بسرعة . وواضح لك طبعاً أن هذا يقويه داخليا في امريكا ، ولم يعطني الرئيس السادات ، الخطاب لكي أقرأه ، ولكنه اخذ يظويه عدة طيات حتى ابقى منه سطرا واحدا في آخر الخطاب يمكن قراءته .. وقال لي : اقرأ هذه الجملة 1 .. وقرأت سطرا بخط جيمي كارتر هو آخر سطر قبل توقيع يناشد السادات ان يلبي ماقاله لي مستخدما عبارة : « I PLEED TO YOU MR. PRESIDENT »

وهي عبارة يمكن ترجمتها حرفيا ب « انني ارجوك ياسيادة الرئيس » أو « اننى أناشدك » أو « اننى استعطفك » .

وأخذ منى الرئيس السادات الخطاب وطواه وأعاده الى جيبه .. وقال لي :-

- أرايت ا الرئيس الامريكي «يناشدني ويستعطفني» .. انه يعرف مدى شعبيتي في امريكا ! ولعلك قرأت في الصحف الأمريكية اننى لو رشحت نفسي للانتخابات في امريكا لنجحت في الانتخابات !!!

متى كان رئيس أمريكا يرجو رئيس مصر أو يستعطفه كما قرأها السادات

الواقع أن هذه الواقعة أثارتني جدا .. أثارتني لأنني شعرت أن الرئيس الراحل السادات قد أصبح فعلا فوق سحابة عالية من الأحلام لا يمكن انزاله منها ، وأن الإعلامين الاسرائيلى والغربى الهائلين قد أثرا فيه بأكثر من كل تصوراتى ، ولأنسى هنا أن اروي واقعة تكشف لنا عن الطريقة التى كانوا يعرفون بها على الأوتار التى تؤثر فى السادات أن درسوا شخصيته بدقة .

بقى إحدى مراحل هذه الجلسة قلت له فى مجال الاعتراض على تفاؤله الشديد المطلق ، اننى علمت أن المفاوضات التى كانت جارية وقتها فى فندق ميناهاوس بين وفود مصر وأمريكا واسرائيل ، لم تسفر عن أى شىء . وأنهم عاجزون عن مجرد الاتفاق على جدول الأعمال . قايين هذا من هذا التفاؤل ؟ وساعتها رد على السادات قائلا : « ميناهاوس هذه تياترو للعالم ! الكلام الجيد لن يكون هناك » ..

أذكر ذلك لكى اروي الواقعة التالية : فائشاء مباحثات ميناهاوس قال « بن اليسار » رئيس الوفد الاسرائيلى ان الاسرائيليين يحكم دينهم اليهودى لا يعملون يوم السبت فهو يطلب توقف المباحثات يوم السبت .. ولم يجد الدكتور عصمت عبد المجيد وقتها بدا من أن يرد عليه قائلا : ونحن اجازتنا يوم الجمعة وبالتالي نطلب توقف المباحثات يوم الجمعة أيضا .. وكان رئيس الوفد الأمريكى هو « الفريد اثرتون » سفير أمريكا فى مصر بعد ذلك .. فضحك وقال : ونحن اجازتنا يوم الأحد ! وأصبحت هناك ثلاثة أيام بلا عمل فى هذه المباحثات التى جاء مئات الصحفيين من أنحاء العالم لتغطيتها .

وفى الجلسة التالية أبلغ الدكتور عصمت عبد المجيد ان الحكومة المصرية إزاء اجازة هذه الأيام الثلاثة مستعدة لأن تضع لكل وفد برنامجا سياحيا فى أى مكان يختارونه فى مصر . وقال اثرتون : لقد شاركت هنرى كيسنجر رحلاته المكوكية بين القدس واسوان حوالى ثلاثين مرة ، ولكننى لم أراسوان ابدا ، وحيدا لو نظمت لنا نحن أعضاء الوفد الأمريكى رحلة الى اسوان . وكان الدكتور عصمت عبد المجيد قد قال لهم ان الصحفيين الاسرائيليين طلبوا زيارة الاسكندرية ثانية اكبر مدن القطر .

وهنا قال « بن اليسار » رئيس الوفد الاسرائيلى : نحن لنا طلب آخر ! . اننا نتمنى لو نظمت لنا رحلة الى قرية ميت ابو الكوم لكى نزر البيت الصغير الذى كان مسقط رأس الرجل العظيم أنور السادات ... وروى لى الدكتور عصمت عبد المجيد انه شعر أنهم يستخفون بعقولنا . فلم يرد وقرر اهمال طلبهم وليبقوا فى ميناهاوس !»

ولكن ضابط الاتصال من رئاسة الجمهورية جاء عصر ذلك اليوم الى ميناهاموس وسمع من الاسرائيليين هذا الطلب ، وأبلغه للرئيس السادات فوراً ، فأمره بعمل كل الاستعدادات لترتيب رحلتهم إلى ميت أبو الكوم ، بكل التفاصيل من حشد الجماهير الى الفطير المشملت .

وكان للقصة جانب مضحك فقد سمع كثير من الصحفيين المصريين والأجانب ان الوفد الاسرائيلي ذاهب الى ميت أبو الكوم ولم يتصوروا السبب واستنتجوا أنهم لابد ذاهبون لمقابلة السادات نفسه هناك .. ولم يخطر لهم أبداً ما حدث .. فعدلوا عن رحلتهم إلى الاسكندرية وهرعوا جميعاً إلى ميت أبو الكوم حيث اكتشفوا انه للمقابلة ولا شيء الا الزحام والتراب والغبار ، وعادوا دون ان يفهموا شيئاً !

**لماذا وبخ كارتر سفيره ؟** أخرجت على مجرى الجلسة التي اتحدث عنها ورويت هذه الحادثة لكي ادلل بها على العدوى الذي ذهب اليه الاسرائيليون باللعب على عواطف الرئيس الراحل اتور السادات ... وأخرج عن مجرى الحديث مرة أخرى لأحاول الاجابة عن سؤال لم يطرح نفسه الا بعد ذلك بزمان .. فقد جاء في مذكرات الكثيرين من الجانب الأمريكي مثل الرئيس كارتر ووزير خارجيته قانس ومن المصريين .. الدهشة من ان الرئيس السادات كان أحياناً يتساهل أثناء مفاوضات كامب ديفيد في بعض الأمور أكثر مما كان يتساهل الرئيس الأمريكي جيمي كارتر ، مما كان يثير دهشة هذا الأخير .

وتردد هذا المعنى في كتابات عدد من المصريين الأمريكيين الذين كتبوا حول تلك المفاوضات ، كما روى لي السفير الأمريكي في مصر وقتها (هيرمان إيلنس) انه حدث أكثر من مرة ان كان يوضح بحكم عمله للرئيس كارتر ما يمكن ان يقبله السادات وما لا يمكن ان يقبله ، ثم يقلباً بأن الرئيس كارتر يستدعيه ويوبخه لأن مزعم له ان السادات لن يقبله ، قد علم كارتر من بيجين أن السادات قد قبل به فعلاً ! ولى حول هذه النقطة التي ترددت كثيراً تفسير اجتهادي لا يستند إلا الى قصة سابقة .

**رسالة ديان لعبد الناصر :** ففي حياة جمال عبد الناصر بعد الهزيمة ، تلقى رسالتين شفويتين على الأقل من موسى ديان ، وهما الرسالتان اللتان عرفت قصة كل منهما في حينها من ناقل الرسالة شخصياً : رسالة حملها المرحوم قدرى حافظ طوقان من زعماء الضعة الغربية في ذلك الوقت ووزير خارجية الأردن سابقاً ، ومؤسس كلية النجاح في نابلس ( جامعة نابلس

حاليا ) والثانية هي الشاعرة العربية الموهوبة والمعروفة فدوى حافظ طوقان .. ولأن القصتين متشابهتان حرفيا ، فأننى اكتفى برواية قصة المرحوم قدرى حافظ طوقان ..

كان المرحوم قدرى حافظ طوقان عضوا فى المجمع اللغوى المصرى بالقاهرة ، وبعد الاحتلال وهزيمة ١٩٦٧ ظل قدرى حافظ طوقان مواظبا على حضور جلسات المجمع اللغوى سنويا فى مصر . وكان الى جانب ذلك يجد فى هذا حجة وجيهة ليعلم اننا بالخروج من الاراضى المحتلة والسفر الى القاهرة .. وكان عرق هذا وذلك قد تمكن من جمع تعهدات بأراضى واموال من اعيان الضفة الغربية لانشاء جامعة كاملة فى الضفة ، نواتها كلية النجاح فى نابلس . وكان المرحوم من اكبر واعز اصداقائى ، وكان يقول لى ان كل شىء جاهز ولكنه لن يقدم على انشاء الجامعة تحت الاحتلال الاسرائيلى ، الا اذا اخذ اذننا من واحد من اثنين : اما من جمال عبدالناصر واما من قيادة منظمة التحرير الفلسطينية . وكنت شخصا أشجعه على ان يبدأ المشروع ، مادامت هذه هى رغبة اهالى الضفة ، كما انها تلبى حاجة ماسة للشباب الفلسطينيين تحت الاحتلال تمنعه من النزوح ، ولكن كان الرأى العام فى ذلك الوقت المبكر بعد الاحتلال بسنة او سنتين يتوهم ان الاحتلال سينزل سريعا ، وان اقامة جامعة فى الاراضى المحتلة فى رأى البعض خطأ ، وفى رأى البعض خيانة .. ولكنه لم يحصل على تصريح معنوى من اى من الجهتين اللتين كان يشترط رضاء احدهما . ( و طال الاحتلال و اقيمت جامعة نابلس و جامعة بيرزيت بعد وفاة الرجل بسنوات ) .

المهم انه لى يحضر الى القاهرة كان لابد له ان يحصل على اذن خاص من الحاكم العسكرى الاسرائيلى للاراضى المحتلة ، وفى آخر مرة جاء فيها الى القاهرة طلب الاذن كالمعتاد . واذا بهم يستدعونه لمقابلة الجنرال موسى ديان الحاكم العسكرى الاعلى للمناطق المحتلة بوصفه وزيرا للدفاع .

وما ان جلس .. كما روى لى .. امام موسى ديان ، حتى نادى ديان قائلا : انت طبعاً عندما تذهب الى القاهرة ستقابل جمال عبد الناصر ! ورد عليه قائلا : انه لذهب قبل ذلك ولم يقابل جمال عبد الناصر لانه الان يشغل بالتعليم فقط لا بالسياسة . ورد عليه ديان قائلا : ولكننا نريد منك ان تقابل جمال عبد الناصر ، وانت سياسى مخضرم ولك وزك ، وتعرفه من قبل ، لاننا نريد منك ان تنقل اليه رسالة هامة .

واعتذر قدرى حافظ طوقان بشدة وباصرار عن عدم نقل اى رسالة او القيام بشيئة وساملة من اى نوع كان . وفى النهاية صمم موسى ديان على ان يسمعه الرسالة التى طلب إليه ابلاغها لجمال عبدالناصر . قائلا له انه بذلك يؤدى خدمة لوطنه وانه يترك امر ايصالها او عدم ايصالها لضميره . الآن .. وهذا هو المهم .. ماذا كانت الرسالة ؟

كانت فحوى الرسالة بدقة وإيجاز قول ديان مامعناه : قل لجمال عبدالناصر اننا نؤكد له ان الروس لن ينفعوه وان الامريكان ايضا لن ينفعوه .. الروس لن يعطوه سلاحا يتفوق على السلاح الامريكى يمكنه من هزيمة اسرائيل . وامريكا لم يعد لديها قوة ضغط على اسرائيل كما يتوهم ، مهما فكر فى تنازلات يعطيها لها ( اى لأمريكا ) . وان اسرائيل تعرف تماما ان القوتين العظميين لا مصلحة لاحدهما فى إيجاد حل سلمى ينهى الصراع فى الشرق الاوسط . وان امريكا وروسيا على السواء ، تحاول كل منهما استخدام اسرائيل ومصر لتحقيق مصالحهما فى اطار صراعهما على المستوى العالمى وفى أكثر المناطق حساسية . وان متاعب اسرائيل وشكوكها فى اهداف امريكا لا تقل عن متاعب جمال عبد الناصر وشكوكه فى اهداف روسيا .

إذن ؟ بعد هذه المقدمة كان جوهر الرسالة هو : قل لجمال عبد الناصر ان يجربنا مرة واحدة ! نحن نعتز ان لديه - ماضيا وحاضرا - الف سبب للشك فىنا كاسرائيليين .. ولكننا تعلمنا الكثير كما تعلم هو الكثير .. اننا ندعوه بكل قوة وصدق ان يجرب التفاهم مباشرة معنا دون اى وسيط ، سرا او علنا ! على مستوى عسكريين او مدنيين ! .. على مستوى وزراء او سفراء ! بل على مستوى اصغر موظفين فى ابعاد سفارتين لنا فى العالم ! .. المهم ان يحاول ان يجربنا مباشرة ويجدية .. امريكا وروسيا معا لن تعطياه أى شىء .. لن نرغمنا على أى شىء .. نحن وحدنا اللذين يمكن ان نعطيه ما يشاء ! ولاسبيل لذلك الا الاتصال المباشر بدون اى طرف ثالث . كانت هذه فحوى الرسالة التى اعلم يقينا انها ارسلت هاتين المرتتين الى جمال عبدالناصر ، ومعنى ذلك انه لاشك تلقى رسائل واشارات اخرى بهذا المعنى بوسائل شتى لا نعرف عنها شيئا .

من هاتين الواقعتين كان لايزال لدى استنتاج هام .. هو ان اسرائيل لابد ان تكون قد وصلت الرسالة نفسها الى ائور السادات مرة ومرة .. وفى تقديري بناء على هذا الاستنتاج ان الرئيس السادات قد اقتنع بهذا القول .. لعل هذا يدور فى اول مبادرة له بالانسحاب من شاطئ القناة مسافة معينة تسمح باعادة فتحها ومرور السفن فيها . فهو فى الواقع كان اقتراحا علنيا سبق ان طرحه موشى ديان ، ولكن اسرائيل رفضت وقتها متوقعة ان تكون وفاة جمال عبد الناصر بداية الانهيار .. وزاد من اقتناع السادات بفحوى الرسالة الاسرائيلية ما رآه رغم حرب ١٩٧٢ وفكى الاشتباك الاول والثانى .. من فشل امريكا او عدم رغبته فى القيام بالضغط الكافى لكى تعطيه اسرائيل ماتصوّر انه سوف يحصل عليه .. وفى تقديري ان هذا الاقتناع الجديد لعب دورا اساسيا فى قبول السادات

بالاتصال بإسرائيل سرا عن طريق مفاوضات موشى ديان وحسن التهامي .. ثم في قبوله اللقاء علنا مع إسرائيل عندما طلب إليه كارتير ذلك ، ثم في تحول ذلك الى اللقاء الدرامي الكبير بذهابه الى القدس ، بقصد ان يقتل اللقاء كما قال له كيسنجر ، بتكبر درجة من الضغط العالمى والأمريكى والإسرائيلى الداخلى على مناحم بيجين ، ولست أشك فى ان السادات قد مات وهو يكره مناحم بيجين أكثر من أى إنسان على الأرض ، لانه خدعه وأهانته فى كل مناسبة بلا تردد . ولكنه فى مرحلة التمهيد للمباحثات وفى سلوكه التفاوضى داخل كامب ديفيد ، كان حريصا على ان يكسب ثقة إسرائيل نفسها ويشكل مباشرة ، مادام لم يوصله كسب أمريكا الى زحزحة إسرائيل شيئا واحدا . وأنه لذلك يعطى بيجين مباشرة ما لا يعطيه لصديقه الحميم جيمى كارتير .

واقول فى ختام هذا الاستنتاج والاستطراد : والله اعلم !  
واعود الى سياق ذلك اللقاء مع الرئيس السادات ، فى استراحة الهرم فى ديسمبر ١٩٧٧ .

فى هذا اللقاء الذى نحن بصدده مع السادات باستراحة الهرم خلال شهر ديسمبر ( كانون الأول ) عام ١٩٧٧ ، طال الأخذ والرد بيننا من الحادية عشرة صباحا حتى المغرب .. وكنت استأذن أحيانا فى الانصراف فيستبقينى الرئيس السادات طالبا ان أبقى معه حتى تأتى الطائرة الهايكوتر التى ستحملة رأسا الى الاسماعيلية .

كانت احاديثنا كلها جادة وفى صميم الموضوع مما جاء ذكره فى الأسبوع الماضى . ولكننى سألته سؤالا غير سياسى عن انطباعاته الشخصية عن إسرائيل كما اتيج له ان يراها ، وعن الشخصيات التى قابلها ، ووجدت ان هذا السؤال فتح الباب لحديث محبب لديه . فقد شرح لى فى اسهاب الاستقبال الشعبى الرائع والحماس الذى قابله به الشعب الإسرائيلى ، الذى اهتزت مشاعره من هول المفاجأة والفرحة .. فقد جاءهم أخيرا قائد أكبر دولة عربية بعد عداء طويل مرير ، وتفتحت امامهم آمال السلام الواسعة . اذكر اننى قلت له ضاحكا : ياريس فى هذه النقطة انت تصرف كفلاح مصرى صميم ، اذا زار خصما له بيته وبينه دم اعتبر اهل القتل هذا نهاية للعداوة . ولكننى اشك كثيرا ان تكون لهم الطباع نفسها التى تسميها أحيانا « عربية » وأحيانا « ريفية » ، ولكننى أعتقد ان هذا المعنى المصرى العريق كان فى مكان ما من لا شعوره .

وقال لى الرئيس السادات : ان بيجين رجل صعب وجاف المشاعر ، وان ديان هو اذكى الجميع واصرحهم ، وان أقوى شخصية قابلها كانت جولدا مائير ، وروى لى اجتماعه بحزب العمل وكيف كانت جولدا مائير تراس الاجتماع ويقف امامها أكبر رجال وجنرالات الحزب من اسحق رابين الى ابا ايان وغيرهما كما يفت ، التلاميذ !



وقال لى انه عاد واقرب شخص الى قلبه هو عازار وايزمان وقال لى : ان وايزمان رغم انه لم يكن فى منصب رسمى ، وأن ساقه كانت فى الجبس ويسير بصعوبة متوكئا على عصا ، فإنه جاء فوراً الى مقر اقامته فى فندق الملك داود وحديثه عن تفاؤله الشديد بالسلام المقبل .. وحديثه مطولا عن ذكرياته عندما عاش فى القاهرة والاسكندرية سنوات منخرطاً فى صفوف الجيش الانجليزى خلال الحرب العالمية الثانية .. وأعترف له بأنه كان من « المسقور » ولكن اكبر واعز ابتائه الذى كان من المع طيارى سلاح الجو الاسرائيلى ، اصيب فى الحرب برصاصة اخترقت رأسه ، دخلتها من ناحية وخرجت من ناحية اخرى ، قلم يعد له مخ بالمعنى الحقيقى ، وصار بالتعبير الطبى « نباتا » Vegetable اى ينمو ويعيش جسدياً دون عقل . بل ان وايزمان قال له انه كلما كان عائداً الى منزله تمر به لحظة خاطفة يتمنى فيها لو انه وصل الى البيت فوجد ابنه قد مات . فشاب مثله فى حوالى الثلاثين من عمره وصحبح البدن الى آخر حد سيعيش ربما عشرات السنين على هذه الحال مسيباً اقصى الآلام لكل من حوله ، وتوقف الرئيس السادات عند هذه الفقرة وقال لى : « يا أحمد همه بشر برضه زيناً ، وحاجة زى كده تغير تفكير اى راجل » .

ثم مضى مستأنفا الحديث عن وايزمان الذى كان وأضحاً انه خلب ليه .. فروى لى أن وايزمان قال له ان امنيته الوحيدة فى الحياة ان ينجع السلام ، وان يقضى بقية عمره فى بيت صغير يشتره فى مدينة الاسكندرية ، التى يعشقها وفيها اجمل ذكريات شبابه ..

ولاشك ان الرئيس لاحظ الدهشة على وجهى فقال لى فى فخر وارتياح عظيمين : كان وايزمان يأتى الى فى الفندق كل يوم ، واحياناً مرتين ، بساقه المثقلة بالجبس .. كلن يأتى ليسألنى عن أى طلبات او رغبات من غير القنوات الرسمية . وعندما كنت اطلب إليه شيئاً .. تعرف كلن يقول لى ايه ؟ كلن يقولى بالعربية المصرية التى يجيدها ، تؤمر ياريس !

كنت اشعر ساعتها بوضوح شعور الزهو والارتياح لدى السادات .. انه التعبير الذى يقوله المصرى لرئيسه المحبوب ، وهامو احد اقدرواهم قادة العدو يخاطبه بهذه الكلمة المصرية العريقة ( تؤمر ياريس ) وان هذه الكلمة كانت تدغدغ مشاعر السادات الى آخر حدود .

وروى لى الرئيس السادات انه اعجب بشخصية رئيس الجمهورية فى ذلك الوقت اسحاق نافيون ، الذى يتحدث المصرية الشعبية بطلاقة ويحفظ الكثير من النكت المصرية الصميمة ، ويعجب بسماع ام كلثوم بصفتها خاصة ، وان نافيون وزوجته رحبا به فوق كل تقليد وبروتوكول ، فصممت زوجة نافيون على ان تصحب زوجها الى المطار لوداع السادات رغم انف البروتوكول . وعندما كانت تصانصه وهو صاعد الى الطائرة انتابها نوبة

حماسة ، فنزعت من يده الدبلة التى يلبسها فى اصبعة ، وقالت انها ستحتفظ بها تذكارا من اهم شخص قابلته فى حياتها ، وأعطته فى مقابلها الدبلة التى كانت تلبسها فى اصبعها ! .. وضحك السادات وقال لى : أخذت منى دبلة من الذهب وأعطتني دبلة لاعرف اذا كانت من القضة أم من الصفيح ! .

عندما لاحث طائرة الهليكوبتر أخيرا على الأفق نهض السادات متمشيا معى فى الشرفة ومودعا لى ومنتجها الى الهليكوبتر ، وقال لى اهم تصريح بطريقة عفوية وكأنه يتحدث عن بدمية : الاثنين سأقضيه كله فى عزلة وراحة وتأمل .. ليس عندي أى موعد .. وصباح الثلاثاء سيصل الوفد الاسرائيلى الرسمى الى الاسماعيلية سنعقد جلسة فى الصباح وجلسة بعد الغداء ( قالها وكأن المباحثات مجرد اجراء شكلى مفروغ من نتيجته مقدما ) وفى صباح الاربعاء سنعقد أنا وبيجين مؤتمرا صحفيا نعلن فيه مبادئ الاتفاق .

وقبل ان تبدو على مظاهر الدهشة والبلاهة مرة أخرى لهذه السرعة الضائقة والبساطة المتناهية .. استطرد السادات ونحن تسير جنبا الى جنب قائلا لى : فى الواقع اننى منذ عرفت بالازمة القلبية التى أصابتك فى الكويت وأنا استتكف من استدعائك كالعادة للنقاش أو لكتابة خطبة ، ولكن من حسن الحظ أنك هنا ، فبعد المؤتمر الصحفى صباح الاربعاء الذى سيذاع على التلفزيون سيسافر بيجين والوفد الاسرائيلى الى القدس وسأحضر راسا الى القاهرة فى بيت الجيزة أنا أريد ان اذهب الى مجلس الشعب صباح السبت لألقى خطابا أشرح فيه مبادئ الاتفاق وقصته الكاملة ، لأقطع كل الألسنة الطويلة بالنتائج التى سأعلنها ، وإذا لم تكن مضطرا إلى السقر فأننى أحب ان تكتب لى هذا الخطاب . انه سيكون اهم خطاب فى حياتى السياسية . وموضوع الصراع العربى - الاسرائيلى هو موضوعك فهل أنت مضطر للسفر قبل ذلك ؟

قلت له : لمبت مضطرا وأنا باق بالطبع تحت طلبك أى وقت تشاء .. صافحنى وهو يقول : سأطلبك فى بيتك وهو قريب من بيتى بمجرد وصولي نهار الاربعاء .. سيكون لديك بقية يوم الاربعاء ويوم الخميس كله لكتابة الخطاب ، ونراجعها معا يوم الجمعة .



ركبت سيارتى عائدا مع الغروب من سكوت صحراء الهرم الى بيتى فى الجيزة والدنيا تدور بى ! .. اننى اشعر ان الرئيس بالتأكيد صادق مع نفسه فى كل كلمة قالها لى ، فهو ليس محتاجا إلى أن يقول لى شيئا آخر ولكننى غير قادر على ان اصدق ان كل مايقترعه سيتحقق ، هل ماقاله لى سيتحقق ولو سبعين فى المائة منه ؟ ( فقد تعودت من السادات ميله الى التفاؤل غير المبني احيانا على اساس وميله لسماع الجانب الوردى من الاخبار والاحداث ) .. أم انه ضحية عملية خداع هائلة ، وسيظل هدهد.

اسرائيل عدم اعطاء اى شىء والمناورة وكسب الوقت كما قلت له ؟ ام انه قد ذهبت به الاحلام بعيدا الى سحابة غير حقيقية تحت تأثير الوهج الشديد الهائل من الدعاية والاعلام والاهتمام العالمى والتمجيد الدولى فى العالم الغربى بالذات .. وهو العالم الاكثر قوة وجاذبية ولمعانا وبراعة فى التأثير على رأى العالم .. العالم الذى يهيمه قبل العوالم الأخرى ؟ وقررت الا اضيع وقتنا .. وقضيت بقية اليوم واليوم التالى التقي وازور كل من كانت له صلة بهذه القضايا الى وقت قريب : محمود رياض واسماعيل قهسى والمرحوم الدكتور محمود فوزى وغيرهم . ولم يكن من حقى ان ارى لاحد من السادات وبيئى بالتفصيل ، ولكننى كنت اقول لهم اتنا تحدثنا طويلا وان هناك اتفاقا ما سوف يعلن قريبا صباح الاربعاء ، وقد يعجب الاتفاق البعض وقد لا يعجب آخرين ، ولكن هناك اتفاقا مؤكدا فيه مفاجآت كثيرة . وكان البعض يدهش والبعض يتشكك الا المرحوم الدكتور محمود فوزى الذى رفض حديثى واستفجاتى تماما ومن أساسها ..

وانكر ان مصطفى امين كان قد كتب يوما او قبلها بأيام قليلة فى بابيه فى جريدة الاخبار : فكرة ، يقول :  
جريدة الاخبار فى ١٩/١٢ سنة ١٩٧٧ .

#### ( فكرة )

اتصلت بى أمس بليفونيا الاذاعة الاسرائيلية من تل ابيب ، وسألتنى هل اقبل دعوة اذاعة اسرائيل للحضور الى اسرائيل ضيفا عليها .. ؟ قلت اننى اقبل بعد ان يجلو آخر جندي اسرائيلى من الاراضى التى احتلتها بعد حرب ١٩٦٧ وتعترف بحقوق شعب فلسطين . قالت اذاعة اسرائيل : ولكن الرئيس السادات زار اسرائيل . قلت : انه زار اسرائيل باسم الشعب المصرى ليقول لكم هذا . وسوف اגיע بعد ان تتحقق مطالب العرب التى اعلنها السادات فى الكنيست .. قالوا : هل هذا وعد ؟ قلت : نعم هذا وعد ..

فبعد ذلك تلغيت تلكس من شركة مانديز للسياحة فى تل ابيب تطلب نشر إعلان فى أخبار اليوم ترحب فيه بوصول أول طائرة عال اسرائيلية إلى مصر ، ويتمنى ان تصل قريبا الى تل ابيب أول طائرة من شركة مصر ! وأبرقت لهم اقول اتنا سننشر هذا الاعلان بعد جلاء آخر جندي اسرائيلى عن الاراضى العربية .  
وأمس زارنى الصحفى الاسرائيلى : داني روبنشتاين المحرر العمالى

لجريدة دافار الاسرائيلية ، وسألني اذا كانت مصر مستعدة أن تنزل من جزء قليل جداً من الأراضي من أجل أمن اسرائيل ..  
وقلت له : ليس في مصر كلها مصري واحد يقبل أن ينزل عن شبر واحد من الأرض ! ..  
قال : أنت تعلم أنه مؤلم أن ننزل عن أرض امتلاكنا لمدة عشر سنوات ..

قلت : نعم هذا مؤلم جداً ، وأنا أقدر المكم ، ويمكنكم أن تقارنوا بين المكم هذا وألمنا نحن الذين كنا نملك هذه الأرض منذ أكثر من سبعة آلاف سنة ! ..

وقلت له : أنا اعرف كم يتعذب الاسرائيليون عندما يجدون البلايين تفيض حولهم في الشرق الأوسط ، ولا يستطيعون أن يلمسوها ! وأخشى لو تأخرتم في الموافقة على مطالب العرب أن تصلوا إلينا بعد أن تكون قد انتهت هذه البلايين !

وزارني صديق صحفي عربي وسألني عن رأيي في اتحاد المنظمات القدائية العربية ؟

وقلت له : انني سعيد جداً باتحاد هذه المنظمات ، وقد وعدت بهذا وطالبت به ، فإن الثورة الجزائرية لم تنجح إلا عندما وجدت صفوفها ، ولكن المصريين أسفون لأن المنظمات الفلسطينية لم تستطع أن توحد صفوفها لمحاربة اسرائيل واستطاعت أن توحد صفوفها لمحاربة مصر .. !  
مصطفى امين

وكنت قد قمصتها وحملتها في جيبي واطلعت عليها الدكتور محمود فوزي وقلت له : لو أنك يادكتور كنت رئيس وزراء اسرائيل وخيرت بين هذه العروض السخية التي تصل إلى البترول العربي وبين سيئاه وشرم الشيخ .. ألا تفضل هذه العروض ؟ ! ..

كان الدكتور محمود فوزي قد قال لي في اول حديثي معه وبعد أن قلت له مااستطيع قوله : انني بعيد عن السلطة تماماً منذ عامين ولكنني اقطع لك بأن اسرائيل لن تعيد سيئاء قط الى مصر ، كماؤكد لك ان السادات لن يقبل الشروط التعجيزية التي سيضعونها امامه .

مرة اخرى لم احاول ان ازعج يقين الدكتور فوزي بروايتي تفاصيل ما سمعت واكتفيت بأن اقول له : يادكتور فوزي ، الرئيس السادات لم يكن يتحدث عن ، العروض ، وهل نصاهر عاقلتها ام لا ، انما كان يتحدث عن تفاصيل اتمام المصاهرة ..

يعني اين يقام الفرع واي نوع من الملابس والمشروبات توزعه ..  
وقال لي المرحوم الدكتور فوزي وهو ينقل بصره بيئي وبين  
نافذة بيته الريفى المطلة على حديقته وعلى اشجاره : اكرر لك  
بلا تردد اننى اقطع انه لن يحدث اى اتصال في الاسماعيلية .  
وضحكت وقلت له : لقد رفع الرئيس يده وقد قبض كله وقال  
لي انه حين يعلن مافى يده سوف يضرب العرب بالجزمة  
القديمة .

وكانت للدكتور فوزي طريقة خاصة في الفكاهة والدعاية فقال لي : لا !  
اسمح لي .. واضح انك لم تسمع كلام الرئيس السادات جيدا .  
قلت له : هذا اتهام غريب !

فاجابنى وكأنه لا يهزل : هل تتصور ان الرئيس السادات عنده جزمة  
قديمة لكى يحدثك عنها ؟ لو قلت لي انه قال انه سيضربهم بالجزمة « البيير  
كاردان » لصدقتك !

وعاد وجه الدكتور فوزي يتخذ شكلا قاطعا وصارما على غير عادته ..  
وقال لي : لقد عرضت سيئاء على مصر وأنا في السلطة مرتين ، مرة في  
عهد عبد الناصر ومرة في عهد السادات ، وقد رفض الرجلان العرض وأنا  
اشهد امامك بذلك .

وقلت له : لاتؤاخذنى يا دكتور فوزي مما ساقول .. فأننا لاأصدق ان  
سيئاء قد عرضت علينا ورفضناها .. وعندما خطب جمال عبد الناصر ورصد  
شعار « القدس قبل سيئاء » اخذت هذا الشعار على محمل الضمط  
السياسى والعمل التفضالى فحسب .

قال لي الدكتور فوزي : لقد عرضت علينا سيئاء مرتين ولكن بشروط  
لايمكن ان يقبلها اى رئيس دولة مصرى مهما كان اتجاهه .  
ماهذه الشروط المستحيلة ؟ حكايات المستوطنات وما الى ذلك ؟  
قال : كلا ! .. كانوا مستعدين لإعادة سيئاء كاملة بلا زيادة  
ولانقصان ! .. اما الشرط المستحيل فهو : ان تخرج مصر من العروبة  
نهائيا وجميع الاشكال !  
- يعنى ايه ؟

- يعنى تصبح دولة شرق اوسطية او دولة من دول البحر  
الابيض المتوسط ، ولكن ألا تعود لها صلة سياسية باى شكل  
مع مايسمى بالعالم العربى .. تصبح تركيا او اليونان او ايران !  
ان تركيا وايران دولتان مسلمتان ، وفى مجلس الامن مثلا  
يصوتان دائما ضد اسرائيل ، الى آخره . ولكن الحرب مثلا مع  
اى دولة عربية او مع العالم العربى كله ، لايعنى ان تدخل تركيا  
أو ايران الحرب . هذا هو الموضوع المطلوب من مصر مقابل

سيناء ... ولا صدق للحظة واحدة ان السادات سيقبل او يستطيع ان يقبل ذلك .

.. الغريب انه يعد سنوات من كلام الدكتور محمود فوزى .. وبعد عقد معاهدة الصلح مع اسرائيل ، وتكوين لجنة سياسية مصرية اسرائيلية تتباحث في القدس ، ولجنة عسكرية تتباحث في مصر ، رئيس الجانب الاسرائيلي فيها هو عازار وايزمان ويرأس الجانب المصري الفريق الجسمي . اننى التقيت بالفريق الجسمي مرة وكان يحدثنى عن تعثر المباحثات العسكرية بسبب تمسك اسرائيل بالمستوطنات السبع التى اقامتها في سيناء .

وقال لى الفريق الجسمي انه في اثناء الاستراحة قال له وايزمان : اسمع يا جنرال جسمي ! .. انت رجل عسكري وانا رجل عسكري .. وكلانا يعرف ان هذه المستوطنات ليس لها اى قيمة عسكرية على الاطلاق .. ولكن

المسألة سياسية تماما . اننا واثقون من نوايا السادات . ولكن السادات لن يعيش الى الابد .. فلنفرض ان خلافا نشب يوما بيننا وبين سورية او الاردن مثلا .. ماذا يكون رد فعل مصر ؟ هل هو رد الفعل التلقائى القديم بأن تكون مع الطرف العربى مخطئا ام مصيبا ؟ وحربا وسلاما ؟ ام ستتمسك كدولة على علاقات مع كل الاطراف تميز بين المخطئ والمصيب وتكتفى بادانة من تراه مخطئا ؟ لو اننا نضمن استمرار هذه الروح الجديدة التى لم تمتحن بعد لاخلينا ليس المستوطنات فقط . ولكن لاخلينا التقب كله ! فلا مصلحة لنا في وجود جبهة مصرية نواجهها ! عندما سمعت هذه القصة على لسان المشير الجسمي وجدته مؤسيرا عمليا لما قلناه لى الدكتور محمود فوزى بالضبط قبل سنوات .. وشعرت يومها ان السادات قد سار بمصر فعلا في طريق مستحيل . وان المسألة اخطر من مجرد عقد معاهدة صلح مع اسرائيل ووجدت في « نوعية » حملات السادات والاعلام الموالى له ضد العرب بعد كامب ديفيد ، ان حفر الهوة التى تستحيل بها اقامة اى جسر مع العرب امر مقصود لذاته وجزء غير مكتوب من الثمن .

كان السادات - في تقديرى - يتمنى بلا شك ان يحصل لمصر وللعرب على اقصى ما يستطيع ، ولكنه على ضوء توالى الاحداث ورؤيته للأمور ، واختياره الأمريكى النهائى الاستراتيجى ، كان مستعدا لأن يحصل على الحد الأدنى وهو استرداد سيناء ، فقد علمته مظاهرات الخبز انه بغير ذلك لا يستطيع ان يستمر في حكم مصر وكان مستعدا لأن يحصل اذا اقتضى الامر على سيناء من خلال حل متفرد مهما كان الثمن غاليا ، معتمدا على قدرته بعد ذلك في استغلال الظروف المجهولة المتغيرة . وقد حدث بعد ذلك ما هو معروف من مباحثات الاسماعيلية .

وفي صباح الاربعاء كنت جالسا بمقردي في بيتي امام شاشة التلفزيون ، انتظر المؤتمر الصحفي الذي سيعمل فيه مبادئ الاتفاق . وقد ذهل الناس جميعا من هذا المؤتمر وصدمو مما رأوه صدمة قاسية

ولكنني قد لابالغ اذا قلت انني كنت من القليلين الذين صدموا اكثر من غيرهم . فقد كنت احد الذين استمعوا الى السادات وهو يرسم الصورة الوردية التي ستتجلى في هذا المؤتمر ، لقد بدا السادات على شاشة التلفزيون وهو جالس بجوار مناحم بيجين وكأنه جسد محنط عاجز عن الحركة .. كان واضحا لي انه يمر بإحدى أقسى ساعات حياته امام العالم كله . فقد جلس بجواره مناحم بيجين الذي يظهر لأول مرة على شاشة تلفزيون مصر ومحدثا لأول مرة من ارض مصر .. ولكنه لم يتقدم في اهانة مصر واهانة السادات كلما سبحت له الفرصة . قال ردا على سؤال من الصحافة المصرية هدى توفيق ان الرئيس السادات اعترف له بأن مصر تعتبر هي البادئة بالعنوان في حرب ١٩٦٧ (١) وهو قول بالغ الخطورة فضلا عن انه غير صحيح بالطبع . وقال ردا على سؤال آخر في عرض الكلام ان اليهود هم الذين بنوا الاهرامات ! وكان يتحدث بكبرياء وصلف ووقاحة لامثيل لها .. والسادات بجواره عاجز عن الرد او تخفيف الموقف . فهذا رجل مضطر لاحتمال مالا يحتمل لانه حريص على استمرار عملية السلام ، والآخر لا يريد السلام أصلا ولا يريد اعادة شهر من سيناء ولا يهيمه اذا وقع اي صدام ينهي المفاوضات .

كانت هذه نقطة التحول الكبرى في الرأي العام المصري . فالجور الاعلامي الذي اوجده السادات برحلته الى القدس والذي جعل اغلبية الشارع المصري تؤيد مسيرة السلام تحطم في دقائق بسبب مسلك مناحم بيجين الاول على الارض المصرية والشاشة المصرية .. فهذه ليست نية سلام ولا غيره .

وايقنت ان ماكان يتحدث عنه السادات لي قبل ايام هو حلم من الاحلام ووهم كبير وخديعة كبرى ساقته اليها ثقته المطلقة بالرئيس كارتز وقدراته ووعوده .. وادركت في الوقت نفسه ان السادات لن يستطيع الخروج من هذا الحلم مهما حدث ، وان التنازلات سوف تنوالى اذا اراد ان يخلص بقطعة صغيرة من هذا الحلم .

واتخذت قرارا غريبا وهو : الا اري السادات بعد ذلك !! لقد أصبح في مكان بعيد جدا لا اتوقع ان اجد خيطا يربطني به .. وان الحوار صار مستحيلا ولانتيجة له الا الشجار والتوتر الذي لا اريد ان تنتهي به هذه العلاقة

وسهل ذلك علي ان الرئيس السادات بعد هذا المؤتمر الصحفي لم يعد الى القاهرة كما كان المفروض ان يفعل .. فلم يعد هناك مبرر لكتابة خطاب

وللذهاب إلى البرلمان والقائه ! ، إذ ليس هناك ما يقال على الإطلاق .. بدل  
أن يأتي السادات إلى القاهرة سافر رأسا إلى اسوان ..  
وهنا سوف اتأمر مرة أخرى باستنتاج وإن كان يستند عندي إلى دلائل  
وقرائن كثيرة من بينها نغمات مبهمة في كلام السادات .. هذا الاستنتاج  
هو : إن السادات ذهب إلى اسوان لكي يفكر مليا فيما حدث وماذا يفعل ..  
ومن بين ما كان يفكر فيه جديدا هو الاستقالة !  
ولعل القراء يذكرون أنه خلال اسبوع واحد تقريبا من ذهابه إلى اسوان  
زاره الآتي ذكرهم : جيمى كارتر رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، ورضا  
يهلوى شاه إيران وجيمس كالاهاون رئيس وزراء إنجلترا ، والملك الحسن  
ملك المغرب ، وفي تقديرى أن كارثة الاسماعيلية قد جعلت الذعريديب في  
قلب كارتر وحلفائه ... وإن كارتر لم يكن بعيدا عما يدور في ذهن السادات  
فأسرعت أمريكا تدفع بكل هؤلاء للطيوان إليه في اسوان لتشجيعه ولإبداء  
استنكارهم للمسلك الاسرائيلي المخادع ولتشجيعه على البقاء والاستمرار  
وعدم اليأس ، وإن القصة لم تنته بعد ، وأنه لو أنها ما عند تلك النقطة  
فسيكون قد فقد كل آثار حرب أكتوبر وزيارته للقدس معا ، ومن يومها لم أر  
الرئيس السادات ، فقد كان هذا اللقاء الذى استغرق يوما كاملا في  
استراحة الهرم هو أخرا لقاء .





## المنع الثانى من الكتابة

لم ار الرئيس السادات قط منذ اللقاء الطويل الذى رويت قصته فى الصفحات السابقة .

كنت اتردد كالعادة بين الكويت والقاهرة كثيرا . ومقالى الاسبوعى عن « حديث الاحد » ينشر فى الاهرام بانتظام كالعادة . وفى خلال احدى زياراتى للقاهرة تشكلت اول وزارة برئاسة الدكتور مصطفى خليل ، وقد الغيت فى التشكيل وزارة الثقافة وضمت الى وزارة الاعلام . واسرعت وانا فى القاهرة اكتب مقالا لينشر يوم الاحد بعنوان « خطاب عاجل الى رئيس الوزراء الجديد » ، بقصد ان اعترض على الغاء وزارة الثقافة . ولكننى دون ان ادري كتبت مقالا عنيفا ظهر كانه انفجار للكثير المكبوت فى نفسى . بدءا من اتهام العهد - اى عهد السادات - بأنه ضد الثقافة الحقيقية والمتقنين الحقيقيين ، ثم استطردت الى تعقب كل ماكنت ارى انه من مظاهر التفسخ والانحلال فى المجتمع والتسيب الذى يغمر مرافق الدولة ، ومقدمات العواقب الاقتصادية الوخيمة التى كنا نتوقعها للقوضى الاقتصادية التى سميت أنفثا ، وظهر المقال فى الاهرام وكأنه حملة عنيفة على كل القيم والمنطلقات التى ظهرت بواردها واخذت تتفاقم يوما بعد يوم .

وعلمت بعد ذلك ان هذا المقال ترك اثرا عنيفا فى نفس السادات . ولكن « حديث الاحد » الاسبوعى ظل ينشر فى الاهرام كالمعتاد . وقد جرت احداث كامب ديفيد بكل ما صاحبها وانا بعيد عن القاهرة . وتصادعت الحملات الصحفية بشدة بين الصحافة العربية والصحافة المصرية . وعندما اعلنت نصوص اتفاقيات كامب ديفيد كتبت مقالا تحليليا موضوعيا وتقديرا للاتفاقية . وارسلته كالمعتاد للاهرام ولكنه لم ينشر وان كان قد نشر بالطبع فى الصحف الاخرى التى تنشر « حديث الاحد » فى نفس اليوم فى عواصم عربية اخرى .

والغريب اننى كنت فى القاهرة ، وهناك الدكتور مصطفى خليل على هذا المقال بل وعلى ما فيه من نقد ومناقشة لنصوص الاتفاقية وروحها ، عندما كنت اؤوره فى مكتبه فى رئاسة مجلس الوزراء . ودهشت ، وسألته اين قرأ المقال ؟ ، حيث ان المقال منع من النشر فى الاهرام ؟ وتبين ان بعض شباب وزارة الخارجية المصرية كانوا قد صوروا المقال من احدى الصحف العربية وتداولوه بينهم ووصلت نسخة منه الى الدكتور مصطفى خليل ، الذى وافقنى يومها على ان اسلوب المناقشة والنقد الموضوعى خير من اسلوب التهليل لكل ما احاط بالاتفاقية وما جاء بها ودُهِش لمُنعهُ من النشر فى مصر !! .

وعدت الى الكويت وانا لا اعرف اذا كان المنع منصبا على هذا المقال بالذات ام لا .



وتوجهت لحضور ندوة فى « ابو ظبى » . وهناك وجدت فى نفس الفندق : السيد محمود رياض وزير خارجية مصر الاسبق وامين عام الجامعة العربية وقضاها ، والسيد عبدالعزيز بوتفليقة وزير خارجية الجزائر فى ذلك الوقت . كان ذلك فى فترة مرض الرئيس الجزائرى هوارى بومدين خلال الغيبوبة التى استمرت اسابيع طويلة قبل وفاته وكان احد اهم الاسئلة فى العالم العربى كله هو محاولة معرفة التيارات والشخصيات المتصارعة فى الجزائر ومن الذى سبكت له ان يكون الرئيس المقبل للجزائر . والصحف العربية والعالمية تنضارب فى نشر عشرات الاسماء والتخمينات . وروى لنا السيد عبدالعزيز بوتفليقة احد اقرب الناس الى المعرفة قصة هذه التيارات كاملة ، بالوقائع والاسماء الدقيقة . وكان من اهم ما قاله انه هو شخصيا ليس واردا على الاطلاق كمرشح للرئاسة . بعكس ما كانت تتوقعه معظم الدوائر بوصفه اقرب مساعدى بومدين اليه . وكان متأثرا وهو يروى اعتقاده بأن بومدين رغم علاقته الوثيقة جدا به ، كان حريصا على ان يبعده طول الوقت عن مكان المرشح المحتمل لخلافته . والذكر انه قال ان بومدين فعل به ما فعله الحبيب بورقيبة فى تونس مع اقرب رجاله اليه بعد الاستقلال ، السيد المنجى سليم ، اذ عمد الى ابقائه فى الامم المتحدة وغيرها من المحافل الدولية حتى يفقد أى قاعدة داخلية له ! اما الامر الثانى الجديد الذى قاله لنا فهو انه يرجح ان ينتهى الامر باختيار « الشاذلى بن جديد » رئيسا للجمهورية .

« الشاذلى بن جديد ؟ » هل هو الرجل الاسمر ذو الشعر الابيض واللامع الصارمة الذى كان حاكما لولاية وهران ؟ نعم ! لقد دعانى الرئيس بومدين مرة انا وزوجتى لزيارة الجزائر وقضيت اسبوعين اتجول فى كل مدنها ، وقضيت منها يومين فى مدينة وهران فى صحبة حاكم

الولاية ، الشاذلي بن جديد ، الذي كان لايركب سيارة ولايتجول في المدينة الا سائرا على قدميه ، مما ارهقني كثيرا ، ولايتكلم الا نادرا . كانت عندي قصة صحفية مفصلة ليس لها مثيل . وفي الليلة نفسها امسكت بالتليفون واتصلت باصدقاء جزائريين في عواصم اوربا والعالم العربي ومنهم السيد الاخضر الابراهيمى سفير الجزائر وقتها في لندن والذي كنا مترافقين معا في زيارة وهران اذ كان ايامها سفيرا للجزائر في القاهرة ، وذلك كي استكمل المعلومات عن الاسماء والشخصيات وعمدت في الليلة نفسها إلى ارسال القصة التي ستشغل صفحة كاملة من الجريدة الى الاهرام ، وفيها اول صورة مفصلة عما يدور حول قرأش بومدين ، واول تأكيد لاسم رئيس الجمهورية القادم .

اسرعت بهذا كله لسببين : السبب الاول . هو الواجب الصحفى نحو الجريدة وقراءها وان كنت خلال تلك الفترة في اجازة بدون مرتب واكتب لها مجانا وهي الجريدة التي لا يفتقها الثراء . والسبب الثانى : اننى وجدت ان هذه الرسالة الصحفية لايمكن للجريدة ان تمتنع عن نشرها . وبالتالي فلماذا لم تنشر الرسالة فمعنى ذلك ان المنع الخاص بى ليس مقصورا على مقال سابق ولكنه منع مطلق لى من الكتابة ، الامر الذى كنت ارجحه بيتى وبين نفسى لأن السادات كان يقول أنه لا توجد رقابة على الصحف في عهده إذا رفع (الرقباء) ولكنه أبقي مكتب الرقابة وكان الصحفيون يسمحونهم تذكرا (مكتب حرية الصحافة) لأنه هو الذى يصدر التعليمات الشفوية لرؤساء التحرير وكان السادات شخصا يمنع - دون قرار - ولكن بالتليفون هذا أو ذاك من الكتابة .

وصدرت الاهرام وليس فيها أية كلمة من هذا الذى تصورت انه سبق صحفى عظيم ! وتأكد لى اننى ممنوع من الكتابة مرة اخرى . وتوقفت عن ارسال المقال الأسبوعي الى الاهرام .

وبعد اسابيع ، كنت في القاهرة ، وذهبت لزيارة المرحوم الأستاذ على حمدي الجمال في مكتبه . وروى لى ما حدث : كان الرئيس السادات مجتمعاً مع رؤساء تحرير الصحف والمجلات ، وكان على حمدي الجمال جالسا بجواره ، ومال عليه السادات وسأله هامسا : هوه احمد بهاء الدين مش لسه في اجازة من الاهرام ؟ ... وقال له على الجمال أيوه ياريس - فرد عليه قائلاً : طيب يبقى الاهرام مش ملزم بنشر مقالاته !

وهكذا صدر الأمر الاذنى يمتنع من الكتابة . فيكون السادات في خلال ثماني سنوات قد صادفني مرارا ، ونقلني من مكاني كمقارب مرة ، وفصلني من العمل الصحفى مرة ، واوقفني عن الكتابة مرتين ! وكان هذا الصعود والهبوط المتوالى مصدر حيرة للكثير من السياسيين والزعماء الصحفيين والقراء .



## آخر الفرص

كنت في القاهرة . وكنت ملازما للفراش مصابا بأنفلونزا غير عادية استمرت معي ما يقرب من شهر كامل وكانت المعركة بين السادات والصحف المصرية الخاضعة كلها له من ناحية والصحافة العربية من ناحية أخرى على أشدها . وكانت الاقلام المصرية المعروفة قد بدأت تنشر في الصحافة العربية قبل ذلك بزمان . فمن حقائق التطور العربي ان اصبحت هناك صحف ومطابع متقدمة في كل قطر عربي . وكان مليبيا ان يبدأ في الظهور النظام الشائع في امريكا بالذات حيث توجد صحافة في كل ولاية من ولاياتها وفي البلاد التي فيها صحافة اقليمية قوية كفرنسا والمانيا وهو النظام الذي يتعمل في ان ينشر المقال الواحد للكاتب المشهور في عدة صحف في نفس الوقت .

في حالتي مثلا كان مقالى الاسبوعى في الاهرام «حديث الابد» ينشر منذ اول السبعينيات في جريدة «الانوار» اللبنانية و «الوطن» الكويتية في الوقت نفسه ، يرسل اليهما قبل طبع الاهرام بواسطة تيكروز «اي اجهزة ارسال وكالة انباء الشرق الاوسط» ثم بدأت تنشره مزيد من صحف بلاد عربية أخرى . وهو نظام يماشى التطور ولمصر ان تعترضه ولكنه محل هجوم دائم من الذين لا قراء لهم في مصر ولا في العالم العربي أولئك الذين جعلتهم السلطة - لا القراء - كتابا ، ومع ذلك لم تطلب جريدة عربية من أحد منهم ان يكتب لها حرفا وامتنع !!

وسمعت وأنا في الفراش خطابا عنيغا لآنور السادات من خطاباته التي تميزت في تلك الفترة بالاتجال والعنف البالغين .. وخص بهجومه جريدة «الشرق الاوسط» التي تطيع وتوزع في لندن وفي جدة في وقت واحد . لم اكن اكتب فيها في ذلك الوقت ولكنها كانت تنشر بانتظام مقالات وقصص لبعض كبار كتابنا مثل مصطفى امين ونجيب محفوظ واحسان عبد القدوس

وغيرهم . وكما علمت فيما بعد فإن بعض المحيطين بانور السادات اقنعوه بأن مقالات وكتابات الكتاب والادباء المصريين هي التي تروج الصحف العربية التي تهاجمه . وانه لو امتنع الكتاب والادباء المصريون عن الكتابة في هذه الصحافة فسوف تغلق ابوابها قورا ! وقالوا له ان جريدة الشرق الاوسط بالذات هي اكثر جريدة يكتب لها المصريون وانها جريدة الملك قهد شخصا ! ومن هنا جاءت حملة السادات العنيفة في هذا الخطاب على الصحف العربية ، اامة وعلى «الشرق الاوسط» خاصة ، ثم انتقل الهجوم على الكتاب المصريين الذين يذشرون في هذه الصحف ، واعتبر عملهم هذا خيانة . وكانت ملابس تلك السنوات قد ادت الى هجرة عدد من الكتاب المصريين الى الخارج ازاء منعهم من النشر في مصر حيث تغرغوا لمهاجمة سياسة السادات في الانقلاب على ٢٣ يوليو والتشهير بجمال عبد الناصر ومنح الامتيازات المبالغ فيها للمال الاجنبي المستثمر في مصر مالا يظفر المستثمر المصري بحظه . والارتباط الاستراتيجي المطلق مع امريكا ، الى آخره . ولم اكن ممن هاجروا فقد كنت موجودا في الكويت كما ذكرت قبل كل هذه الظروف . ولكنني اعتبرت هذا الخطاب شاملا للجميع . ووجه السادات في نهاية خطابه انذارا عنيفا للكتاب المصريين بأن عليهم ان يختاروا بين الكتابة في الصحف المصرية او الصحف العربية التي تصدر خارج مصر .

وكان لهذا الخطاب البالغ العنف اثر عميق فتوقف معظم الذين كانوا يكتبون في «الشرق الاوسط» عن الكتابة فيها . كتب مصطفى امين مقالا يعلن فيه ذلك بعنوان «اخترت مصر» وكتب آخرون بالمعنى نفسه .

وبعد ايام اتصل بي الاستاذ موسى صبرى في البيت تليفونيا عدة مرات وكان الرد هو انتى مريض فى الفراش والتليفون بعيد عني . ويبدو ان موسى صبرى ظن اننى اتهرب منه . وهو امر غير صحيح بالطبع ولكننى كنت راقدا في فراشى بالفعل ذات صباح لم يكن في البيت سوى ابني عندما وجدت موسى صبرى واقفا جوار فراشى في غرفة النوم فجأة مع انها كانت المرة الاولى التي يأتى فيها الى بيتي ، واستنتجت فورا ان موسى اراد ان يقاجئننى وانا غير مريض . فقد ظهرت الدهشة على وجهه فعلا عندما وجدتني راقدا في الفراش متدثرا بالاعطية ، والمرضى واضح على . المهم .. جلس موسى صبرى وقال لي : ده انت عيان صحيح ! وانا اتفقت مع الرئيس السادات على اننى ساذهب اليه بك في اسوان على طائرة صباح الغد !

واخذ يحثنى على أن اسافر معه رغم المرض . وقال لى انه تحدث مع الرئيس طويلا وان الرئيس يذكر لى اننى لم اهاجمه شخصيا قط واننى فرقت بين انتقاد سياسة مصر وبين مهاجمة مصر وان هذه القطيعة بيننا يجب أن تنتهى ..

وقلت لموسى صبرى : اولا انت ترى بنفسك اننى فعلا مريض .. ثانيا انك جئت لى مشكورا فى اسوأ وقت .  
- لماذا ؟

- خطبة الرئيس السادات الاخيرة يتهم فيها كل من يكتب فى صحف غير مصرية بكل انواع الاتهام وهى اتهامات لا اقبلها بأي شكل . ثم ان الرئيس السادات متعنى من الكتابة فى الاهرام لاننى اعارض بعض سياساته . ولعلمك قاننى اعارض اساسا سياساته الداخلية . وبالتالي قاننى ساواصل الكتابة فى الصحف العربية وفى اى مكان استطيع ان اجد فيه ناشرا لما اكتب حتى فى استراليا فهذه مهنتى وواجبى وحقى وليحاسبنى من يشاء على ما اكتب وأنا اكتب للقارئ العادى لا أكثر ولا أقل لا للحاكم ولا لمصلحة . ومعنى قبول ائذار السادات هو القبول بالكف عن الكتابة والاعتقال المعنوى فى مصر ومعناه اننى كنت مخطئا فى الكتابة فى الصحافة العربية وهو ما لا اوافق عليه .

ثم ان الرئيس السادات ناقض نفسه فى هذا الخطاب مناقضة شديدة . فهو يزعم للعالم صباح مساء ان الصحافة المصرية تتمتع بحرية لا مثل لها وهو كما تعرف عكس الواقع تماما ، ثم يأتى بائذاره العلنى هذا للصحفيين المصريين فينقضى هذا الزعم عن حرية الكتابة . اننى اعتقد انه لو اتصل تليفونيا بأى كاتب من كبار كتابنا هؤلاء وطلب منهم عدم الكتابة فى الخارج لاستجابوا له ولكن هذا الائذار العلنى والتهديد على رأى ومسمع من الناس جميعا مهين لكرامتهم ولكرامة الصحافة . انه يجعل الصحفي المصرى كالارنب يؤمر بالدخول فى هذا القفص او فى ذاك فيطيع ! فكيف اذهب اليه فى هذا الوقت بالذات . اننى اقدر حسن نيتك ولكن هذا اللقاء فى هذا الوقت لن ينتج عنه الا تفاقم الخلاف .

وقال موسى صبرى : ان السادات فى هذا الخطاب لم يقصدك انت ومن هم مثلك وبصراحة فقد كان يقصد مصطفى امين بالذات انت تعرف ان الرئيس لا يحب مصطفى امين . ومصطفى امين شديد الشك فى نوايا السادات نحوه وهو يعتقد ان السادات يريد ان يمنعه من الكتابة فى الخارج . ثم يمنعه بعد ذلك من الكتابة فى الداخل فينتهى حياته كمسجفى . وقد كان مصطفى امين يريد رفض ائذار الرئيس ولكننا بذلنا جهودا جبارة

معه لأقنعه بأن هذه الشكوك ليست صحيحة وأنه يجب أن يقبل ويترك العاصفة تمر .

وقلت لموسى صبرى : بالعكس أنتى أرى شكوك مصطفى أمين صحيحة وبصرف النظر عن عواطف السادات الشخصية نحو مصطفى أمين أو غيره فما يتخوف منه مصطفى أمين يمكن أن يحدث لائى كاتب منا وعلى ذلك فانا لا يمكن أن اعد بقبول ما جاء فى خطاب الرئيس مهما كانت الظروف . وبالتالي فرحلتى الى اسوان محكوم عليها مقدما بالقسمل الذريع الذى لا داعى له والذى سوف يحركك انت لولا .

وسألتى موسى صبرى ماذا أقول للرئيس اذن صباح غد فى اسوان عن سبب عدم حضورك معى ؟ وكان مديعيا ان ارد عليه ان المرض الذى رآه بعينه حجة كافية حتى يمر وقت اخر تهدأ فيه النفوس المتوترة ولكنى قلت لموسى صبرى : اريدك ان تقول للرئيس السادات على لسانى أنتى اطالب بالمساواة بالمطرية شريفة فاضل .. وبانت الدهشة الضاحكة على وجه موسى صبرى وذكرت له ما حدث على صفحات جريدة الاخبار مما ظهر ان موسى لم يطلع عليه .. فقد نشرت جريدة الاخبار فى باب اخبار الناس ان المطرية شريفة فاضل صاحبة كباريه «الليل» فى شارع الهرم تغنى اسبوعا فى كازينو الليل واسبوعا فى كازينو فى لندن حيث يكثر السواح العرب .. وانها كانت تغنى ليلة عندما يتصايح بعض السكارى بكلمات ضد السادات وكامب ديفيد وان شريفة فاضل سائرهم بكلام يحمل نفس المعنى . وبعد ايام نشرت جريدة الاخبار فى المكان نفسه خطابا من المحامى الاستاذ لبيب معوض يقول فيه على لسان موكلة شريفة فاضل انها تؤدى عملها فى لندن كمطربة فقط ولا علاقة لها بالسياسة وان ما نشرته الجريدة غير صحيح ويطلب بنشر هذا التكذيب فى المكان نفسه والا رفع دعوى قضائية ضد الجريدة .

رويت ذلك لموسى صبرى وقلت له : شريفة فاضل من حقها ان تغنى فى كباريه فى مصر وفى كباريه فى لندن ومن حقها ان تغنى ما يوجه اليها من تهمة غير صحيحة وانا اطالب بهذا الحق وبالمساواة مع شريفة فاضل فى كباريهات الصحافة !!

وضحك موسى صبرى ووافقنى على عدم ملاعبة الرحلة الى اسوان فى ظل هذه الظروف .



اتنى اعرف تماما كل ما يوجه الى السيدة جيهان السادات من اتهامات سواء كانت اتهامات مالية او اتهامات بالتدخل فى شئون الحكم . استطيع



ان اقول اننى شخصيا لست مؤهلا لمعرفة مدى نصيب هذه الاتهامات من الصحة وهذا الكتاب لا اعتمد فيه على أية معلومات أعرفها ولكننى ألتزم فيه برواية احتكاكى الشخصى مع الآخرين بما يحمل الالتزام بالشهادة لا بالتجرى والرواية والتحليل وبالتالي ما استطيع ان اتحدث عنه هو الجانب الخاص بمعرفتى الشخصية بها .. وهو ايضا استمرار لمنطق كتابة هذه الصفحات الذى ذكرته فى المقدمة وهو الالتزام بأن لا اسجل على احد الا ما رأيته بعينى او سمعته بأذنى فقط لاغير . تاركا لغيرى مهمة الغرض الى ما وراء ذلك .

وبهذا المعنى ، فاننى قد وجدت شخصية السيدة جيهان السادات فى الاتصال المباشر بها شخصية غير عادية بكل المعايير .. ولا اعرف رجلا او امرأة من ابسط الناس الى اكبرهم علما او ثقافة او مركزا ، عرفها عن كثب وتعامل معها الا ووقع تحت تأثيرها الطاغى . فهى ليست سيدة جميلة وخارقة الذكاء فحسب وهى ليست ذات قدرة فائقة على ان تضبط اعصابها او فلنقل أكثر من ذلك . ان تضبط اعصابها فى كل موقف ومع كل شخص على درجة الحرارة المطلوبة بالضبط . وبشكل تلقائى تماما لا يبدو عليها انها تبذل فيه اى مجهود . ولكنها تتميز ايضا بذلك المزيج من الصفات السابقة وغيرها التى تستطيع ان تكسب به الناس بسهولة فائقة لا تقاوم .

وقد كانت الصداقة فى البداية بينها وبين زوجتى . وكانت لاتزال زوجة لرئيس مجلس الشعب او لنائب رئيس الجمهورية . وهى تجمع فى تكوينها مزاجين معا .. فهى كما تهوى الابهة والفخامة فى أعظم صورها ، فانها تهوى بالدرجة نفسها ما نسعيه بالامزجة الشعبية الصميمة .. تهوى اثنى القراء والمجوهرات كما تهوى الطعمية والبقول المدمس . وليس هذا مجازا . فقد كانت قبل رئاسة الجمهورية وكونها السيدة المرموقة زوجة الرجل المرموق ، تمر على زوجتى مثلا كى تأخذها الى محل ساندوتشات الطعمية الجديد الذى سمعت عنه ثم إلى محل عمير القصب المفضل لديها فى شارع سليمان باشا ( طلعت حرب ) . وكما كانت تواظب على سماع ام كلثوم ، كانت تصمم على ان تأتى معنا الى السراى الشعبى المفتوح مجانا للجمهور فى ميدان سيدنا الحسين خلال شهر رمضان ، سراى فنان الشعب الكبير زكريا الحجاوى ، تتحشر بيننا فى مقاعد السراى البائسة وسط الالف فيهم الرجال والنساء العاديين وفيهم السابلة وغوغاء الحواري القريبة .. بكل ما يصدر عنهم فى السراى المجانى ، لتستمع الى «مضرة» وفرق الانشاد الريفية .. وقدرة زكريا الحجاوى الغدة على محاولة ترويض هذه الآلاف التى يصعب اقناعها بالالتزام الحد الأدنى

من آداب السلوك وعدم الضجيج وتجنب الكلام المبدئي في سوادى مفتوح الدخول فيه بالمجان . ولكن هذا النوع من العلاقة انقطع بالطبع بعد ان اصبح عليها مواجهة اعتبارات وضعها الجديد كزوجة رئيس الجمهورية . وان كان قد بقى ملازما لها على الدوام هذا الامتزاح القريب بين الذوق المصرى الصميم والذوق الغربى الصميم . وان كان الاعلام الغربى منذ زيارة السادات للقدس قد سلط عليها أضواء الغرب بشكل شحبه معه الجانب الشعبى منها امام الجانب الارستقراطى المستقرب ، وقد كان هذا فى حد ذاته من الحواجز الهامة التى قامت بينها وبين الجماهير العادية فى مصر .

وغرامها بالخدمة العامة سابق فى الواقع على تولى زوجها منصب الرئاسة وانتهى لذكر بوضوح الايام التالية مباشرة لهزيمة ١٩٦٧ عندما مرت اسابيع والبلد شذر مذر والسلطة العليا مشغولة بأولويات بالغة الخطورة فى تلك الايام .. ويدون أية دعاية عن هذا الموضوع الذى اظن انه بقى مجهولا حتى كتابة هذه السطور فاجأت زوجتى بالاتصال بها يوما وقالت انها سمعت كغيرها قصص المدنيين المصريين الهائمين على وجوههم فى سيناء بعد الاحتلال الاسرائيلى والذين يصلون الى حافة القناة يكادون يموتون من الاعياء والعطش او الجراح الخطيرة ، وتعسف الجنود الاسرائيليين على حافة القناة معهم ، وعدم وجود من يستقبلهم على الضفة الغربية للقناة .. وقالت انها جندت عددا قليلا من السيارات واتفقت مع سيدات جمعية الهلال الاحمر الذهاب فجر كل يوم الى القناة لمحاولة تسلم من يمكنون تسلمه من العائدين ونقلهم فورا الى المستشفيات فى القاهرة مستخدمة فى ذلك نفوذها بالطبع لتسهيل الاجراءات والاسراع بها .

وبالفعل .. ولايام طويلة كانت زوجتى تعود آخر اليوم غاية فى الاعياء والاجهاد ليس من الجهد البدنى غير العادى فحسب ولكن من الارهاق المعنوى والعصبى . كانت ترى لى صورا لا تحتمل عن حالة العائدين سائرين بالجوع والعطش والدماء النازفة فى قيافى سيناء . وكان اكثر ايلاما من ذلك تعنت الجنود الاسرائيليين على الضفة الاخرى من القناة فى السماح لهم بالعبور مع انهم كانوا لا يريدونهم ولكن يصيحون عبر القناة انهم - فى عز الحر - لن يسلموهم الا اذا ارسلت اليهم كمية من البطيخ او كذا صندوق من البيرة : وعشرات من هذه الاستقرازاات . وكان على جيهان السادات وسيدات الهلال تحمل هذا كله لتسلم العائدين .

وبعد ذلك نقلت جهودها الى مستشفيات القاهرة التى امتلأت بالجرحى وكانت ايضا تصحب زوجتى وسيدات الهلال الاحمر فى مرورها على عتابر الجرحى واستخدام نفوذها فى تحسين خدمتهم وتجميع شكاواهم

ورسائلهم لاهلهم وتكتب بيدها رسائل من تمنحه جراحه من الكتابة فى صبر.  
لا مثيل له . حتى عادت زوجتى يوما وقالت لى انها ابلغت السيدة جيهان  
انها عاجزة عن مواصلة المجهود معها .. لماذا ؟ قالت لى انها دخلت معها  
صباح اليوم الاول مرة اعتبر الذين ضربهم الاسرائيليون بقنابل النابالم  
الجارقة ، فلم تر الا اجساما ملفوفة كلها بطبقات من الشاش الابيض ماعدا  
فتحتين للعينين وفتحتين للأنف والنفم .. ولم يكن هذا كل ما فى الامر بل  
كانت الرائحة داخل العنبر لاتحتمل : رائحة اللحم البشرى المحترق  
المحبوس فى العنبر المغلق !! ومضت زوجتى معها متقلبة بين اسرة العنبر  
وبعد نصف ساعة اغمى على زوجتى من هذا كله .. وحملها الاطباء الى  
خارج العنبر حيث اسعفوها .. وافاقت وقررت الجلوس فى انتظار السيدة  
جيهان التى لم تخرج إلا بعد ساعات فى غاية القوة والصلابة .  
واذكر فى هذا المجال يوم تقرر ان تذاغ فى التلفزيون مناقشة رسالة  
الماجستير التى قدمتها فى كلية الاداب بجامعة القاهرة . وكنت يومها  
مدعوا إلى العشاء لدى اصدقاء من ابناء الطبقة الارستقراطية الراقية ..  
وقوئجت بأنه حتى هذه الطبقة التى رحبت أول الامر بما تجلت به جيهان  
السادات على الناس من جو ارستقراطى شبه ملكى .. قد انقلبت عليها  
بدورها ، وصمعت يومها على ان ادخل بمفردى الى غرفة نوم اصحاب  
البيت لرؤية المناقشة كاملة .. وقد فعلت ، وبقي أهل البيت وسائر  
المدعوين فى الخارج راغضين رؤية هذه المناقشة ثائرين على هذا التمييز  
التليفزيونى لها فمنذ متى يذيع التلفزيون مناقشة رسالة ماجستير ؟ وكان  
هذا فى الواقع رأى كل الناس من كل الفئات .. ولكنى كنت اعرف أولا من  
زياراتى لحجرة مكتبها الصغيرة فى بيت الجيزة انها بذلت مجهودا حقيقيا  
فى الرسالة . وكنت ارى فى طلبها لعدد من اكبر الاساتذة ان يأتوا اليها  
ويعطوها محاضرات خاصة فى هذا الموضوع .. شيئا لا يقلل من  
جهدها .. كنت اقول فى مناقشة حامية مع الناس : ان مشهد سيدة تملك  
كل شيء من مال وجمال وشهرة وسلطة .. تحاول ان تحصل على لقب على  
لن يقدم ولن يؤخر شيئا فى حياتها .. هو اكبر داعية لان طلب المعرفة  
والعلم شيء له قيمة ويستحق التعب من اجله فى مرحلة انهارت فيها كل  
هذه القيم وصارت المادة بأى طريقة هى القيمة الوحيدة التى يعرفها  
المجتمع الظاهر على السطح .

وكنت اعرف من مظاهر جهدها وحبها الهائل للتفوق والنجاح والبروز أنها  
ما ان اصبحت زوجة لرئيس الجمهورية حتى سألت واستشارت ثم طلبت  
من اكبر خبراءنا المتخصصين ان يعطوها فى بيتها محاضرات خاصة فى :  
التاريخ المصرى - التاريخ الإسلامى والعربى - الموسيقى العالمية -

وغيرها .. وسمعت منها سرّة تعليقاً على هذا الجهد انها اذا تتطلع لمقابلة اكبر الشخصيات العالمية ، فقد رأت انها يجب ان تكون مهياًة للحديث في مثل هذه الموضوعات على مستوى لائق من المعرفة .

كانت قصة الماجستير خلال فترة انقطعية التامة يعني وبين الرئيس السادات وقد ادلت بعد ذلك بحديث للصحفي الاستاذ نشأت القليل في مجلة الحوادث كان من عناوينه عنوان يقول : ان احمد بهاء الدين الكاتب الذي لايتفق قد ارسل لي رسالة يهتني فيها على الماجستير ، وذلك ردا على سؤال طرح عليها عن اعتراض الناس على هذه الرسالة واداعتها . وكان لهذا الحديث رد فعل طريف في المعسكرين : معسكر خصوم السادات السياسيين اغضبهم منى ان اكتب رسالة لزوجته اهنتها ، ومعسكر رجال السادات سواء منهم الحلفاء او الازناب ازعجهم ان تسمى السيدة جيهان السادات كاتبا ممتوعا من الكتابة في مصر بأنه «لايتفق» مما يعني بمفهوم المخالفة وصف غير مباشر للذين ديجوا المقالات في مدح الرسالة بأنهم منافقون .

والحقيقة اننى ارسلت لها بالفعل رسالة قصيرة مع بضع سطور : هنتها في اولها على الرسالة وذكرته للمعنى السابق الذى اشرت اليه وفي الجزء الثانى من الرسالة حدثتها عن ظلم اكاىمى مجحف وقاس على احد من فوهات هى بهم في مناقشة الرسالة كأهم اسانذتها الاجلاء .. وممن لايعرفون التقرب الى السلطة وبالقالي فهو مغبون في كل عهد وكان ممتوعا مثلى من الكتابة وسالتها ان تحاول ان تفعل شيئا في هذا المجال . ولا احب ان اذكر هنا اسم هذا الاستاذ الكبير لاننى لم استشره في ذلك . ولاننى عندما رويت له ما فعلت بعد ذلك بسنوات غضب منى غضبا شديدا .

ولكن الناس كانوا يعادون ما يلجمونه فيها - وهو صحيح - من طموح لا يعرف الحدود .. وقد كانت لها احيانا قراراتها الجريئة التى لاترضى السادات .

كنت مرة على موعد معه في استراحة المعمورة ليلا . وفي الحديقة وجده جالسا وكانت زوجته على غير العادة جالسة معه . ثم ادركت السبب بعد السلام والتحية وما الى ذلك ، وكنت عائدا من الكويت ، عندما فاجأتنى امامه بسؤال مباشر : انت قادم من الكويت واريد ان اعرف منك رأى الناس في الخليج عن رحلتى مع الرئيس بصراحة ؟ وقد كانت في الواقع قصة كبيرة في الخليج . كان الناس يرون الرئيس وهو على شاشة التليفزيون وهو يهبط من الطائرة في مطار الرياض في زيارة للسعودية ..

وقوحنوا بالسيدة جيهان تخرج معه ويجواره من باب الطائرة في موقف كله رجال ودون إخطار سابق للدولة في السعودية .. وقد روت لى أمام السادات بعد ان وجهت الى ذلك السؤال .. انها ضغطت عليه حتى قبل بذهابها معه . وعلى اتفاق بدهي بمراعاة البيروتوكول في بلاد الخليج اذ يستقبل رئيس الدولة بمفرده رسمياً وأمام عدسات التليفزيون والصحافة .. وبعد ان ينصرف موكب الرجال تصعد الى الطائرة السيدات اللاتي ذهبن لاستقبال زوجة رئيس الدولة ويأخذونها بعيداً عن العلانية والاضواء .. ثم استخزنن قاتلة انه ما ان فتح باب الطائرة وقام الرئيس متجها الى الباب حتى قفز الى ذهنها ان تخلق سابقة جديدة .. فنهضت دون سابق انذار وخرجت من باب الطائرة ليجدها السادات واقفة بجواره .. أمام كل العدسات .. وفي مطار كامل من الرجال .

وانتهت القصة بأن قالت ان المسئولين السعوديين رغم المفاجأة تصرفوا بغاية اللباقة والترحيب المهذب ولم يشعروها باحساسهم بأى حرج حتى انتهى الموقف المسرحى الغريب .

كانت تروى لى القصة بالتفصيل والرئيس السادات جالس بيننا في ليل المعمورة يثقت دخان غليونه في تحهم متجاهلاً تماماً الحديث كأنه لا يريد ان يسمع . وشعرت ان الواقعة اثارت مشكلة بينهما . وانها تسألنى امامه عمدا متوقعة ان تسمع منى رأيا يعزز وجهة نظرها .

وقلت لها وكأنتى اسمعه هو طبعاً : الناس في بلادنا نوعان وكذلك الامر في عالمنا العربى كله : هناك الذين عرفوا الدنيا وتعلموا فى الخارج وهؤلاء لاتزعمهم مثل هذه الواقعة .. بل لعلهم يرحبون بها .

وهناك البسطاء من الناس وهم اغلبيه فى بلادنا ، قد لا يرضيهم مثل هذا التجديد بلا مقدمات .

كل من رأى وعرف جيهان السادات - قبل وبعد الرئاسة - لا يمكن ان يخطئه الشعور انها كانت تحب زوجها حباً شديداً غير عادى - وانه كان يبادلها نفس هذا الشعور ، وان كان اكثر تحفظاً فى اظهاره .. ولا انسى اننا - قبل الرئاسة - كنا فى جلسة اصدقاء صغيرة وكانت هى موجودة بدونى ، واجست بفطرتها الخارقة ان بعض عاقل فيه نوع من المزاح حول احدى عاداته ، وقالت ببساطة شديدة كلمة لا انسأها : « دائماً اقول لنفسى ياريت كل الناس يشرفوه بعيونى !! »

وهى جملة اريدها حتى الآن على مسامع كثير من الزوجات ! ولاشك ان نفوذها عليه كان قويا . وهو ما لا يقبله الناس فى بلادنا من الرجل العام . وفى مناقشة فى امريكا قلت لبعض الامريكيين : انتم تشربون فى صحفكم ان كارتر له جلسة اسبوعية مع زوجته روزالين ،

يشروح لها فيها سياساته وتناقشه فيها ويستشيرها فيما سوف يتخذه من قرارات . وهذا يضاف الى رصيد الرئيس امام الناس تحت عنوان الاسيرة الامريكية السعيدة . ولذلك فان زوجة المرشح للرئاسة تصبح في كل مكان واجتماع ولها دور كبير في نجاحه او سقوطه . ولكن هذا وضع امريكي محض فهو حتى ليس غريبا .. ففى اوريا يعتبر نفوذ زوجة الرجل العام عليه نقطة ضده وليست له . ونفس الامر فى بلادنا بشكل اكثر تشددا .. ولكنكم تضللون الاثنيين .. ان تظنون ان اهتمامهم الى تقليد امريكي يرفع اسنهما فى مصر والعكس تماما هو الصحيح .

وقد بقى نفوذها على السادات طائفا ، حتى انتزع منها عثمان احمد عثمان جزءا كبيرا من هذا النفوذ ، وصار الرئيس يقضى من الاوقات فى شتى الاستراحات مع عثمان اكثر مما يقضى فى بيته معها . وتضاءلت سمعة نفوذها الى جانب تنامي سمعة نفوذ عثمان احمد عثمان . الامر الذى جعلها ، رغم المصاهرة بينهما تكرهه الى حد كبير .

وقد بلغ من تصاعد عدااء الراى العام المصرى لها بسبب ماشاع بيته من نفوذ سياسى لها ، ومن تبغى "عادات امريكية" ، اننى اذكر اننى كنت فى لندن تانى يوم اغتيال السادات .. وكنا نتابع على التليفزيون كل ما تلا ذلك من احداث ومن بينها ظهورها اثناء دفنه صامدة متماسكة الى آخر حدود ، ثم الزيارة الشهيرة التى قام بها الرؤساء الامريكيون الثلاثة : نيكسون وفورد وكارتر لها . وشاهدنا المقابلة على التليفزيون وقد بدت فى قمة ثباتها وحسن مندامها بل واناقتها .

وصاح الجالسون والجالسات معنا وكلهم من المصريين المتفرنجين الذين يعيشون فى لندن : انظروا ! حتى الحزن لا يبدو عليها ، وهندامها كامل .. وشعرها كأنه خارج لتوه من بين يدي الكوافير ! وزوجها مقتول منذ يومين فقط .

وقلت لهم : هل اذا ظهرت جاكين كيندى بعد مقتل زوجها فى هذا الثبات والهندام انطلقنا نشيد بهؤلاء الامريكان ، فاذا فعلت سيدة مصرية ذلك اخذناه عليها ؟ اننى بالعكس ، أحببها على هذا الثبات .

\*\*\*

وعندما انقطعت صلتى تماما بالرئيس السادات ثم تطورت الامور الى معنى من الكتابة لم اعد ارى السيدة جيهان بالطبع .. حتى كنت يوما فى القاهرة فى رحلاتى المستمرة بين الكويت ومصر واتصلت بى السيدة امال طلبات ودعتنى الى حفل عشاء كانت تقيمه للسيدة جيهان .. وقلت لها ان

وجودى قد يدرجها .. فقالت لى : بالعكس انها هى التى طلبت ذلك . ولم استغرب ذلك . فقد كانت السيدة جيهان تعمل دائما على محاولة تقريب الناس من السادات ورأب الصدوع التى كانت تحدث بينه وبين الآخرين .

وبالفعل . رخصت السيدة جيهان ترحيبا ادهش الحاضرين ، وفى خلال الحفل المزدحم تمكنت بلباقتها من التخلص ممن يتزاحمون للالتصاق بها وانفردت بى لحظات وهمست فى أذنى تسألنى عن احوال الصراع العنيف بين الرئيس والعالم العربى ، وافهمتنى انها ليست موافقة على خطابات الرئيس المتطرفة فى عنفها ضد العرب ، ووصفه لهم بالاقزام والمتخلفين وما الى ذلك من الفاظ تجرح وتهيل الدم . وقالت لى انها كلما كان ذاهبا لالقاء خطبة تلح عليه ان يلتزم بالنص المكتوب وان لا يترك نفسه للارتجال .. وبالتالى قول ما لا يريد فى الواقع ان يقوله .. وقالت لى : والله العظيم كل ما يكون رايح يخطب اوصله لباب البيت ، وفى يدى "قرص فاليرم" وكوب ماء واستحلفه ان يلتزم الاعتدال .

وبعد حديث قصير سألتنى : الا تريد ان ترى الرئيس قبل سفرك الى الكويت ؟

واجبتها : لا لحد يتردد فى مقابلة رئيس دولته ولكن عندى سببين للاعتذار عن المقابلة . الاول . ان الرئيس غاضب منى . وهل تصدق كلام الصحفيين ؟

ـ لم يقل لى احد ذلك .. ولكنه امر بدهى .. فالرئيس يخوض معركة حياته السياسية وانا لست فى معسكره وقد رفض منى حتى موقف المعارضة المثقلة .. فمنعنى من الكتابة .

وقالت : لا غضب ولا كلام قارغ .. انت تعرف شعوره الخاص بنحوك .. وقد كنت اسمعكما تتشاجران ثم يطلبك بعد ايام .. ان بينكما عشرة طويلة .

قلت لها : وهنا يأتى السبب الثانى : اننى بصراحة اسمع ان الرئيس فى حالة عصبية شديدة التوتر .. وانه لم يعد يطيق المناقشة .. وانه لا يتردد فى اهانته من يناقشه .. ويصعب جام غضبه على الصحفيين . اننى لاجل هذه العشرة الطويلة لا اريد ان اقابله فى هذه الظروف .. فقد يحدث بيننا ما يكسر الجرة نهائيا .. اننى افضل ان لا نتقابل حتى تمر حدة الأزمة بشكل او بآخر فيكون فى اللقاء فائدة ..

ولاحظت ان السيدة جيهان لم تعلق على هذا السبب الثانى بالتفى مما اكد لى ما كنت اسمعه فى هذا المجال ممن يقابلونه .

وقالت لى السيدة جيهان : طيب انا اطلب منك وعدا .. وهو ان تواظب

على مقابلتى طوال هذه القطيعة ، أن تحصل بى حين تأتى من الكويت كل بضعة اسابيع كعادتك واحد لك موعدا .. وبالفعل صرت كلما جئت الى القاهرة تركت ذبرا لدى سكرتاريته .. فتحدد لى موعدا واذهب لزيارتها فى حجرة مكتبها الخاصة الصغيرة وتناقشنى فى كل الامور السياسية بدقة .. واتحدث معها بكل صراحة .. معتبرا انها ستختار اذا ارادت ان تنتقل الى الرئيس ما تراه من اراء او تقديرات .

معركة رئاسة مؤسسة الاهرام : سمعت بالوفاء المفاجئة للمرحوم على حمدي الجمال رئيس مجلس ادارة ورئيس تحرير الاهرام .. فطريت الى القاهرة لالحق بسرادق الغزاء .. وبعد ايام فوجئت بمكتبها يستدعينى لمقابلتها فورا .. وذهبت اليها فى الموعد المحدد ..

وكان المرحوم على حمدي الجمال قد تعرض لاهانة شديدة فى عضوية من عضيات السادات المتزايدة امام زملائه من رؤساء التحرير والمسؤولين عن أجهزة الاعلام ، وقالت لى السيدة جيهان : ان انور حزين جدا لوفاء على الجمال حتى يكاد لا ياكل ، انت طبعاً تعرف ماجرى بينهما .. صدقنى ان الشعور الذى يؤرقه هو ان يكون ما فعله به قد ساهم فى وفاته المفاجئة .

وكنت اعرف القصة المؤلمة .. فقلت لها : على أية حال الاعمار بيد الله ..

وفاجأتنى بقولها ان السادات فوضها فى ان تعرض على منصب رئيس مجلس ادارة ورئيس تحرير الاهرام .. وانها قالت له انها تعتقد انها قادرة على اقناعى بذلك .

اعتذرت لها طبعاً على الفور .. وقلت لها : انت تعرفين ان اسرتى عادت الى مصر وان عقدي ينتهى مع الكويت واننى عائد فى القريب العاجل .. ولكن الرئيس السادات نفسه يعرف اننى ائت على نفسى الا اتولى اى منصب صحفى وان لدى اسباباً صحية قوية لذلك . وقلت لها ان تذكر الرئيس السادات اننى قلت له يوماً اننى افضل ان اعيش مع أولادى يوماً زيادة على ان اتولى اى منصب عشر سنوات كاملة .. الخ .

ثم تعرضت طبعاً للجانب السياسى فى الموضوع . فما توقفت وتركزت رئاسة التحرير من اجله قد زاد وتفاقم وثبتت مع الاسف تنبؤاتى .. وانه لوضع مستحيل ان ينتقل شخص من موقف الممنوع من الكتابة فى الصحافة المصرية الى اكبر منصب صحفى فى مصر ، دوره الاول ان يدافع عن سياسات الدولة . وقلت لها كيف يمكن ان اتولى مسئولية التعبير عن سياسات لا اؤمن بها .



وكان لديها رد على كل كلمة بذكاائها المعهود .. وشعرت بحرج شديد  
ازاء مسغطها غير المألوف على .. ثم قالت لى فجأة : الاهرام مش صعبان  
عليك ؟ يعنى يخلصك ان عثمان (المهندس عثمان احمد عثمان) يأخذ  
الاهرام كمان ؟ بواسطة فلان وفلان (ونكرت الاسماء) من جماعته ؟

وشعرت بان هذا فى حد ذاته ، كان سببا آخر لضغطها والحاجها غير  
المألوف ، وخرجت حرجا شديدا لشعورى باننى اخذها .. واكنى تجاهلت  
ماقالته تماما عن عثمان احمد عثمان ، كأذنى لم أسمعها ، ومضيت أطرح  
عليها أفكارى واقتراحاتى فى احسن أسلوب للتصرف ازاء خلو المنصب .  
والواقع ان ماقالته السيد جيهان لى عما أسمته « استيلاء عثمان على  
« الاهرام » كان له لديها - فيما يبدو - ما يبرره .

فقبل هذا الحديث معها بيوم أو يومين ، كنت جالسا فى سرادق العزاء  
فى المرحوم على حمدي الجمال ، آخر الليل ، وقد خلا السرادق تقريبا ،  
ولم يعد بجوارى احد .

وفجأة وجدت الزميل زكريا نيل المحرر بالأهرام والزميل عبد الله عبد  
البارى المدير العام الإدارى للأهرام وقتها ، يجلسان فى وقت واحد ،  
أحدهما على يمينى والآخر على يسارى . وسألنى فى وقت واحد : ما  
رأيك ؟ من تقترح لكى يكون رئيس مجلس إدارة الأهرام ؟

وأبديت دهشتى لتعجلهما ، فقالا لى ان معلوماتهما أن السادات لو  
ترك لنفسه فسوف يختار أنيس منصور لهذا المنصب ، وهو ما يجب  
الحيلولة دونه بأي ثمن . ووافقتهما على هذا الاستنتاج - أو  
المعلومات - لأننى كنت أعلم ما يعلمانه من ان أنيس منصور وقتها  
كان أقرب صحفى للرئيس السادات وسألتهما بدورى : أنا لم أشكر قط  
فما هو اقتراحكما ؟

وقالا لى : إنهما يرشحان واحدا من اثنين أما المهندس سيد مرعى  
رئيس مجلس الشعب ، وأما السيد منصور حسن وزير الاعلام فى ذلك  
الوقت .

وأبديت دهشتى لهذين الاقتراحين . ولكننى فهمت منهما أن المطلوب  
أن يتولى منصب رئاسة مجلس الإدارة شخص لا يطمع فى المنصب ولا  
يريد به . وبالتالي يكون وجوده كرئيس مجلس الإدارة رمزيا ، كما كانت  
الحال أيام تولى الدكتور عبد القادر حاتم لهذا المنصب ، وبالتالي لا يطرأ  
أى تغيير على أصحاب السلطة الحقيقية داخل المؤسسة حتى ينجلي  
الموقف على الأقل ، وينتفى احتمال تعيين أنيس منصور .

ومرة أخرى قلت لهما أن هذه افكار غير واردة فى تقديرى وكان ذلك يوم  
الخميس . واستمهلتهما حتى ألقيهما فى « الاهرام » صباح السبت ونعير

الحديث والتفكير في الموضوع . ولكنهما قالاني : كلا .. تريد أن نسمع منك اقتراحا الآن . فغدا يوم الجمعة ، والرئيس السادات ذاهب كالعادة إلى عزبة عثمان أحمد عثمان في الحرائية لقضاء اليوم والصلاة وتناول الغداء هناك ، ونحن لدينا موعد مع عثمان أحمد عثمان الساعة الثامنة صباح غد . ونريد أن نبلغه اقتراحا محددا بحيث ينقله إلى السادات . وقلت لهما : إذا أراد السادات أن يقرر بسرعة تعيين أحد لهذا المنصب ، فسوف يعين أنيس منصور . وكل ما يمكنكم عمله هو أن تقنع عثمان أحمد عثمان بأن يقنع السادات بأن مثل هذا القرار ليس مستعجلا ، ويمكن تأجيله شهرا أو شهرين . في هذه الحالة قد يكون أمامكم مجال تامل الموقف بصورة أشمل .

وهذا حدث . وعندما حدثتني السيدة جيهان السادات بالحديث السابق عما أسمته « استيلاء عثمان على الأهرام » ذكرت لي هذين الاسمين بالتحديد : عبد الله عبد الباري وزكريا نيل ، وقالت انهما سيكونان المندوبين الساميين « لعثمان أحمد عثمان في الأهرام بصرف النظر عن شخص رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير إلا إذا عين للمنصب شخص قوي مستقل » .

ووقتها ، تجاهلت كلام السيدة جيهان عن الأشخاص ، كما ذكرت ، وقلت لها أن تذكر الرئيس السادات باقتراحى القديم له بالفصل بين منصب رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير ، وأن تذكره أيضا وتكرر له رأيي الدائم بأن أى مرشحين للمناصب الصحفية يحسن أن يكونوا من نفس المؤسسات الصحفية ، لأن تعيين عناصر من خارج الصحافة في هذه المناصب يحدث احتياضا شديدا لكل الصحفيين ويجعلهم يشعرون بأن غيرهم يسلب حقهم في التقدم .

وقلت لها : إن أكبر منصب لدارى في الأهرام حاليا يشغله الاستاذ عبد الله عبد الباري . وأن أكبر مسئوليتين في التحرير يتحملهما الاستاذ ابراهيم نافع والاستاذ مكرم محمد احمد .

ولفت نظري أن السيدة جيهان السادات لم تعلق على اسمى مكرم محمد احمد أو ابراهيم نافع . ولكنها قالت : عبد الله عبد الباري رئيس مجلس إدارة لا .. الرئيس مستحيل يوافق !

وقد ادهشنى هذا التعليق ، وكأنها تقول أمرا مفروغا منه . وبعد حديث السرايق ، وحديث السيدة جيهان ، وشعورى بناءا عليهما بأن ثمة معركة أخرى بين السيدة جيهان والمهندس عثمان أحمد عثمان ، ذهبت إلى الأهرام . وزرت هيمن زرت الاستاذ عبد الله عبد الباري . دخلت مكتبه وجلست ، وقلت له : صحيح أنا من المفضوب عليهم في

هذا العهد ! ولكنك تعرف أنني لا آتي بمعلوماتي من الشارع ! ومعلوماتي أن لديك فرصة أن تكون رئيسا لمجلس إدارة الأهرام ، ويكون غيرك من المؤسسة رئيسا للتحرير .

ونظر إليّ عبد الله عبد الباري نظرة بهشة وقال لي : ولكنني أعرف جيدا أن هذا مستحيل ! وهو أمر لم أتصور ولا أتصور حدوثه مطلقا ! ولذلك كان اقتراحى أن يتولى رئاسة مجلس الإدارة اسم كبير ، ويترك عجلة الأهرام تدور كما تدور حاليا .

وقلت له : إن ما أقوله لك صحيح ، خصوصا بحكم علاقتك بعثمان أحمد عثمان . ولكنني شعرت .. ولا تسألني كيف .. ولا من أين .. أن ثمة مشكلة خاصة بين السادات وبينك بالذات . وإذا كان شعورى صحيحا فإني أعتقد أن عثمان أحمد عثمان يستطيع حل مثل هذه المشكلة .

وفاجأني عبد الله عبد الباري بقصة لم اسمعها قط وربما لا يعرفها حتى الآن إلا القليلون جدا . إذ قال لي : ولا عثمان يحلها ! اتعرف ماهي المشكلة ؟ إن لي أخا ، كان قد تزوج كاميليا ابنة الرئيس السادات من زوجته الأولى ! وأنت تعرف ماجرى من خلافات عنيفة واتهامات متبادلة ، بين بنات السادات من زوجته الأولى وبين جيهان . وكانت كاميليا هي أفصح البنات وأكثرهن جرأة على أبيها وعلى جيهان . وقد حُسبنا بحكم هذا الزواج على أننا في صف كاميليا ، ضد أبيها وزوجة أبيها وإنما نعرضها عليهما . ثم طلق أخى كاميليا . وهذا زان الصراة الشخصية تفاقمنا ! تلك هي القصة ! وأنت تعرف أن كل مرة قُدِّمَ فيها اسمى للسادات لتغيير لقبى من « مدير عام » إلى « عضو منتدب » ، كان السادات يشطب بيده هذا السطر ، من أى قرار خاص بالأهرام .

الواقع أنني ذهلت من هذه القصة التي لم اسمع بها قط فى عالم الصحافة الذى لا تخفى فيه مثل هذه الحكاية . ولكنني قلت لعبد الله عبد الباري : هذا كله جديد علىّ تماما ، ولكن ، اسمع : إن السادات كما أعرفه لا ينسى خصوماته بسرعة ، ومع ذلك فمن بين متناقضات شخصيته أنه يمكنه فى لحظة واحدة أن ينسى كل شئ . وتقديرى أن تأثير عثمان أحمد عثمان عليه كفيف بأن يصارحه بهذه القصة ، وأن يطلب منه نسيانها ، وتقديرى أيضا أن عثمان يستطيع أن يرتب لك مقابلة مع السادات .

.. مستحيل !!

.. لا ، ممكن جدا ، وأنا أعرف شطارتك ، وأنت تستطيع .. إذا سنحت لك فرصة الحديث مع أحد أن « تأكله » و « تمصمه » حتى ولو كان أنور السادات .

وضحك . وضحك عبد الله عبد الباري ضحكة حزينة قائلاً وهو يودعنى أنت متفائل !

ولكن هذا هو ما حدث بالفعل !

وانتهى الأمر بتولى الأستاذ عبد الله عبد الباري رئاسة مجلس الإدارة ، وتولى أحد اللذين اقترحتهما لرئاسة التحرير وهو الأستاذ ابراهيم نافع (سان الذى اقترح اسم الأستاذ ابراهيم نافع على الرئيس السادات مباشرة هو الدكتور مصطفى خليل) وقد تم بالطريقة التى طرحتها عليها بالضبط : ما اقترحته على السيدة جيهان السادات : ان يكون الأمر انتخاباً بضعة أسابيع أو أشهر دون رفع اسم المرشح على الجبال فإذا نجحت التجربة ، صدر قرار بتعيينهما .

وكانت هذه آخر فرصة عرض على فيها العودة إلى اللقاء مع الرئيس السادات ، اللقاء الذى لم يتم .

وبعد اغتيال السادات بأسبوعين جئت من لندن إلى القاهرة وعلمت ، من صديقات السيدة جيهان المقربات ، الصورة القوية المتماسكة التى رآها الناس هى نصف الحقيقة .. اما نصفها الآخر فهو أنها فى حالة انهيار وحزن هائل أغلب الوقت .. واقرب صديقاتها اليها لا يرينها ويكتفين بترك سؤالهن عنها لدى سكرتيرها احمد فوزى فى ذلك الوقت .

وكل فترة من الزمن ، عندما تضطر لمقابلة وفد اجنبى من اعضاء الكونجرس الأمريكى مثلاً أو من وزراء اجانب زائرين .. تستجمع اطراف ارادتها وتظهر فى احسن عظمر لها وتستقبل الزوار الرسميين وتستكمل اليوم باستدعاء بعض صديقاتها فقط لاغير .

واتصلت بسكرتيرها احمد فوزى وتركت له خبراً اننى اود زيارتها بضع دقائق لتقديم واجب العزاء .. قاصداً بذلك فى الواقع مجرد تسجيل واجب العزاء .

ولكن لم يمض يومان ، حتى اتصل بى سكرتيرها احمد فوزى وحدد لى موعداً لزيارتها .. وبيت السادات فى الجيزة صغير من الداخل يعكس ما يبدو من الخارج وكانت حجراته بالفعل مغلقة .. كل حجرة منها فيها وقد من دولة ما ، ولابد ان طلى صافى يوماً من ايام تهيئتها لمواجهة هذه الواجبات .

وحين ادخلتنى السيدة قدرية صادق الى الصالون الذى كانت جالسة فيه .. كانت من جيهان السادات كما عهدتها دائماً فى قوة حضورها وحتى الايتسامة .. الشاحبة هذه المرة .. باستثناء الفستان الاسود والنظارة السوداء الكبيرة التى تغطى عينيها تماماً ، وجاءت بعدى السيدة صفية المهندس ، وجلست فترة ثم اتصرفت .

ولم اذكر كلمة عزاء واحدة لائننى أجده عادة فى هذه المناسبات المرة

سخيفا ومفروغا منه .. بل فتحت على الفور موضوعات عدة للكلام العادي بدلا من الحديث عن الاحزان المرفرفة فى فضاء الحجرة . ولامبال هنا بالاطالة عن هذه الاحاديث التى استطاعت فعلا وسكرتيرتها السيدة قدرية تأتى من حين لآخر تذكرها بمواعيدها الاخرى .. فقد جزأ الحديث الى ما سوف يواجهها فى الايام المقبلة .. وقد روت لى بالتفصيل قصة يوم الاغتيال المشهود .. من المنصة الى المستشفى الى قول الاطباء لها : الله يرحمه ..

ولكننى قد احب ان اسجل واقعة ترسم صورة لهذه السيدة التى كانت ومازالت محل فضول وحب استطلاع الناس اعداء واصدقاء ..  
دق التليفون اثناء وجودي ، وحمله اليها احد الموظفين كان واضحا من ردودها انها تتحدث الى شخص من اقارب العائلة الحميمين .. وفى احد ردودها على مهندسها اعترفت بانها طبعا تقاوم الامها بصعوبة خصوصا فى تهدئة خواطر بناتها .. ولكنها تتصور انها حين تعود الى التدريس بعد اجازة الاسبوعين التى طلبتها من الجامعة سوف يشغلها التدريس والذهاب الى الجامعة ولو جزئيا عن همومها .

وبعد ان وضعت سماعة التليفون قلت لها : نحن جميعا نعرف قوة ارادتك غير العادية .. ونعرف بصراحة ميلك الطبيعى الى التحدى .. ولكنى اعتقد ان ذهابك للتدريس فى الجامعة بعد اسبوعين من اغتيال الرئيس الراحل مبالغة شديدة منك .. اننى اسألك ماذا تريد ان تثبتى لنفسك او للناس بالضبط ؟

وقالت لى : لا اريد ان اثبت شيئا .. وانا فقط اقصد ما اقول من ان انشغالى بشىء هو مهربي الوحيد لآئك تعرف اننى لاسطيع البقاء فى البيت هكذا دون شىء يشغلنى ويسألتها : الا تخافين من الذهاب الى الجامعة فى هذه الظروف ..

قالت : لا اعتقد ان هناك خطرا على حياتى داخل الجامعة .. ثم اننى لا اريد ان يقال اننى كنت ادرس واكتب الماجستير ثم الدكتوراه مادمت كنت زوجة لرئيس الجمهورية فلما تغير الوضع قررت انهاء التمثيلية . وقلت لها : اولاً ان أى زوج مصري يقتل لاتذهب زوجته الى العمل بعد اسبوعين ! هذا غير مقبول لدى مجموع شعبنا .. وقد كانت كثير من مشاكلك مع الراى العام سببها تصرفات تعجب الناس فى امريكا ولكنها لا تعجبنا فى مصر .. ثم اننى اعرف ان حياتك غير مهددة .. ولكن جو الجامعة شديد العداء فى الوقت الحاضر للرئيس الراحل ، وذهابك قد يعرضك ولو لسماع كلمة من طالب لاداعى لسماعها ..  
- لماذا تقول ان جو الجامعة معاد لهذه الدرجة ؟

- انسيت ان من اخر قرارات الرئيس فصل عدد كبير من اساتذة جامعة القاهرة ؟ خصوصا فصل الاساتذة الاربعة زسلاذك فى قسم اللغة العربية بالذات ؟ ورغم اننى واثق من ان ما يقال غير صحيح .. فان كلية الاداب تردد ان مناقشاتك معهم وترتيبك لمقابلة بينهم وبين الرئيس الراحل وكلامهم المبرح الذى لم يهجه كان السبب فى وضعهم فى قوائم المقصولين .. رغم انك تعرفينهم جيدا وتعرفين انهم مصريون ووطنيون وليس لهم اى انتماءات او نشاطات سياسية .

وردت جيهان السادات بسرعة : انت تعرف قصة هؤلاء الاربعة معى واه العليم واقسم بحياة بناتى وابنى ، ان المرة الوحيدة التى بكيت فيها فى حياتى امام انور السادات وانا اطلب منه شيئا ، كانت يوم عرفت ان هؤلاء الاربعة فى كشف الذين سوف يفصلون .. ويوصها ثار انور ضدى ثورة لم اعهدا من قبل . وقال لى المرة دى مقيش خياطر .. ولوتوه ط العالم قلن اشطب اسما واحدا من الاسماء التى جاءت فى كشف وزارة الداخلية .

وقلت لها : على الاقل ان يكون مقبولا ان تدميى الى قسم اللغة العربية وهؤلاء الاربعة مازالوا مفصولين من عملهم .. والحد الادنى المعقول ان يعودوا قتل عودتك .

واحسست ان هذه الحجة قد غيرت من عنادها ورغبة التحدى الطبيعية فيها وقلت لها : لن يكون غير طبعى ولن يحسب عليك انه خوف او تراجع اذا طلبت اجازة لمدة سنة من الجامعة .  
وشكرتني على هذا التنبيه وقالت : انها ستفعل ذلك وودعتنى بودها المعهود وخرجت من بيت انور السادات لآخر مرة ..

## انتهت المحاورات





## الفهرس

### صفحة

الانطباعات الاولى .. وبداية المعرفة .....	٧
اخراجي من دار الهلال .....	١٩
المصالحة بعد حرب أكتوبر وخروج هيكل من الاهرام .....	٣٣
رئاسة تحرير الاهرام .....	٤٥
السلطات يتحدث عن : شاه ايران ، اندرو يوف ، حافظ الأسد .....	٦٧
الانفتاح .....	٧٥
المرض والاستقالة .....	٨٧
ظهور عثمان أحمد عثمان واحاديث عن عبدالناصر .....	٩٧
مناقشة في الكويت : من هو ديفيد ؟ .....	١٠٩
« ترزية قوانين » لعلاج « انتفاضة الحرامية ! » .....	١٢٣
المذبحة السياسية التي لم تتم .....	١٣٣
بين رحلة القدس ومباحثات الاسماعيلية .....	١٤٧
المنع الثاني من الكتابة .....	١٧٥
آخر الفرص .....	١٧٩





رقم الايداع ١٨١٦ / ٨٧

الترقيم الدولي X - ٢٧٩ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN





## محاوراتي مع السادات

●● توفرت للكاتب الكبير الأستاذ أحمد بهاء الدين ظروف جعلته قريبا من صانع القرار ، بحكم موقعه كصاحب قلم شارك بالرأى ، وتولى مناصب مختلفة في بلاط صاحبة الجلالة الصحافة .

وعرف القارئ أحمد بهاء الدين كاتباً موضوعياً يحمل باصرار مشعل الاستنارة والتقدم ، فممن أن ظهر اسمه ككاتب سياسى فى أوائل الخمسينيات فى مجلة روزاليوسف وتأسيسه مجلة صباح الخير ، ورئاسته لتحرير أخبار اليوم ومجلات دار الهلال والأهرام ومجلة العربى ، وحتى تفرغه للكتابة فى جريدة الأهرام ، كانت كتاباته تعبيراً صادقاً عن توق حار للعدل والتطور .

وهذا الكتاب محاورات مباشرة مع الرئيس السادات تلقى الضوء على الكثير من الأحداث التاريخية الكبرى والكاتب هنا يتجه مباشرة الى زاوية انتقاها بدقة ليوضح طريقة تفكير السادات الخاصة ودوافعه ونظريته السياسية والأشخاص ، منذ اللقاء الأول وحتى اتخاذ كل منها واتجاها .

التمن ع ، جنيهاً

